تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ

السنة الرابعة • العدد الثامن والثلاثون • كانون الأول (ديسمبر)

صناعة الفخار التقليدية في الخليج العربي

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها :

• خدمة القارئ العربي في كل مكان
• المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
• تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس .

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس
الهاتف : 263.819
الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,100 دينار تونسي أو ما يعادلها .

تاريخ العرب والعالم

العدد ٣٨ • كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨١م.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	تونس : ١ دينار
العراق : ٨٠٠ فلس	الكويت : ٧٠٠ فلس
السعودية : ٨ ريال	الامارات: ٨ درهم
الأردن : ٥٠٠ فلس	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
سوريا : ٦ ل.س.	اميركا : ٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

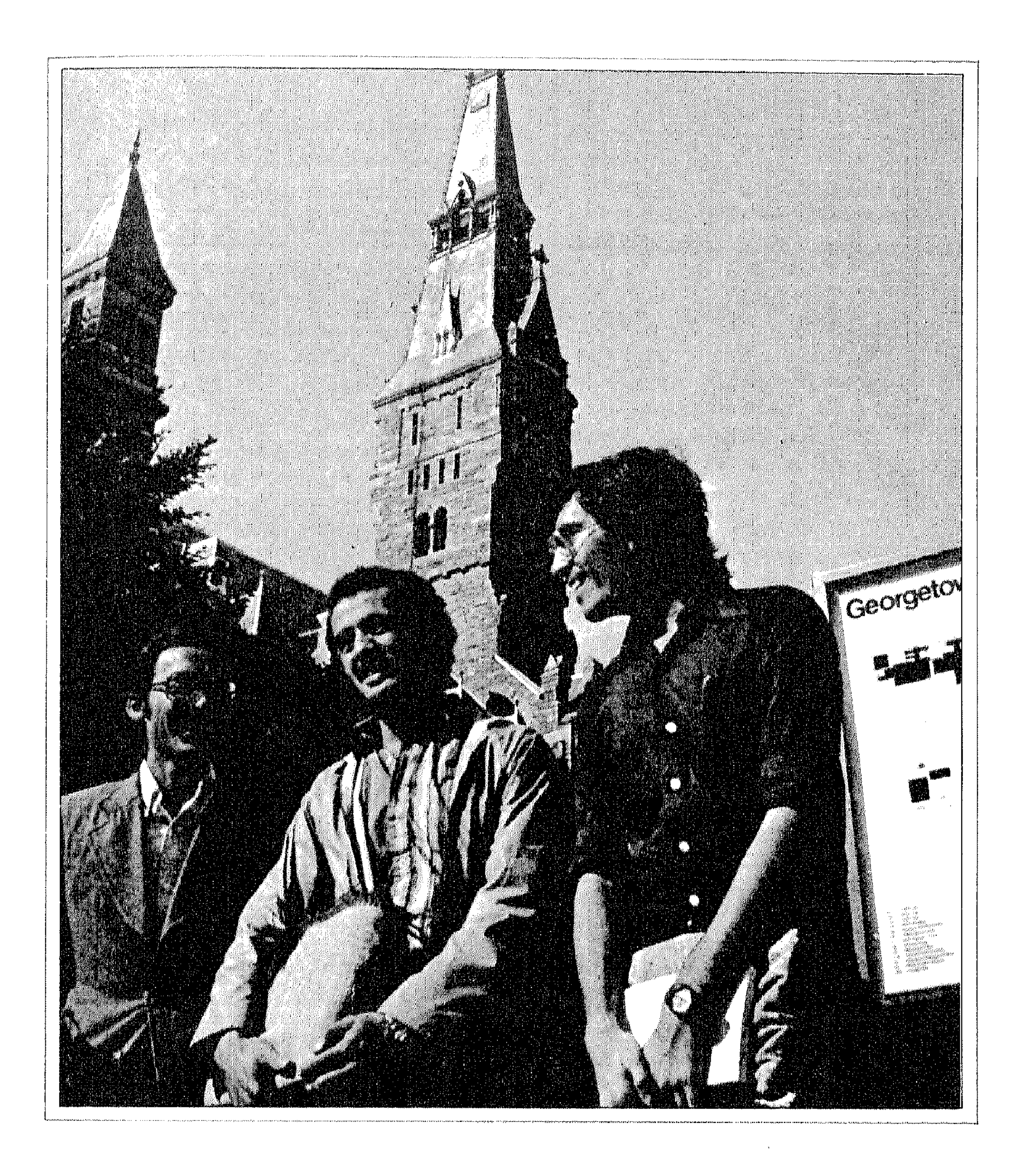
Vol. 4. No. 38. Dec. 1981

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■





نظرة أولية على هجرة الأدمغة العربية

د. سلمان رشيد سلمان / جامعة بغداد

لقد نوقشت قضية هجرة الأدمغة في العديد من الندوات ونشر العديد من الدراسات التي تناقش هذه القضية المهمة. ولقد تميزت بعض هذه الدراسات باحصائيات مفصلة حول الهجرة (١ ــ ٤). إلا أن معظم هذه الدراسات قد تناول مشكلة الهجرة من جانب واحد دون النظر إليها بشكل شامل. أما بالنسبة للوطن العربي فرغم تسرب الكثير من كوادره العلمية عن طريق الهجرة غير أنه لم تصدر احصائيات شاملة ومفصلة تمكن الباحث من القيام بدراسات معمقة للوصول إلى استنتاجات تفيد متخذي القرار في الوطن العربي.



يمكن أن تعتبر هجرة الأدمغة أحد المؤشرات المهمة لوجود خلل في بنية الدول النامية. وفي العلاقات القائمة مابينها وبين الدول المتقدمة. ومن هنا من الضروري أن ينظر إلى هذه المشكلة وإلى حلها على ضوء المحاولات الجارية لايجاد واحلال نظام اقتصادي عالمي جديد. لقد بينت الكثير من الدراسات الحديثة بأن التفاوت الكبير والمتزايد مابين الدول النامية والمتقدمة لايمكن فصله عن الوضع الاقتصادي الدولي، حيث تخصصت الدول النامية بانتاج وتصدير المواد الأولية بأسعار زهيدة، وقيام الدول المتقدمة بتصنيع هذه المواد وحصولها على فوائد اقتصادية كبيرة في عمليتي التجارة والتصنيع معاً. ولقد نتج عن ذلك انقسام العالم إلى دول غنية وأخرى فقيرة.

فالدول الصناعية والتي يبلغ سكانها ٦٨٢ مليون نسمة أي مايعادل ١٧,٢ في المائة من مجموع سكان العالم، تنتج مايعادل ٦٢,٣ في المائة من مجموع الناتج القومي الاجمالي العالمي خلال عام ١٩٧٥. وتوفر دخلاً سنوياً لكل واحد من مواطنيها يبلغ ٥٥٢١ دولار في حين يبلغ عدد سكان الدول النامية ٢٠٦٩ مليون نسمة وتنتج ٢٦,٢ في المائة من مجموع الناتج القومي الاجمالي، وتوفر لمواطنيها دخلاً سنوياً يبلغ ٤٧٨ دولار(٥) لقد أسفر هذا الوضع في استحواذ الدول المتقدمة على ٩٥ في المائة من التكنولوجيا(٦). وينتج العالم المتقدّم ٩٤,٨ في المائة من الانتاج العلمي العالمي(٧). أما فيما يتعلق ببراءات الاختراع فقد ساهمت جميع الدول النامية بمقدار ١ في المائة من مجموع البراءات العالمية المسجلة(٨). وقد أسفر هذا الوضع في تبعية الدول النامية للدول المتقدمة في أمر مهم بالنسبة لتحقيق تنمية سريعة إلا وهو موضوع التكنولوجيا وأصبحت الدول النامية تدفع مبالغ طائلة للتكنولوجيا الغربية مما يزيد في فقرها لأن عليها أن تدفع سعر هذه التكنولوجيا بالعملة النادرة. لقد كانت الكلفة المباشرة لنقل التكنولوجيا إلى الدول النامية في نهاية الستينات ١٥٠٠ مليون دولار(٩). وقدرت الكلفة عام ١٩٧٨ مابين ١٠ ــ ٢٠ بليون دولار ويقدر بأنها ستبلغ عام ٢٠٠٠ في حدود ١٥٠ ــ ٢٥٠ بليون دولار(١٠) وهذا المبلغ لن تستطيع الدول النامية دفعه مستقبلاً.

لقد وضحت مجموعة من المفكرين الوضع الحالي للعالم بالكلمات التالية «لقد تبين لنا خلال السنوات الأخيرة، أن الطريق الذي سرنا فيه يبدو، بالرغم من المنجزات الضخمة التي تحققت في بعض المجالات، مفضياً إلى الكوارث واليأس(١١)».

وستحاول في هذه الدراسة أن ننظر لموضوع هجرة الأدمغة من خلال هذه النظرة الشمولية مركزة بصورة أساسية على نقاط الخلل في الدول النامية والتي قادت إلى هجرة الأدمغة، وهذه الدراسة هي محاولة أولية في هذا المجال.

بعض الاحصائيات المهمة:

١ ــ بلغت الهجرة الكلية من الدول النامية إلى الدول المتقدمة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧ في حدود ١٨٦٤ مليون شخص، منهم حوالي ١٨١ ألفاً من ذوي الكفاءات. أي نسبة ٩,٧ في المائة، موزعين كما يلي بالنسبة للاختصاصات، ٤٥,٣ في المائة مهندسين، ١٧,٤ في المائة علوم طبيعية و٣٤,٣ في المائة من ذوي المهن الطبية

و٣ في المائة علوم انسانية واجتماعية[١٢].

٢ ــ بالنسبة لهجرة ذوي الكفاءات منذ عام ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ فقد بلغ مجموعهم ٢٣٠ ألفاً منهم حوالي ١٢٠ ألفاً هاجروا إلى أميركا وكندا موزعون بالشكل التالي[١٣].

٥ ــ بالنسبة للدول العربية فإن الاحصائيات التي نشرت قد اعتمدت على مصادر مختلفة. لذلك فإن الأرقام المذكورة لا يمكن أن تكون دقيقة إلا أنها يمكن أن تستعمل كمؤشرات لغرض هذه الدراسة. وفي

جدول ١ عدد المهاجرين ونسبتهم إلى كل من امريكا وكندا للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢

المنطقة	عدد المهاجرين	نسبة المهاجرين (مئوية)
آسيا (عدا المنطقة العربية)	٨٤٠٨١	٧٠,٦٩
المنطقة العربية	١٠٤٠٤	٨,٧٥
أفريقيا	٦٨٩٢	٥,٧٩
امريكا اللاتينية	١٧٥٧٣	١٤,٧٧
المجموع	١١٨٩٥٠	١٠٠

أما توزع الاختصاصات بالنسبة للدول العربية لهذه الفترة فقد كانت ٤٦,٦٧ في المائة مهندسين و١٥,٢ في المائة علوم طبيعية و٣٤,٣٥ في المائة علوم طبية و٣,٧ في المائة علوم انسانية.

٣ ــ خلال المدة ١٩٦٢ ــ ١٩٧٢ بلغت مساهمة الدول النامية من أطباء في كل من الولايات المتحدة وكندا والولايات المتحدة بحدود ٥٨ في المائة للأطباء و٤٢ في المائة من العلماء والمهندسين، وساهمت الدول النامية بـ ٥١ في المائة من الأطباء في الولايات المتحدة للعام ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ و٤٠ في المائة بالنسبة لبريطانيا[١٤].

٤ ــ إن أعداد المهاجرين تبلغ نسبة كبيرة من رصيد الدول النامية من المهندسين والعلماء والأطباء، فعلى سبيل المثال، قدر عدد المهاجرين من المهندسين من الهند للعام ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ بحوالي ٢٥ في المائة من مجموع الخريجين في العلوم و٣٠ في المائة من الأطباء[١٥]. أما بالنسبة للفليبين فإن هجرة الأطباء لعام ١٩٧٥ ــ ١٩٦٧ بلغت ٢١ في المائة من الخريجين أما نسبة المهندسين والعلماء فكانت ١١ في المائة[١٦].

أما بالنسبة لسيرلانكا فقد ازدادت نسبة المهاجرين من الأطباء من ٩ في المائة من خريجي كل سنة في بداية الستينات لتبلغ ١٦ في المائة في أواسط السبعينات[١٧].

هذا المجال فإن نسبة هجرة الكفاءات العربية إلى مجموع الكفاءات في الدول النامية، إلى الولايات المتحدة قد ارتفعت من ٤,٥ في المائة للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧[١٨] لتبلغ ٩ في المائة للفترة ٦١ ــ ١٩٧٢[١٩].

لقد بينت الدراسة الثانية والتي شملت الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٩ نسبة الهجرة مقسمة لبعض الدول العربية[٢٠].

جدول ٢
هجرة الأدمغة إلى الولايات المتحدة
للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٩

اسم البلد	مجموع المهاجرين	النسبة المئوية
مصر	٩٣١٥	٢٤,٦٦
لبنان	٨١٩١	٢١,٦٨
الأردن	٩٥٤٨	٢٥,٤
العراق	٤١٩٢	١١,١٥
سورية	٢٤٧٣	٦,٥٨
المغرب	٢٤٠٦	٦,٤
تونس	٤٩٧	١,٣٣
الجزائر	٩٨١	٢,٦
المجموع	٣٧٦٠٣	١٠٠

أما نسبة المهاجرين السنوية من عدد المتخرجين في البلاد العربية إلى كل من الولايات المتحدة وكندا للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦ فيبينها

الجدول التالي مقسمة حسب الاختصاصات:

جدول ٣
نسبة المهاجرين السنوية إلى المتخرجين للفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦

البلد	مهندسون	طبيعة	أطباء	علماء اجتماع
سورية	٥٦,٥	١١,٧	٩,٣	٠,٨
لبنان	٣٥,٥	١٠,٥	٢٤,٩	٠,٥
العراق	٩,٢		٤,٩	٠,١

ويتبين من الجدول كذلك أن معظم المهاجرين هم من المهندسين ثم الأطباء ثم علماء الطبيعة.

٦ ــ إن الدول النامية قد خسرت كثيراً من جراء هجرة الأدمغة فقد قدر رأس المال الداخل إلى الولايات المتحدة للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ من جرّاء الهجرة بـ ٣٠ مليون دولار. وكان الدخل في حالة تزايد فقد بلغ لسنة ١٩٧٠ حوالي ٣,٧ بليون دولار و٧,٦ بليون دولار لعام ١٩٧١ وحوالي ٧,٤ بليون دولار لعام ١٩٧٢. في حين قدر ربح كندا للفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ بحوالي ١٠ بليون دولار ولبريطانيا للفترة ١٩٦٤ ــ ١٩٧٢ بحوالي ٣,٥ بليون دولار(٢١).

ولقد بلغت القيمة الاستثمارية المقدرة للأدمغة المهاجرة من الدول النامية إلى الدول المتقدمة الثلاث آنفة الذكر بحوالي ٥٠ بليون دولار(٢٢). هذا عدا الضرائب التي تستحصلها هذه الدول الثلاث من المهاجرين والتي بلغت في الولايات المتحدة الأميركية لعام ١٩٧٢ بحدود ٩٥٠ مليون دولار. في حين بلغت المساعدات التي قدمتها الدول الثلاثة إلى الدول النامية للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ حوالي ٤٦ بليون دولار(٢٣).

٧ ــ إن الخسائر الناتجة عن الهجرة بالنسبة لبعض الدول النامية كانت كبيرة، فعلى سبيل المثال بلغت بالنسبة لكولومبيا عام ١٩٦٧ حوالي ٤,٤ في المائة من الدخل القومي(٢٤).

٨ ــ قدرت خسارة الوطن العربي من جراء الهجرة بمئة مليون دولار(٢٥). وهذا الرقم مشكوك فيه إذ أنه لو أخذت الدراسات التي ذكر بعضها وقورنت خسارة الدول العربية لبلغت ٤٠٠ مليون دولار سنوياً.

٩ ــ إن معظم المهاجرين من الدول العربية هم من حملة الدكتوراه والماجستير فعلى سبيل المثال وجد بأن ٧٠ في المائة من المهاجرين من مصر هم من حملة الدكتوراه و١٧ في المائة من حملة الماجستير(٢٦).

١٠ ــ لقد بينت احدى الدراسات(٢٧) بأن الكثير من المهاجرين يرجعون إلى أوطانهم بعد فترة من الزمن. وأن أكبر نسبة للعائدين هي في افريقيا تأتي بعدها آسيا، عدا الدول العربية، ثم اميركا اللاتينية أما أوطأ نسبة للعائدين فهي للمنطقة العربية أما بالنسبة لمصر فالدراسة تبين بأن معظم المهاجرين لا يرجعون إليها.

أسباب الهجرة:

إن هجرة الأدمغة عملية معقدة، ولا يجوز أن ينظر إليها بشكل بسيط وبمعزل عن الكثير من الظروف التي تؤثر في زيادتها أو نقصانها إلا أن من المهم أن نرى بأنه في ظل الأوضاع التي تعيشها الدول النامية إلا وهو ارتباطها الوثيق بالسوق الرأسمالية، فإن عملية الهجرة تكون عملية متوازنة بين قوى جذب من قبل الدول المتقدمة لما تتميز به من فوائد بالنسبة للمهاجر مادياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً وبين قوى الدفع الموجودة في الدول النامية. ولن تحاول هذه الدراسة الخوض في عناصر الجذب بقدر ما ستحاول أن تدرس عناصر الدفع ومسبباتها الحقيقية الآن ومستقبلاً، خاصة بالنسبة للوطن العربي. ومن هنا فإن هذه الدراسة ستركز على الدول النامية دون أن يعني ذلك غياب التأثير الكبير للدول المتقدمة على الهجرة. والهدف من كل ذلك هو محاولة تحليل أسباب الهجرة بالنسبة للدول النامية للوصول إلى استنتاجات مفيدة في هذا المجال.

سنذكر فيما يلي وبايجاز الأسباب العامة للهجرة من الدول النامية إلى المتقدمة. علماً بأن



شبابنا في الخارج... هل يعودون دائما؟

كل دولة نامية تختلف عن الأخرى في مسببات الهجرة. إلا أن من الممكن دراسة العوامل بصورة عامة والتي يمكن أن نقسمها إلى:

١ ــ سياسية واقتصادية
٢ ــ علمية وتعليمية وثقافية
٣ ــ اجتماعية

١ ــ سياسية واقتصادية:

يمكن أن تكون هذه الأسباب ذاتية أو موضوعية. وسنحاول أن ندرج أهم النقاط تحت هذا الباب.

١ ــ ١ ــ إن معظم الدول النامية قد نالت استقلالها حديثاً، إذ كانت مستعمرات للدول المتقدمة التي عملت على ربطها سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وتشويه بنيتها الاقتصادية بشكل لا تزال تعاني منه جميع الدول النامية ومن هنا فإن الكثير من الدول النامية ترتبط بالدول المتقدمة التي استعمرتها سابقاً بوثائق اقتصادية وسياسية قوية، ومن هنا فإن معظم كوادر الكامرون تهاجر إلى فرنسا، في حين تهاجر كوادر ترتينداد والفليبين إلى الولايات المتحدة[٢٨]، ويبين الجدول ١ بأن معظم كوادر أميركا اللاتينية (٩٣,٢) في المائة تهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية.

لقد ذكرت احدى الدراسات التي أجريت عن هجرة الأدمغة من الفليبين بأن هجرة الكفاءات لها علاقة بالمساعدات الأجنبية إذ أن أكثر المهاجرين هم من العلماء الذين تدربوا ضمن برامج المعونات في أميركا. إن استعمار الفليبين قد تركها معتمدة ثقافياً واجتماعياً على الولايات المتحدة بحيث أن ذلك قد قولب مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية والتعليمية بحيث جعل من مسألة الهجرة قضية مقبولة من قِبل المؤسسة الحاكمة[٢٩].

١ ــ ٢ ــ لقد ذكرت احدى الدراسات بأن أحد أهم الأسباب للهجرة من كولومبيا كانت عملية التناقض بين الأهداف المعلنة للمجموعة السياسية الحاكمة وبين الأجيال الجديدة من التقنيين والاداريين، وأن هذا الخلاف ناتج عن اختلاف في الاستراتيجية السياسية لكلا الطرفين. ولقد عملت المؤسسة

الحاكمة على تشجيع الهجرة للتخلص والتقليل من هذه المعارضة[٣٠]. ولقد دللت بعض الاحصائيات[٣١] على أن الأوضاع السياسية غير المستقرة في الدول النامية قد دفعت باعداد كبيرة للهجرة ولقد قدر عدد المهاجرين من لبنان نتيجة الحرب الأهلية (١٩٧٥ ــ ١٩٧٦) بحدود مليون وثلاثمائة وخمسون ألف نسمة[٣٢].

١ ــ ٣ ــ تلعب العوامل الاقتصادية دوراً كبيراً في الهجرة، وفي هذا المجال فإن الدول التي استعمرت الدول النامية قد شوهت البنية الاقتصادية للدول النامية وجعلتها سوقاً مفتوحة لتصدير الأيدي العاملة والفنيين إلى الدول المتقدمة في حين جعلت من الدول النامية سوقاً مفتوحة لبضائعها المصنعة. ولنا في تجربة الجزائر خير مثال، فإن ظروف التبعية لفرنسا قد جعلت اقتصاد الجزائر يعجز عن تحقيق تنمية اقتصادية، وأدى ذلك إلى انتشار البطالة. ففي القطاع الزراعي مثلاً كانت جميع الأراضي الخصبة تحت تصرف الفرنسي وبعض كبار الملاك الجزائريين. فكانت أقلية من الأوروبيين تجني ٧٨ في المائة من دخل الجزائر من الزراعة و٥ في المائة من كبار الملاك الجزائريين يجنون ١٣ في المائة أما الأغلبية التي تشكل ٩٥ في المائة من سكان المناطق الزراعية فلا تزيد حصتها عن ٩ في المائة[٣٣] ولقد أدى هذا الوضع إلى هجرة الكثير من الجزائريين حتى أن عدد المهاجرين يبلغ عام ١٩٥١ بحدود ٤٠٠ ألف مهاجر في حين يقدر عددهم الآن بأكثر من ٧٠٠ ألف مهاجر.

١ ــ ٤ ــ إن كثيراً من الدول النامية وبسبب وضعها الاقتصادي لا تحقق نسبة نمو اقتصادي تعادل نسبة نمو السكان. وهذا الوضع يولد بطالة كبيرة في القطاعات الاقتصادية والعلمية فعلى سبيل المثال فإن البطالة في القطاعات الاقتصادية والعلمية عام ١٩٦٩ بلغت ٨,٨ في المائة في كولومبيا و٢٠ في المائة لترينداد وهناك علاقة طردية بين هجرة الكفاءات والبطالة[٣٤]. لقد ذكرت بعض الدراسات بأن تحقيق نسبة نمو عالٍ للدخل القومي سيقلل من هجرة الكفاءات في حين ذكرت دراسات أخرى[٣٥] بأن كثيراً من الدول التي تحقق نمواً كبيراً في الدخل القومي تتزايد فيها الهجرة ولا تقل. وسنناقش هذا الموضوع فيما بعد.

١ ــ ٥ ــ إن دخل الكفاءات منخفض جداً في كثير من الدول النامية في حين أن الدخل جيد بالنسبة لهذه الكوادر في الدول المتقدمة ولقد دفع ذلك ببعض الكفاءات للهجرة[٣٦].

١ ــ ٦ ــ تميزت الدول النامية بوراثتها لأجهزة ادارية متخلفة وجامدة ولا تمتلك أية قدرة على فهم الدور الذي يمكن أن تلعبه الكفاءات العلمية في عملية التنمية القومية. ولقد تسبب وجود هذه الأجهزة في إعاقة عمل العلميين[٣٧] مما أجبر بعض هذه الكوادر للهجرة إلى الخارج. ولو أخذنا كولومبيا كمثال على تأثير الأجهزة الادارية على الكفاءات لرأينا بأن ٤١ في المائة من الكفاءات وجدت عملاً بعد شهر من رجوعها و٥٣ في المائة في حدود ثلاثة أشهر و٦ في المائة لمدد تزيد عن ذلك[٣٨].

٢ ــ أسباب علمية وتعليمية وثقافية:

٢ ــ ١ ــ إن الكثير من الدول النامية قد ارتبط بعلاقات ثقافية وطيدة مع الدول المتقدمة. وأهم هذه العلاقات ارتباط البنية الثقافية والتعليمية للدول النامية باحدى الدول المتقدمة. وتلعب اللغة دوراً مهماً في تشجيع الهجرة فالدول النامية التي تتكلم كوادرها الفرنسية تهاجر كفاءاتها إلى فرنسا. وكوادر الدول النامية التي كانت تابعة لانكلترا تهاجر إلى هذه الدولة[٣٩].

٢ ــ ٢ ــ بالنظر للتبعية التي عانت منها الكثير من الدول النامية فقد استمرت هذه الدول بالاعتماد على مؤسساتها التعليمية التي نشأت في عهد الاحتلال لتلبي حاجة الدولة المتقدمة. ومن هنا فإن أكثر المناهج التدريسية في الثانويات والكليات هي امتداد للنظام التعليمي الذي أوجد في أيام الاحتلال ولا علاقة له بالاحتياجات الاجتماعية والتنموية للدولة[٤٠].

٢ ــ ٣ ــ إن الكثير من الدول النامية لا تمتلك أجهزة تخطيطية أو في أفضل الأحوال لا تمتلك أجهزة مركزية لذلك فإن المخطط التربوي يعمل بمعزل عن المخطط الاقتصادي.

ولو أخذنا لبنان على سبيل المثال لرأينا بأن الوظائف التي استحدثت في لبنان للفترة ١٩٦٤ ــ ١٩٨٠ قدرت بـ ١٦٠ ألفاً في حين أن عدد الذين تقدّموا لهذه الوظائف قُدّر بـ ٤٥٠ ألفاً وهذا يعني بأن ١١ ألف لبناني سيهاجر سنوياً(٤١).

٢ ــ ٤ ــ بالنسبة لهجرة الكفاءات المتخصصة فإن أحد الأسباب المهمة للهجرة تتلخص في عزلة العالم المتخصص في الدول النامية عن مجرى العلم في الدول المتقدمة، وعدم وجود أجهزة علمية تمكن الباحث من القيام بعمله، غياب النسبة الصحيحة ما بين التقنيين والباحثين، عدم وجود فرص للتدريب أثناء العمل أو بعد التخرج، عدم وجود تسهيلات للبحث العلمي، غياب الأجهزة الخدمية العلمية الجيدة، وجود إدارات متخلفة وروتين قاسي مما يعيق تحرك العالم للحصول على الأجهزة والكتب والمواد التي يحتاجها لعمله في وقت مناسب، عدم وجود مكتبات جيدة وخدمات مكتبية كفؤة، إنشغال العالم بالكثير من المحاضرات أو الواجبات التي تشغله عن البحث العلمي. إن كل هذه العوامل تنشط حركة هجرة الكفاءات(٤٢).

لقد ذكرت احدى الدراسات(٤٣) بأن الهجرة تزداد في الدول النامية التي تمتلك أجهزة بحث متقدمة وسنأتي إلى مناقشة هذه النقطة فيما بعد.

٢ ــ ٥ ــ إن معظم الدول النامية تشكو من غياب خطة متكاملة للعلم والتكنولوجيا. ولا شك في أن هنالك أهمية كبيرة بالنسبة لتخطيط العلم والتكنولوجيا في الدول النامية(٤٤) إذ أن الكثير من الدول النامية تملك موارد طبيعية وبالتالي فمن الممكن أن تتميز خططها القومية لاعطاء أولويات لقطاعات معينة في الاقتصاد القومي. وفي هذا المجال فإن التخطيط العلمي يلعب دوراً كبيراً في دفع الكوادر العلمية للمساهمة بنشاط في تحقيق الأولويات الاقتصادية التي تنسجم مع استغلال الموارد والامكانات الموجودة في الدول النامية بشكل صحيح.

٣ ــ العوامل الاجتماعية:

تلعب العوامل الاجتماعية دوراً كبيراً في تقليل أو زيادة الهجرة إلى الخارج. فالتقاليد الاجتماعية في كثير من الدول النامية تجعل الحاصل على الاختصاص العالي في مركز اجتماعي متقدم كما أن المجتمع ينظر نظرة متميزة إلى الأطباء والمهندسين في حين أن الكوادر الوسطية لاتحتل مواقع اجتماعية متميزة وهذا يقود أولاً إلى اندفاع أكثر الكوادر المتعلمة نحو محاولة الوصول إلى أعلى السلم الاجتماعي وبذلك يزداد عدد المتخصصين في العلوم الطبية والهندسية وبالتالي يزداد الطلب على الوظائف ويقل العرض فتكون النتيجة الحتمية الهجرة. وثانياً فإن هذا الوضع سيقود إلى قلة الكوادر الوسطية التي هي عماد أي تقدم تكنولوجي في الدول النامية.

أما الناحية الأخرى المهمة في التركيب الاجتماعي فهي أن المجتمعات التي تتميز بترابط اجتماعي كبير داخل العائلة ثم داخل المجتمع يتميز أفرادها بالشعور بالانتماء إلى المجتمع بشكل كبير وفي هذه الحالة فإن الكفاءات التي تهاجر كثيراً ماتشعر بعد مدة من الزمن بنوع من الغربة والحنين إلى الترابط الاجتماعي في الوطن الأول وبذلك فإن هذا العامل سيعمل لارجاع المهاجر إلى وطنه بعد أن يقضي مدة من السنين(٤٥).

نظرة عامة على الوضع في الدول النامية:

وسنحاول هنا أن نأخذ دولتين، واحدة من اميركا اللاتينية والأخرى من آسيا وهاتان الدولتان هما البرازيل والهند والسبب في ذلك هو تقدم هاتين الدولتين زمنياً في التنمية الاقتصادية عن الوطن العربي وسنعود بعد ذلك إلى الوطن العربي لنرى الأوضاع السائدة فيه وكيف أثرت وستؤثر على هجرة الكفاءات.

البرازيل:

تعتبر البرازيل أول دولة من حيث هجرة الكفاءات في اميركا اللاتينية حيث أن هجرة كفاءاتها إلى كندا للفترة ١٩٦٣ ــ ١٩٧٢ بلغت

٣٨,٦ في المائة من مجموع الهجرة من أميركا اللاتينية(٤٨). ولقد أثيرت ضجة كبيرة في العالم حول نجاح التجربة البرازيلية في التنمية وحول دور العلم والتكنولوجيا في انجاح هذه التجربة. ولقد تميزت هذه التجربة بما يلي(٤٩):

١ ــ إعطاء التصنيع أولوية مطلقة: ــ لأن التصنيع قادر على انتشال الدولة من مهاوي التخلف ولقد اقتصر التصنيع في هذه الدولة باتباع سلعة وسيطة تصدر للخارج حيث يتم استخدامها في انتاج السلع الاستهلاكية كتنقية المعادن أو تركيزها وغزل القطن وكذلك تشجيع الصناعات التجميعية والتي تقوم على استيراد مواد نصف مصنعة أو اجزاء وتركيبها محلياً لتتحول إلى سلعة استهلاكية. وفي مقدمة ذلك الثلاجات وأجهزة صناعة الراديو والسيارات التي اشتهرت بها البرازيل وكذلك مصانع لصناعة الحديد والصلب.

٢ ــ الاعتماد في التصنيع على رأس المال الأجنبي والعمل على تشجيع القطاع الخاص واشراك الشركات المتعددة الجنسية في عمليات التصنيع وخاصة في الصناعات التي تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة.

٣ ــ الاعتماد على استيراد التكنولوجيا. خاصة التكنولوجيا المتقدمة التي تعتمد على الكثافة في رأس المال لأن هدف التنمية البرازيلية تحقيق نمو متسارع للدخل القومي عن طريق زيادة الصادرات إلى السوق الرأسمالية ومن هنا فإن من الضروري أن تكون هذه الصادرات ذات نوعية تضاهي البضائع الأجنبية.

٤ ــ عدم الاهتمام بتوزيع الدخل القومي بصورة عادلة لأن ذلك لم يكن ليخدم التنمية التي كانت تقوم على استيراد تكنولوجيا معقدة باهظة التكاليف والتي تحتاج بدورها إلى موارد مالية ضخمة ولم يكن بالامكان توفير الاستثمارات إلا عن طريق تشجيع قيام رأسمالية محلية مرتبطة رأساً بالسوق الأجنبية. لقد حقق الموديل البرازيلي معدل نمو قدره ٩ في المائة خلال السنوات العشر الماضية وزاد متوسط دخل الفرد بمعدل مقداره ٥,٦ في المائة رغم تزايد السكان بمعدل ٣,٢ في المائة. إلا أن



الاختصاصيون المساعدون اعدادهم في تناقص.

هذه الأرقام لا تعبر عن واقع الحال بشكل دقيق والذي تميز بما يلي:

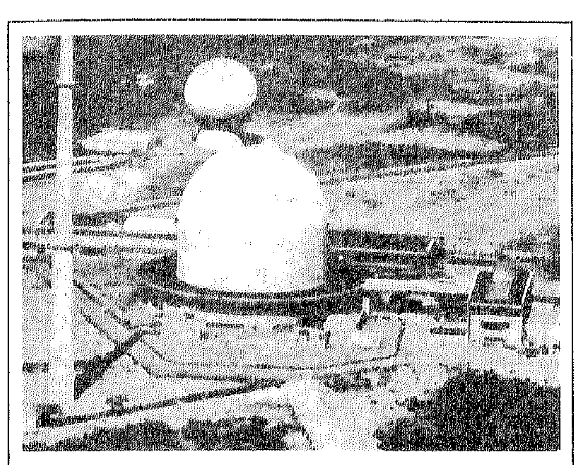
١ ــ التبعية المتزايدة للسوق الرأسمالي.. بما أن التنمية قد قامت أصلاً على الاعتماد على رأس المال الأجنبي فإن كل البنية الاقتصادية والسياسية والثقافية قد وضعت من أجل تشجيع رأس المال الأجنبي على النمو بحجة الاسهام في تحقيق معدلات عالية للنمو وهذا قاد بالتالي إلى أن تتحول التبعية المالية إلى تبعية اقتصادية وبالتالي فقد سيطرت الشركات المتعددة الجنسية على الاستثمار وعلى البنوك الكبرى. وأسفر الاعتماد الكامل على التكنولوجيا المعقدة ذات الرأسمال الكثيف في زيادة التبعية التكنولوجية للبرازيل للشركات المتعددة الجنسية.

٢ ــ بما أن الهدف الأساسي الذي كانت تسعى إليه الشركات المتعددة الجنسية تحقيق الربح السريع فقد أهملت كل شيء عدا ذلك ومن هنا فإن الصناعات قد تركزت في عدة مدن وأعطيت الأفضلية للصناعات الاستهلاكية ذات المردود الكبير. ولذلك اعتمدت هذه الشركات في جلب التكنولوجيا المتطورة التي لا تحتاج إلا إلى عدد قليل من العمال. وأسفر هذا الوضع في

قيام مراكز حضارية متقدمة أفرادها يرتبطون رأساً بالنمط الاستهلاكي السائد في الدول الرأسمالية وتتركز حول هذه المراكز التجمعات الكبيرة للعاطلين وشبه العاطلين في حين يعيش الريف بعيداً عن هذا الوضع ولا ينتمي إليه وبالتالي سميت هذه الحالة بالاقتصاد المزدوج لأن الاعتماد على الشركات المتعددة الجنسية لن يحقق التنمية المستقلة لأن هذه التنمية تتحدد خارجياً بما تمنحه الدول الأجنبية المختلفة للدول النامية. إن هدف الاستثمارات الأجنبية هو تحقيق الربح ومن هنا رأينا بأن حجم الاستثمارات الجديدة الوافدة على دول العالم الثالث من الخارج عام ١٩٧٣ بلغت ٨ بلايين دولار في حين بلغ حجم الأرباح المحولة ١٤ بليون دولار. لقد أدت التنمية البرازيلية واستيراد التكنولوجيا المعقدة في القضاء على الصناعات الصغيرة والحرفية دون أن تتمكن القطاعات الاقتصادية الجديدة من امتصاص الأيدي العاملة التي كانت تدير الصناعات الصغيرة والسبب في ذلك هو أن التكنولوجيا المستوردة لاتحتاج إلا إلى العدد القليل من العمال. لقد أسفر هذا الوضع في امتصاص الصناعة ١٧ في المائة من مجموع القوى العاملة في حين بقي الريف متخلفاً وازدادت البطالة بشكل كبير. لقد وجد القطاع الصناعي في البرازيل نفسه متوجهاً ومرتبطاً بالخارج لأنه متكامل تماماً مع السوق الرأسمالي وبالتالي فهو غريب عن القطاع التقليدي الذي يضم أكثرية السكان بل هو يرى في هذا القطاع مصدراً لليد العاملة الرخيصة التي تزيد عائداته. لقد تركت التنمية البرازيلية ٥ في المائة من السكان يحصلون على ٢٨,٨ في المائة من الدخل القومي في حين يحصل ٥٠ في المائة من السكان على ١٠,٥ في المائة من الدخل القومي. لقد أسفر هذا الوضع في تباطؤ نمو الدخل القومي علاوة على التضخم الذي بدأ يصدر إلى البرازيل والذي بلغ في حدود ٥٠ في المائة في حين أنه لم يتجاوز ٢٠ في المائة في أسوأ الأحوال في الدول الرأسمالية الكبرى. كما قاد هذا الوضع إلى استقطاب طبقي كبير في المجتمع مما أدى بدوره إلى تفاقم الصراع السياسي والاجتماعي وأدى ذلك بدوره إلى أن ترصد البرازيل مبالغ طائلة لنمو جيشها من أجل الحد من عمليات نمو المعارضة.

التجربة الهندية:

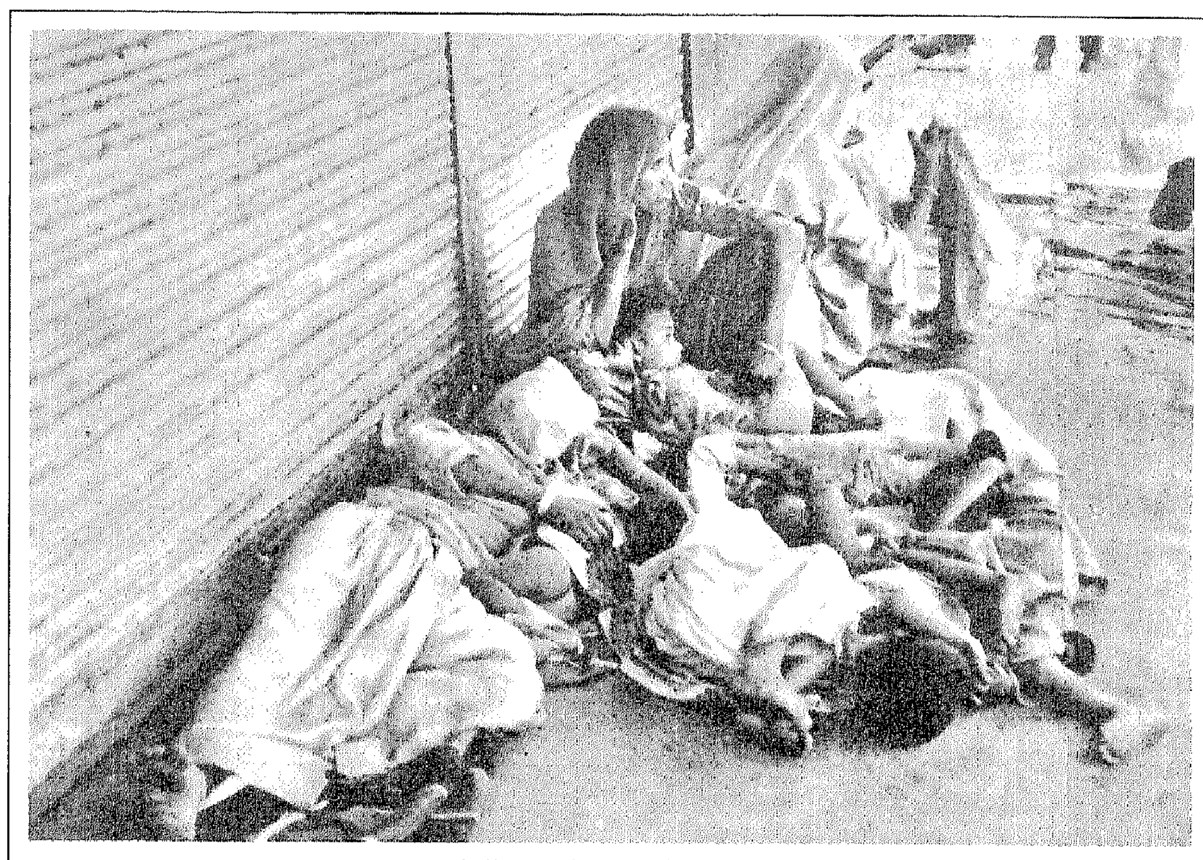
إن التجربة الهندية لاتختلف في سماتها العامة كثيراً عن التجربة البرازيلية فقد اعتمدت الهند على عدة خطط قومية للتنمية الخمسية مبتدئة من عام ١٩٥١ وبذلك فقد قامت بزيادة عدد المعاهد والكليات لتخرج الاعداد الكافية



المفاعل الهندي يديره هنود وكنديون.

من العلميين والتقنيين الذين ستحتاجهم الخطط الخمسية الثلاث ١٩٥١ ــ ١٩٥٦، ١٩٥٦ ــ ١٩٦١، ١٩٦١ ــ ١٩٦٧ وقامت الهند بعملية تحديث كبيرة لقطاعها الصناعي بواسطة اتفاقيات عقدتها مع الشركات الأجنبية المتعددة الجنسية بحيث بلغ عدد هذه الاتفاقيات ٤ آلاف اتفاقية ما بين ١٩٤٨ ــ ١٩٧٢[٥٣] وتم بموجب هذه الاتفاقيات جلب تكنولوجيا متطورة تعتمد على رأس المال الكثيف ولقد أسفرت ٢٠ سنة من الاعتماد على رأس المال الأجنبي والتكنولوجيا المتطورة في عملية تزايد الاستقطاب في المجتمع بحيث أن ١٠ في المائة من السكان يحصلون على ٢٥ في المائة من الدخل في حين أن حصة ٦٠ في المائة من السكان لا تزيد عن ٣٧ في المائة في الدخل. وفي الهند أيضاً شجعت الصناعات الاستهلاكية وأسفر هذا الوضع في زيادة البطالة كنتيجة لاستيراد التكنولوجيا ذات الرأسمال العالي كما تم خلق الاقتصاد المزدوج.

لقد ذكرت كثير من الدراسات بأن العلم في الهند في انتعاش ويبدو لأول وهلة وعند قراءة



منظر مألوف في شوارع الهند.

الأرقام بأن هذا القول صحيح فقد تم زيادة عدد الكوادر العلمية من ١٨٣ ألفاً، عام ١٩٥٠ إلى ٢ مليون عام ١٩٧٥(٥٤) وارتفع عدد الجامعات من ٢٧ عام ١٩٥٠ إلى ١٠٠ عام ١٩٧٥ ويتم بناء ٤٠ مختبر ومركز بحوث تابعة لمجلس البحث العلمي والصناعي وبنت المؤسسة العسكرية ٣٧ مختبر وزاد عدد العلماء إلى أكثر من ١٠٠ ألف غير أن العلماء لم يجدوا لهم مكاناً في ظل التنمية الهندية فمعظم الصناعات الكبرى تم استيرادها من الخارج وهي قائمة على تكنولوجيا متقدمة وتجري عملية تطوير هذه التكنولوجيا من قِبل مختبرات الشركات المتعددة الجنسية الموجودة خارج الهند كذلك لم تنشىء مختبرات للبحث والتطوير في هذه المصانع وإذا ما أنشئت فإن العلماء الهنود العاملين فيها كانوا يعملون على تطوير التكنولوجيا الأجنبية لا الهندية وكانت براءات الاختراع لا تسجل باسمهم أو باسم الهند إنما باسم الشركات المتعددة الجنسية التي توظفهم. لذلك فقد كانت هجرة الكفاءات إلى خارج الهند كمؤشر لهذا الوضع الشاذ في حين أن الهجرة الداخلية كانت أخطر فإن الكثير من العلماء الهنود والذين كانوا يعملون في الجامعات ومراكز الأبحاث كانوا يرون أنفسهم بعيدين عن عملية التنمية الصناعية لأن بحوثهم لم تكن مفيدة للصناعة وحتى لوكانت مفيدة فإن الصناعة الهندية لم تكن لتعير هؤلاء العلماء أهمية لأنها عندما تحتاج إلى أي شيء فإنها تتقدم إلى الخبراء الأجانب من خارج الهند. لقد دفع هذا الوضع العلماء الهنود للقيام بأبحاث لا تمت إلى عملية التنمية الهندية وهكذا وجدنا الصناعة الهندية ترتبط بالسوق الرأسمالي في حين ارتبط العلم في الهند بحركة العلم في الدول الرأسمالية.

لقد كان هذا الوضع مشابهاً للوضع الذي عاشته المؤسسة العلمية في اميركا اللاتينية لأن معظم الصناعات الكبرى في اميركا اللاتينية كانت تقع ضمن دائرة الشركات المتعددة الجنسية ومن هنا رأينا بأن الدور الذي لعبه العلم في الدول المتقدمة غير ذلك الذي لعبه في الدول النامية ففي حين يلعب العلم دوراً

استثمارياً في الدول المتقدمة فإنه يلعب دوراً استهلاكياً في الدول النامية[٥٥]. وتذكر دراسة أخرى في أن القطاع الخاص في الدول المتقدمة يساهم بـ ٧٠ في المائة في البحث والتطور في الصناعة في حين أن القطاع الخاص في اميركا اللاتينية يساهم فقط بحدود ٢ في المائة[٥٦].

إن من الواضح بأن هنالك انفصالاً ما بين القطاع الانتاجي الصناعي المتقدم والقطاع العلمي وهذا بدوره قد قاد إما إلى هجرة الكفاءات أو إلى أن تأخذ هذه الكفاءات دورها في اسناد حركة المعارضة المتنامية للأنظمة السياسية السائدة في معظم دول اميركا اللاتينية.

إن معظم الدول العربية قد استقلت حديثاً وجميعها كانت محتلة من قبل دول متقدمة. وقد أدى ذلك إلى أن ترتبط الدول العربية بالسوق الرأسمالية العالمية، وهذا بدوره قد أدى إلى تشويه بنية الاقتصاد العربية وجعله أحادي الجانب وتابعاً للسوق العالمية فقد غدت البلاد العربية تشتغل بالزراعة والري والصيد والمناجم وتنتج سلعاً ومواد أولية معدة للتصدير إلى الغرب[٥٧]. كما أن المنطقة العربية تتميز بتفاوت في توزيع القوى المنتجة إذ أن حوالي ٧٠ في المائة من الأراضي الزراعية تتواجد في خمسة أقطار هي السودان والمغرب والجزائر وسورية والعراق أما الموارد الطبيعية فهي موزعة أيضاً بصورة متفاوتة ولو أخذنا البترول كمثل لرأينا بأنه يمثل ٨٠ في المائة من الناتج المحلي الاجمالي للكويت والامارات ولا يمثل أية نسبة للأردن. إن الاقطار النفطية وعدد سكانها ٤٠ مليون يمثلون ٢٨ في المائة من مجموع العرب، تسيطر على ٧٠ في المائة من الناتج القومي الاجمالي. أما بالنسبة للقوى المنتجة البشرية فقد ارتفع عدد السكان العرب من ١٠٤ مليون عام ١٩٦٣ حتى بلغ ١٤٢,٨ مليون عام ١٩٧٥ وسيبلغ أكثر من ١٨٤ مليون عام ١٩٨٥. يشكل الريفيون ٦٥ في المائة من مجموع السكان. وإن ثلاثة أقطار عربية وهي مصر والمغرب والعراق تضم ٥١ في المائة من مجموع السكان في حين يوجد ٨,٨ في المائة من جملة السكان في عشرة أقطار عربية. ان هناك تدنياً واضحاً في نسبة العاملين بالصناعة إذ أن الزراعة والصيد والتعدين قد ساهمت عام ١٩٧٢ بنسبة ٤٥ في المائة من الناتج المحلي في حين احتلت الخدمات المكانة الأولى في توليد الدخل المحلي الاجمالي عام ١٩٧٥ إذ بلغت ٥٠ في المائة وتليها الزراعة ثم الصناعة[٥٨]. ان العالم العربي يقدم ٠,٤ في المائة من الانتاج الصناعي العالمي ولا يقدم إلا ٦ في المائة من مجمل الانتاج الصناعي للدول النامية. أما الصادرات الصناعية العربية فلم تتجاوز ٠,٠٣ في المائة من إجمالي الصادرات العالمية و٥,٤ في المائة من إجمالي الصادرات الصناعية في البلدان المتخلفة ويتصف هيكل الصناعة العربية بمساهمة عالية للصناعات الاستهلاكية إذ تبلغ ٦١ في المائة.

ان هذه الأرقام لتبين أن معظم الدول العربية تعتمد على توفير الأنماط الاستهلاكية ونتيجة عمليات التصنيع التي تمت في تجمعات محددة حول المدن الرئيسية نشأ قطاعان الأول يمثل سوق السلع التقليدية حيث يتمثل الطلب في مشترى أصحاب دخل منخفض ويتمثل العرض بالنسبة لهم في منتجات الزراعة والحرف وهناك من جانب آخر سوق السلع الحديثة حيث ينبع الطلب من أصحاب الدخل المرتفع وحيث يشكل العرض من منتجات الصناعة الحديثة أو من الواردات المصنوعة وتبدو السوقان منعزلتين تقريباً[٥٩].

إن هذه الصورة لتوضح أن معظم الأقطار تقوم بالتنمية بصورة منفردة وهذا يعزز ارتباطها وتبعيتها للسوق الرأسمالية العالمية. في حين ان هناك امكانية كاملة لكي تتحرك المنطقة العربية كوحدة واحدة وهذا يعزز من تكاملها الاقتصادي ويقلل ارتباطها بالسوق العالمية وان على الأمة العربية أن تتخذ قرارها بأسرع وقت وبدون ذلك فإن أنماط التنمية في المنطقة العربية ستكون متطابقة مع أنماط التنمية في أميركا اللاتينية ونحن نرى الكثير من هذه المؤشرات والتي ذكرناها عن البرازيل والهند تبدو واضحة في الكثير من الدول العربية.

إن الكثير من الدول العربية تقوم الآن بعمليات تصنيع كبيرة وفي هذا المجال فإن هذه

الدول تقوم باستيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة في كثير من الأحيان. وكما تدلل الدراسات في هذا المجال فإن معظم الشركات الأجنبية العاملة في الدول العربية في منطقة الأكوا تقوم بتقديم التكنولوجيا المطلوبة وادارة المشاريع الصناعية عدا لبنان وسورية والعراق والأردن(٦٠). كما يتزايد اعتماد الدول العربية على التكنولوجيا الغربية. أن نمط الاستهلاك في كثير من الدول العربية يشابه نمط الاستهلاك الغربي وهنالك تزايد في استيراد المكائن ومعدات النقل لكل المنطقة العربية حتى أنه بلغ لمنطقة الأكوا عام ١٩٧٥ في حدود ٨ بلايين دولار(٦١).

إن التكنولوجيا المستوردة تأتي بصورة متكاملة (Turnkey Projects) لذلك فلا تجري أية محاولات لتطوير التكنولوجيا إلا في قطاع الزراعة ومعظم المشاريع الصناعية المقامة تفتقر إلى وحدات للبحث والتطوير لذلك لا يوجد طلب على مراكز البحث والجامعات حتى أنه يجري في كثير من الأحيان الاعتماد على الشركات الأجنبية لحل مسائل هندسية يمكن حلها بسهولة من قبل الكوادر الوطنية داخل الدول العربية(٦٢).

أما بالنسبة للوضع التعليمي والعلمي في الأقطار العربية فإن هذه الأقطار قد توارثت الأجهزة التعليمية من أيام الاحتلال ولم تجر إلا محاولات قليلة في بعض الدول العربية لتغيير المناهج التعليمية بشكل يخدم عملية التنمية في القطر. كما أن هنالك غياباً شبه كامل للتعليم التكنولوجي في المراحل التعليمية الأولية وإذا ما أخذنا نسب التلاميذ حسب الاختصاص في الدول العربية لرأينا أغلبية الاختصاصات انسانية بشكل واضح (٦٣).

نسبة توزع الطلبة على الاختصاصات عام ١٩٧٣

العلوم الاجتماعية والانسانية	٦٤٪
العلوم الطبيعية	٧,٥
العلوم الهندسية	١٠
العلوم الطبية	١٠,٥
الزراعية	٨

ويعكس هذا الوضع تخلف الدول العربية في تحقيق الهدف الذي وضعته الخطة العالمية للعمل من أجل تطبيق العلم والتكنولوجيا وهو أن يكون هنالك ٢٠٠ عالم/ مهندس يعملون بالبحث والتطوير لكل مليون نسمة من السكان نهاية ١٩٨٠(٦٤). فبلغت في العراق والكويت ومصر ولبنان وتونس أكثر من ١٠٠ في حين بلغت في ليبيا ٢٤ وأقل من ٢٠ في الجزائر(٦٥).

أما نسبة التقنيين لكل عالم ومهندس فقد بلغت في الدول العربية ٠,٥ إلى ١ في حين أن النسبة في افريقيا هي ١,٣ إلى واحد وفي اميركا اللاتينية ٢,٤ إلى ١ وفي الدول المتقدمة ١,٨ إلى واحد(٦٦).

وهذه نسبة منخفضة جداً إذا ما علمنا بأن التقنيين هم أساس أية تنمية تكنولوجية وعلمية. لقد سجلت احصائيات الدول العربية وجود نسبة كبيرة من العلماء والمهندسين في البحرين و٨٠ في المائة في الكويت و٧٨,٥ في المائة في ليبيا و٩٠ في المائة في قطر. أما نسبة الأجانب من التقنيين فهم ٣٥ في المائة في البحرين و٨٠ في المائة في الكويت و٧٦ في المائة في قطر.

أما نسبة العلماء العاملين في البحث والتطوير من مجموع العلماء في الدول العربية فيبينها الجدول التالي(٦٥).

العلماء والمهندسون والتقنيون العاملون في البحث والتطوير كنسبة من المجموع

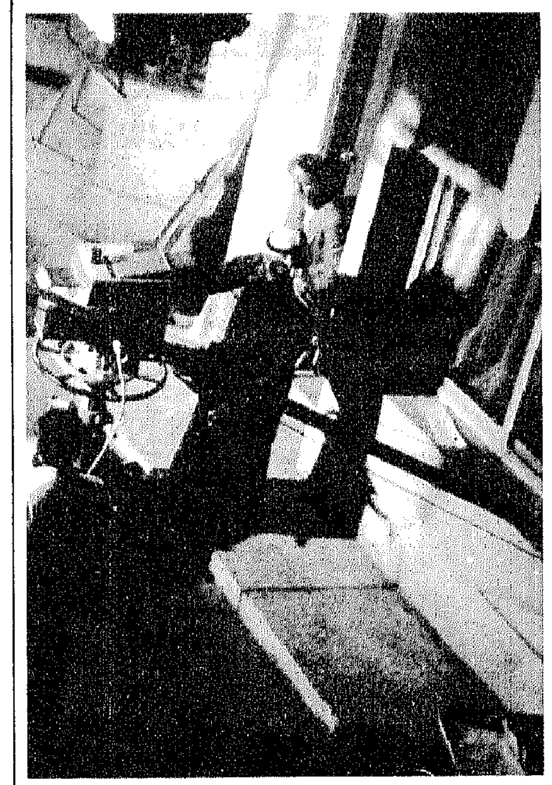
القطر	نسبة العلماء والمهندسين	نسبة التقنيين
مصر	٢٪	—
العراق	٣,٦	١,٥
الأردن	٣,٥	٣,٤
الكويت	١,٥	٠,٥
ليبيا	٠,٦	١,٤
السودان	١,٨	٨,٠
اليمن	٤,٥	٧,٣

إن هذه النسبة منخفضة أيضاً حيث تبلغ في الدول المتقدمة ١٠ ــ ١٥ في المائة. إن نسبة

العلماء والتقنيين العاملين في البحث والتطوير في القطاع الانتاجي تبلغ في حدود ٤٣,٤ في المائة من العلماء و٤٧ في المائة من التقنيين عدا السودان حيث تبلغ النسبة ٠,٤ في المائة ولبنان حيث تبلغ النسبة ١٣,٣ في المائة. إلا أن معظم الأبحاث التي تجريها هذه المجموعة من العلماء هي التي لاتستفيد منها الصناعة (Non Integrated R & D) أما نسبة العلماء المهندسين العاملين في البحث والتطوير في قطاع التعليم فهي ٣٣,٤ في المائة وفي الخدمات العامة تبلغ النسبة في حدود ٢٠ في المائة. لقد حددت الأمم المتحدة هدفاً للدول النامية بالنسبة للانفاق على البحث والتطوير بحيث تبلغ ٠,٥ في المائة وإذا ما أضيفت إليها الخدمات العلمية فإن النسبة يجب أن تصل إلى ١ في المائة. ومن الملاحظ أن دولة واحدة وهي مصر قد اقتربت من هذا الهدف.

أما الدول الأخرى فإن الجدول التالي يبين الانفاق فيها[٦٧]:

الانفاق في حقل الأبحاث والانماء في بعض بلدان غربي آسيا ١٩٧٣			
البلد	النسبة المئوية من الدخل القومي	المتوسط السنوي للانفاق للفرد (دولار)	المتوسط السنوي للانفاق للفرد من السكان (دولار)
العراق	٠,٢٥	١٦٨٤٠	٢,٣
الأردن	٠,٣١	١٥٣٩٠	١,١
الكويت	٠,٠١	١٧١٠٠	٠,٨
لبنان	٠,٤٠	٢٢٤٠٠	٢,٤
اليمن	٠,٢٥	٣٥٢٧٠	٠,٣


«العائدون» مشرفون مميزون

إن الانفاق في حقل الأبحاث والانماء للفرد من السكان في الدول المتقدمة يبلغ مابين ٣٠ ــ ١٠٠ دولار.

الاستنتاجات:

١ ــ إن نسبة هجرة الكفاءات العربية إلى أميركا وكندا إلى نسبة الهجرة العالمية للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ بلغت ٩ في المائة، وهذه النسبة تفوق حوالي المرتين مجموع الهجرة الافريقية الكلية إلى الدول المتقدمة.

٢ ــ إن معظم الهجرة تتركز في الاختصاصات العلمية التي تحتاج إليها المنطقة في التنمية وهي تبلغ ٩٦,٣ في المائة للاختصاصات الطبيعية والطبية والهندسية.

٣ ــ إن نسبة كبيرة من خريجي الكليات هم من الاختصاصات الانسانية وتبلغ ٦٠ في المائة في حين ان النسبة معكوسة في الدول المتقدمة.

٤ ــ إن المؤشرات للنسبة العلمية سواء بعدد العلماء أو بنسبة العلماء إلى التقنيين أو

نسبة الانفاق على البحث هي منخفضة جداً حتى بالمقارنة مع الدول النامية.

ولقد انعكس هذا الوضع في قلة البحوث التي تنتج في المنطقة العربية وعدم تسجيل براءات اختراع بالنسبة للكوادر الوطنية إلا ما ندر وهذا يعكس نفسه في الاعتماد الكامل على الخبراء الأجانب.

٥ ـــ إن استيراد التكنولوجيا الجاهزة والمعقدة كما هو الحال بالنسبة للكثير من الدول العربية لن يترك المجال للكفاءات العربية في المشاركة في تطويع وتطوير التكنولوجيا.

٦ ـــ إن الاقتصاد العربي هو اقتصاد أحادي الجانب يعتمد بالدرجة الأولى والرئيسية على تصدير المواد الأولية أو الاستخراجية وان نسبة مساهمة الصناعة العربية كما رأينا إلى مجموع الانتاج العالمي وإلى مجموع انتاج الدول النامية قليل جداً بالرغم من وجود الامكانات العربية الكبيرة والتي لو استغلت بشكل صحيح لتغيرت الصورة بدرجة ملموسة. علاوة على أن التنمية في الدول العربية تتم في كثير من الأحيان بالارتباط بالسوق العالمي لا الارتباط بالسوق العربية.

٧ ـــ إن معدلات التنمية الكبيرة التي تذكرها بعض الدول العربية لاتعبر عن واقع الأمر إذ أن التنمية التي تخلق طبقة صغيرة مرفهة على حساب مجموع السكان وتخلق اقتصاداً مزدوجاً لا يمكن أن تعتبر تنمية صحيحة ومن هنا رأينا بأن دولاً كالبرازيل قد سجلت معدلات تنمية كبيرة غير أن واقعها كان يعبر عن صورة غير صحيحة.

٨ ـــ إن معظم الانفاق على الأبحاث والتطوير قد انتج أبحاثاً غير أن هذه الأبحاث لم تساهم في تطوير العمليات الانتاجية.

٩ ـــ لقد رأينا بأن الهجرة تعتمد على عوامل دفع وجذب ففي الوقت الذي تزيد فيه العوامل الاقتصادية والسياسية قوة دفع الكفاءة للهجرة فإن التلازم الاجتماعي القوي في المجتمعات العربية يدفع المهاجر كما ذكرنا للرجوع. إلا أن التنمية الحالية قد بدأت تغير من العادات الاجتماعية وبدأت الهجرة وعملية التصنيع تعملان بسرعة لتفكك العائلة والروابط الاجتماعية[٦٨]. وهذا يعني بأن أحد عوامل الجذب الرئيسية للعودة للوطن قد أصبح ضعيفاً ومن هنا تأتي المؤشرات المذكورة في دراسات الأمم المتحدة لتؤكد بأن كمية العائدين إلى الدول العربية هي أقل من افريقيا وأميركا اللاتينية.

١٠ ـــ إن معظم الدول العربية تفتقر إلى أجهزة للتخطيط للعلم والتكنولوجيا مما يؤدي إلى زيادة بعثرة جهود الكفاءات العلمية وعدم وضعها في الأماكن المناسبة وضياع التعاون ما بين القطاعات الانتاجية والخدمية في الدولة. بل ان معظم الدول العربية لم تجر فيها عملية احصاء الكوادر العلمية والتقنية.

١١ ـــ إن معظم الدول العربية تقوم بزيادة عدد خريجيها وبصورة غير مدروسة وغير متوازنة مع نمو القطاعات الأخرى، بحيث أن معظم الاختصاصات هي انسانية واجتماعية وهذا سيؤدي إلى نقص في بعض الاختصاصات وزيادة في الاختصاصات الأخرى.

١٢ ـــ إن استمرار الحالة التي ذكرت في هذا البحث ستؤدي بلا شك إلى زيادة هجرة الكفاءات العربية إلى خارج المنطقة العربية علاوة على أن هذا الوضع سيؤدي إلى تزايد الهجرة الداخلية والتي تعني غياب مساهمة الكفاءات العربية في عملية ترشيد التنمية وتوطين التكنولوجيا.

١٣ ـــ إن أكثر الدراسات التي جرت في الدول العربية قد فسرت أسباب الهجرة بالعوامل المادية الاقتصادية ومن هنا فإن معظم القوانين التي شجعت الكفاءات للعودة قد ركزت بصورة رئيسية على البحوث المادية. ورغم أهمية العوامل الاقتصادية إلا أنها لاتستطيع أن تفسر هجرة الكثير من الكفاءات. والتي تجري في بعض الدول العربية والنامية رغم أن الدخل المادي للمهاجر في البلد النامي يعادل الدخل في الدولة المتقدمة. ●

الهوامش

(١) Mrs Foretta Makasiar Sicat, UNCTAD. TD/B/C. 6/AC. 4/5, Reverse Transfer of Technology 27 Feb. 1978.

(٢) S.M. Naseem, UNCTAD, TD/B/C. 6/AC. 4/3.

(٣) Marga Institute, TD/B/C. 6/AC 4.4.

(٤) UNCTAD TD/B.C.6/AC 4/6.

(٥) د. فائق عبدالرسول، النظام الاقتصادي الدولي الجديد، منشورات النفط والتنمية ١٩٧٩.

(٦) د. جعفر عبدالغني، حول نقل التكنولوجيا، ندوة نقل التكنولوجيا، بغداد ١٩٧٦.

(٧) سلمان رشيد، آفاق عربية، آذار ١٩٧٩.

(٨) E/ECWA/50 March 1977.

(٩) UNCTAD, TD/B/AC, 11/10/Rev 1.

(١٠) UNCTAD/TT/9, 1978.

(١١) د. اسماعيل صبري عبدالله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

(١٢) Science Today, March 1969, Indian.

(١٣) UNCTAD, TD/B/C.6/7 13 October 1975.

(١٤) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/8. Feb, 1978.

(١٥) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/6. Dec 1977.

(١٦) UNCTAD, TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec 1977.

(١٧) UNCTAD, TD/B/C/.6/AC. 4/4 Dec 1977.

(١٨) UNCTAD, TD/B/C/.6/7 13 Oct 1975.

(١٩) نفس المصدر السابق.

(٢٠) د. الياس زين، هجرة الأدمغة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢.

(٢١) UNCTAD, TD/B/C.6/7 October 1975.

(٢٢) E/4820 June 1970.

(٢٣) نفس المصدر السابق.

(٢٤) نفس المصدر السابق.

(٢٥) مدحت أيوب، يونيه ١٩٧٥، ليبيا.

(٢٦) نفس المصدر السابق.

(٢٧) UNITAR, Research report No. 22 By William Glaser, The Brain Drain, Pergamon Press, 1978.

(٢٨) E/4820 June 1970.

(٢٩) TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec., 1977.

(٣٠) E/4820 June 1970.

(٣١) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٢) التحضر في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ٢٩٧، الجزء الأول ١٩٧٨.

(٣٣) وداد يونس يحيى، ص ٩٨، النفط والتنمية، آذار ١٩٧٩.

(٣٤) E/4820 June 1970.

(٣٥) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٦) نفس المصدر السابق.

(٣٧) سلمان رشيد، الطليعة، سبتمبر ١٩٧٣، القاهرة.

(٣٨) UNITAR, The Brain Drain, 1978.

(٣٩) نفس المصدر.

(٤٠) E/4820 June 1970.

(٤١) نفس المصدر السابق.

(٤٢) نفس المصدر السابق.

(٤٣) UNITAR, Page 36, The Brain Drain.

(٤٤) سلمان رشيد سلمان ومثنى أكرم، خطة العلم والتكنولوجيا، بحث مقدم إلى الندوة القطرية حول دور العلم والتكنولوجيا في التنمية القومية، بغداد ٢٧ ــ ٢٩ حزيران ١٩٧٨.

(٤٥) UNITAR, Brain Drain Page 37.

(٤٦) World Plan of Action, United Nations, New York. 1971.

(٤٧) E.F. Schumacher, Small is Beautiful, ARACUS, 1 1973.

(٤٨) سلمان رشيد ومثنى أكرم، خطة العلم والتكنولوجيا.

(٤٩) د. اسماعيل صبري، ص ١٦٨.

(٥٠) نفس المصدر، ص ٨٠.

(٥١) TD/B/C.6/7 Oct. 1975.

(٥٢) TD/B/C.6/AC. 4/5 Dec. 1977.

(٥٣) Amulyn. H.N.Reddy. Sience Today Journal page 14, Jan. 1974, India.

(٥٤) TD/B/C.6/AC. 4/6 Dec 1977.

(٥٥) Charles Cooper, Science, Technology and Development, Frank Cass, London 1973.

(٥٦) Amilcar Herrera, Science, Technology and Development, Frank Cass, London 1973.

(٥٧) د. فؤاد حرب، أزمة التنمية الاقتصادية العربية، ص ١٢ النفط والتنمية، ١٩٧٩.

(٥٨) نفس المصدر، ص ١٥.

(٥٩) نفس المصدر، ص ٢٠.

(٦٠) R. Van Der. Graaf, Technology Transfer and change in the Arab World, edited by A.B. Zahlan, Pergamon Press, Oxford, 1978.

(٦١) نفس المصدر.

(٦٢) نفس المصدر.

(٦٣) Statistics on Scientific and Technological Manpowers and Expenditure for Research and Experimental Development in Arab countries, SC/76-Castarab/1, Unesco 1976.

(٦٤) نفس المصدر.

(٦٥) نفس المصدر.

(٦٦) نفس المصدر.

(٦٧) E/ECWA/50 March 1977.

(٦٨) التحضر في الوطن العربي.

الفكر الاجتماعي عند



يان ماريك

احتفلت المحافل العلمية خلال عام ١٩٧٧ بمرور مائة عام على مولد الدكتور السير محمد اقبال (١٨٧٧ ــ ١٩٣٧)، الشاعر الفيلسوف المسلم الشهير، المولود في شبه القارة الهندية، والذي يعد بدون شك واحداً من أعظم الشخصيات الأدبية في هذا القرن. وقد اعتبر اقبال وهو على قيد الحياة أعظم شعراء الهند المسلمين وذلك لجمال شعره وعذوبته ولأهمية رسالته، وكذلك أيضاً لتأثير أفكاره على مجريات الأمور.

ونكرس هذه المقالة لدراسة نسق فكره الاجتماعي، حقيقة لم يقدم اقبال نسقاً محكماً لفلسفة اجتماعية ولم يخصص أياً من كتبه ليقدم مفهوماً لفلسفة التاريخ، ولكن يمكن النظر الى اقبال كشاعر سياسي بالمعنى العريض قضيته هي الانسان ككائن اجتماعي.

يمكن ارجاع الفكر الاجتماعي عند محمد اقبال الى ثلاثة آفاق مختلفة: الأفكار الفلسفية الهندية كما جاءت في «الفيدانتا» (Vedanta) وقد غلفتها التعاليم الاسلامية التي جاءت في القرآن وفي التصوف الفارسي ــ العربي. وقد انصهرت هذه جميعاً بالفلسفة الأوروبية خاصة عند برجسون ونيتشه.

ومن الناحية الشكلية يمكن القول: ان اقبال قد استخدم ثلاث لغات مختلفة لنقل هذه المجالات الثلاثة من الفكر، فكتب قصائد المناسبات القصيرة في اللغة الأردية وهي لغة شمال الهند واللغة الرسمية للباكستان، وكتب آراءه الفلسفية في لغة فارسية عذبة، أما نثره الرفيع فقد وضعه في اللغة الانجليزية. وما كتبه اقبال في اللغة الأردية جعله في رأي معظم النقاد أعظم شاعر في هذا القرن. وبواسطة اللغة الأردية كان يخاطب الجمهور الهندي البسيط، ويعبر عن أفكاره الأساسية التي كان يكتبها باللغة الفارسية، في ايجاز وبطريقة مؤثرة. وكانت لغة اقبال الفارسية تختلف عن لغة التخاطب المعاصرة في ايران، فقد كان يستخدم اللغة الفارسية القديمة التي قدمت الى الهند منذ عدة قرون مضت. أما اللغة الانجليزية فقد كانت بالنسبة اليه الوسيط الذي يمكنه الاتصال بالعالم الخارجي وبأوروبا على وجه الخصوص. وكان اقبال يتميز بمعرفة العديد من اللغات معرفة ممتازة، فبالاضافة الى لغته البنجابية البسيطة كان يتقن ما لا يقل عن خمس لغات أخر.

وقد بدأ اقبال الكتابة باللغة الأردية، وبواسطتها صنع جمهوراً له من أهالي الأقاليم الوسطى والأقاليم الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية التي كانت خاضعة للاحتلال الانجليزي في ذلك الوقت. ولكن سرعان ما أحس اقبال بالحاجة الشديدة الى نقل رسالته ومعتقداته وايمانه بقدرات الانسان غير المحدودة الى الجماهير الأخرى خاصة الى مسلمي الشرق، ولهذا اختار اقبال اللغة الفارسية كلغة غنية من حيث المفردات وقادرة على نقل الظلال الرقيقة لفكر وأحاسيس الانسان، ووضع بها شعره. وفي الحقيقة ففكرة امكانات الانسان غير المحدودة، ومدخله العالمي الانساني في البحث عن الانسان الكامل الذي يجمع قدرات الانسان الابداعية في نسق واحد متآلف، كل ذلك يبين أن شعره لايمكن أن يكون قاصراً على بلد واحد أو دين واحد.

لقد عرف اقبال طريقه الى الشعر في وقت كانت تنتشر فيه حركة عليكرة بين المسلمين في شبه القارة الهندية، وكانت تحمل لواءها الطبقة المتوسطة من المسلمين من أجل نهضة حضارية اسلامية. وكان هدف مؤسس هذه الحركة السير سيد أحمد خان تحرير المسلمين الخاضعين للاستعمار الانجليزي في الهند من أحاسيس العدمية واليأس واللامبالاة التي سقطوا فيها بعد انهيار الامبراطورية المغولية، وبعد فشل حركة التمرد.

وفي بواكير هذا القرن رحل اقبال الى انجلترا في الوقت الذي كان فيه حكم الملكة فيكتوريا الطويل يقترب من نهايته. وأتيحت له فرصة التعرف على المدرسة الهيجيلية الحديثة الانجليزية، ولكنه كان متأثراً بمقولات نيتشة عن السبرمان وبتعاليمه عن التطور الانساني قبل معرفته لهيجل. ومهما يكن من أمر فقد كان لشعر التصوف الايراني وتعاليم مذهب وحدة الوجود الأثر الأكبر عليه. عندما رجع اقبال الى الهند كانت معظم البلدان الاسلامية تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، وكان لهذه الحقيقة أثر كبير عليه، جعلته يغير مضامين شعره تغييراً كاملاً. وبدأ ينادي بفكرة الدولة الاسلامية التي توحد المسلمين، فمواجهة الاستعمار الامبريالي أضحت ضرورة ملحة، فهجر الغنائيات الوصفية وكرس نفسه تماماً للحركة الاسلامية. وسعى اقبال الى بعث الحياة في تعاليم الاسلام الأساسية من الوجهة الفلسفية مؤكداً على أن القوة الحيوية للإسلام قد أفسدت بتأثير الفكر الفلسفي اليوناني، وخاصة فكرة أفلاطون الذي غير من فلسفة الاسلام في النظرة الى الحياة وحولها الى مصالحة سلبية واستسلام للقدر.

وكان وضع المسلمين الاجتماعي في الهند يتطلب منهم النضال لاكتساب حقوقهم ولهذا سعى اقبال الى تخليص الفكر الديني الاسلامي



محمد اقبال في لندن سنة ١٩٣١ في طريقه الى قصر باكنجهام

من شوائب الفلسفة اليونانية. ولكن هذه المحاولة أدت أيضاً بالضرورة الى رفض التراث الصوفي الفارسي كله، لأن الصوفية الايرانية قد تأثرت بفلسفة أفلاطون قدر تأثرها بفلسفة الفيدانتا الهندية، وكلاهما لا يتماشى مع فاعلية التعاليم الاسلامية في تشكيل الحياة كما وردت في القرآن وكتابات المسلمين الثقاة. وهذه التعاليم القرآنية التي تؤمن بضرورة التفاعل مع الحياة والتي تضع الانسان في مرتبة عليا في هذا العالم وتؤمن بقدراته غير المحدودة كانت بمثابة مبادىء ضرورية عند الطبقة التي كان اقبال جزءاً منها. فقد كان على المسلمين أن يبرهنوا على أنه في مقدورهم الاعتماد على أنفسهم، فبهذه الطريقة وحدها يكون في مقدورهم الاستمرار في الحياة.

وجاءت دعوة اقبال للمشاركة في فترة بدأ فيها الشعب الهندي النضال من أجل التحرر من نير الاستعمار. وأخذت دعوة التحرر من الاستعمار شكل الدعوة الدينية، ولم يكن اقبال منفرداً في هذا النهج عندما التزم بالدين في تفكيره فجميع الساسة والقادة الروحيين وضعوا خططهم في مواجهة الاستعمار في صورة تتلاءم مع التقاليد والمسلمات الدينية لبلدانهم. فالالتزام بالتعاليم الدينية التقليدية يقف كرمز لعظمة ومجد الحضارة القديمة التي سبقت السيطرة الاستعمارية، ويفيد كرمز للعزة القومية والتميز.

وأصطباغ فكر حركة التحرر القومي بالدين، تفرضه طبيعة قيادتها، التي تنتمي الى فئات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة التي تميل بشدة الى النزاعات الدينية المثالية، فيؤكد مفكروها أن النزعات المادية التي أصبحت تسيطر على الحياة في الغرب، عليها أن تفسح مكانها للقيم الروحية التي تتجلى في أكمل صورها في الدين.

وأياً كان الأمر فإن الدين الذي يبشر بالتقشف والانقياد السلبي للوضع القائم لا يتلاءم مع دعاوى دعاة التجديد الذين ينادون بتغيير الوضع القائم والنضال من أجل اصلاحه. كان اقبال واحداً من هؤلاء فطوال حياته كان يؤكد على الحاجة الى المشاركة الابداعية، وكان يرحب بكل دفعة وبكل تغير، وجعل يبصر الناس بمخاطر الاستسلام والاسترخاء والقناعة. وكان التغيير يتمثل بالنسبة اليه في «الموجة» (وهذه الاستعارة تتردد كثيراً في أشعاره)، فالموجة تتواجد لفترة من الزمان قبل أن ترحل ولكنها اذا توقفت عن الحركة تلاشى وجودها.

وأبعاد فلسفة اقبال الاجتماعية تتلخص في البحث عن الانسان. وهدفه الأساسي في فلسفته هو أن يطلق قدرات الانسان غير المحدودة وأن يوجه الى عالم أرحب مليء بالحياة، وسعى في أشعاره كي يوضح طريق الوصول الى هذا المستوى الرفيع من الانسانية. وكان اقبال يؤمن بأن الانسانية في مقدورها أن تخلق مجتمعاً مثالياً يتكون في مجموعة من ذوات أو شخصيات متطورة. وفي الطريق الى تطور الشخصية ميز اقبال بين ثلاث مراتب من **التطور**: اولاها طاعة القانون، وثانيتها ضبط النفس (وهو أعلى مراتب النضج بالنسبة

للشخصية)، وثالثتها التمسك بالقيم الدينية المقدسة.

وأطلق اقبال على أعلى مراتب الكمال بالنسبة للذات (الايجو) لفظ «النائب» أو نيابة الله على الأرض. والوصول الى هذه الحالة يعني بالنسبة له تحقيق هدف الانسانية الأعظم. ويصف اقبال حالة «النيابة» (نائب) أو تكامل الذات أو نيابة الله على الأرض، قائلاً أنها الحالة التي تمتزج فيها أعلى مراتب المعرفة والادراك بأعظم وأقوى الدوافع البشرية.

ويعتبر اقبال الفرد المثالي غير منعزل عن بقية أفراد المجتمع ولكنه مكمل له. وفي كتابه أسرار خودي (أسرار الذات) يقول:

«الفرد يتواجد فقط كجزء من مجتمع، أما وحده (بمفرده) لا يساوي شيئاً».

كان اقبال يؤمن بأن الانسان في مقدوره أن يحقق ذاته ويطور قدراته بواسطة الآخرين فقط ومن خلالهم، ويرى أيضاً أن تتوفر في المجتمع شروط معينة هي أن تكون له قاعدة روحية مستوحاة من مبدأ التوحيد في الاسلام، وأن يكون له قائد تلتف الجماهير حوله (النبي محمد)، وأن يكون له كتاب مقدس (قرآن)، وكعبة يحج اليها (مكة)، وأن يكون له تقاليد وأعراف تحفظ له الاستقرار. وأخيراً فالمجتمع المثالي يجب أن يتخذ العلم منهجاً له فمن خلاله وبواسطة يستطيع السيطرة على قوى الطبيعة.

ويرى اقبال أن المجتمع المثالي المحكوم بمبادىء القرآن يوفر الظروف المناسبة كي يحقق الفرد المثالي ذاته ويطورها. فيتسم هذا المجتمع في المحل الأول بالحرية، فلا يوجد به أي شكل من أشكال العبودية أو الاستغلال في الشؤون الاقتصادية أو السياسية. ولا توجد به قيود تحد من قدرات الفرد الابداعية وتعوقة عن التطور. فالقدرات الانسانية لا تنمو أو تتحقق الا في ظروف وأوضاع تتميز بالحرية وهذه هي الفكرة الملحة في الجزء المسمى «بندكي نامه» (أي «كتاب العبودية») من مؤلف اقبال «زبور عجم».

ولم يقدم اقبال تصوراً لشكل الحكومة في هذا المجتمع المثالي، ولكنه على العكس من ذلك في كتابه «**تجديد الفكر الديني**» أوضح أن «الدولة... هي مسعى لتحويل هذه المبادىء المثالية الى حقائق ملموسة في محاولة لتحقيقها من خلال نظام انساني محدد، وبهذا المفهوم وحده تكون الدولة في الاسلام دينية، وليست بالمفهوم القائل انها محكومة بممثل الله على الأرض..». («تجديد ١٥٥»).

ولأسباب مماثلة أخرى تبنى اقبال الشكل الجمهوري للحكم. وفي كتابه «تجديد الفكر الديني» يقول: «الشكل الجمهوري للحكم لا يتوافق تماماً فحسب مع روح الاسلام، وانما قد أصبح بمثابة ضرورة للقوى الجديدة التي قد استخلصت حريتها في البلدان الاسلامية». («تجديد» ١٥٧).

كان اقبال يؤمن بأن المبادىء الاساسية للمجتمع النموذجي تتمثل في طهارة ونقاء التعاليم الاسلامية التي تتجسد فيها فكرة الاخاء والمساواة لكل البشر والتي ترفض كل أشكال الظلم الاجتماعي. وكتب في كتابه «**جاويد نامه**» يقول:

«ما هو القرآن؟ هو حكم بالموت على الانسان المتكبر، واغاثة للعبد المعدم الجائع». («جاويد» ١٤٦٣/٤) ورفض اقبال فكرة التعصب للقومية لأنها تشوه الاحساس بالاخاء، وتزرع بذور الحرب، وميز بين القومية والوطنية التي قد تخدم أهدافاً نبيلة. وكتب اقبال في أحد خطاباته: «ان الوطنية فضيلة طبيعية حسنة، ولها مكانة بين القيم الخلقية للإنسان، على أن ما يهم الانسان حقيقة بالدرجة الأولى هو ايمانه وحضارته وتقاليده التاريخية. فهذه هي الأشياء التي تستحق في رأيي أن يحيا وأن يموت من أجلها الانسان وليس من أجل قطعة من الأرض تتحد بها روح الانسان الى حين».

كان اقبال دائماً يتخذ موقفاً متشدداً ضد التمييز العنصري وقد عبر عن رأيه القاطع في هذه القضية بهذه الكلمات..

«كل من يدعو الى التفرقة بين البشر بسبب اللون أو الجنس سوف يهلك».

أو كما كتب في كتابه «**رسالة الشرق**».

لا تقولوا أفغانيين أو أتراك أو أبناء التتار
فنحن أبناء حديقة واحدة وأرومة واحدة
نحن جميعاً أبناء ربيع واحد



لوحة لكتاب اقبال «جاويد نامه» للفنان صادقين

وقد أوضح اقبال في كتاباته النثرية موقفه من التمييز العنصري، ففي مقالة من مقالاته يكتب:

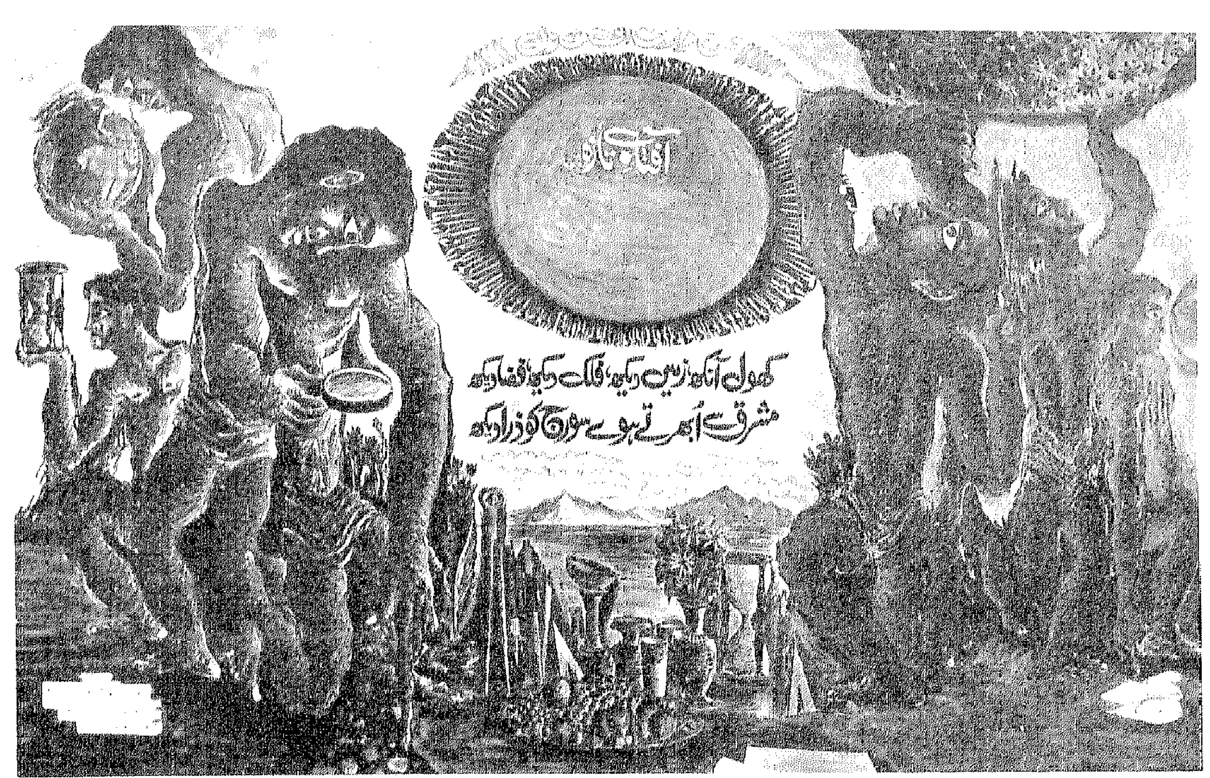
«يعارض الدين الاسلامي بشدة فكرة التفوق العنصري ويعتبرها أكبر عقبة في طريق التعاون العالمي والوحدة بين الشعوب. ان الدين الاسلامي والتمييز العنصري متناقضان تماماً. وفكرة التفوق العنصري هي أكبر عدو للجنس البشري وعلى كل من يقف في صف الجنس البشري أن يقف بحزم ضد مروجي هذه الفكرة».

وتزايد كره اقبال للتمييز العنصري وازدياد احتقاره للقوى الأوروبية الغربية التي تسانده، عندما قامت ايطاليا الفاشية بغزو أثيوبيا في عام ١٩٣٦. وفي كتابه الموضوع بالفارسية تحت اسم «بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» **«ماينبغي أن نعمل يا أمم الشرق»**، عبر اقبال عن سخطه العميق على تصرفات الحكام الايطاليين. وفي صفحات عديدة من هذا الكتاب عبر عن ايمانه بأنه من الضروري وضع نهاية للإمبريالية ــ هذا النظام الذي سمح بارتكاب مثل هذه الجرائم دون عقاب. وأدان بشدة أيضاً مسلك الدولة الأوروبية الأخر في التباطوء في وقف العدوان على أثيوبيا والاكتفاء بادانته في عصبة الأمم وفرض بعض العقوبات على ايطاليا. وطبقاً لرأيه فإن الدول الأوروبية في عصبة الأمم فضلت أن تساير ايطاليا، وتتيح لها فرصة غزو أثيوبيا كي تشاركها في الغنائم فيما بعد.

وبقدر كاف من الفطنة السياسية لإدراك مغزى هذه الأحداث المحزنة، أخذ اقبال يثير المسلمين في الهند للاتعاظ من مأساة أثيوبيا، فقد تبين له أنه لا يرجى خير من عصبة الأمم أو من الدول الممثلة فيها الذين شبههم بأنهم «ناهبو القبور».

وكان اقبال يرى أن النظام الاستعماري الذي أتاح للدول المتقدمة أن تقمع الدول الأقل تطوراً يمثل انتهاكاً صارخاً للعدالة، فادانة النزعات الاستعمارية التوسعية يتردد في شعره في هذه الفترة من عام ١٩٣٤، وكتب اقبال قائلاً:

دولة ترعى في مراعي دولة أخرى
ودولة تزرع الحب الذي يحصده غيرها.
وتعلمنا الفلسفة أن الخبز يسرق من يد الضعيف



رسوم لاشعار اقبال الاردية

ومن تكرى روحه بعيداً عن جسده،
قانون المدينة الحديثة،
الذي يخفي نفسه خلف ستار التجارة.
(«ماذا ينبغي أن نعمل» ٣٨)

لقد كان سخط اقبال على عملية غزو الحبشة شديداً لدرجة أنه كان يردد هذا الموضوع من وقت لآخر. وفي كتابه المسمى (ضرب كليم) «**شريعة موسى**» عدة قصائد كرسها اقبال لهذا الغرض. ففي قصيدته المسماة «أثيوبيا» يدين اقبال الدول الغربية في سعيها لفتح أسواق جديدة وتكالبها على تقسيم الدول الى مستعمرات لها ويقول أن هذه الفعال لابد أن تشعل نيران حرب عالمية ثانية. وفي هذه القصيدة يشبه اقبال أثيوبيا «بجثمان» مصاب بالسموم تريد دول الغرب أن تتقاسمه، كما تفعل الغربان (جمع غراب) بالغنيمة:

وعندما علم اقبال بأن عصبة الأمم قد صوتت ضد ايطاليا كتب قصيدة بعنوان «**موسوليني**» تعطي انطباعاً لأول وهلة بأن اقبال مؤيد لعملية غزو الحبشة. ولكن القراءة المتأنية لهذه القصيدة توضح بجلاء ادانة اقبال أيضاً للامبريالية الأوروبية ــ التي مهدت طريق الاستعمار في وقت سابق على موسوليني ــ بقدر ادانته لديكتاتور ايطاليا الفاشي نفسه. «فالدوتشي» في رأي اقبال قد سار في طريق سبق تمهيده بواسطة الانجليز والفرنسيين والبلجيكيين والبرتغاليين في القرون الماضية. وقد رأى اقبال أن موسوليني يتسم بعدم الرياء عندما لم يضف على نظامه سمات الديموقراطية لخداع بقية الدول. وكان اقبال يعتقد أن الديموقراطية البرلمانية والفاشية لهما هدف واحد هو استعباد الشعوب البسيطة الطيبة في قارتي افريقيا وآسيا وامتصاص دمائهم.

«ما هي الجرائم الموسولينية التي لم يعرفها العالم من قبل؟
لماذا الاصرار على اغراق أوروبا الطيبة في مثل هذا الغضب الأحمق؟
لقد سلبتم خيام البدو الرحل وهي كل ثرواتهم لقد سلبتم التاج والعرش،
وكنتم المطاردين والقتلة بطريقة متمدنة.
وما كنتم تدافعون عنه أمس أدافع أنا عنه اليوم».
(ضرب كليم ١٥١)

ومع ازدياد شدة التوتر العالمي، بدأ اقبال

يتحقق من أخطار نشوب حرب عالمية جديدة. وقد أدان اقبال اعتداءات الدول الامبريالية وانشغالها بعمليات التسليح لاغراق العالم في بحر من الدماء.

«ليتخل عن هذه الحروب الصليبية
هو الذي تهدد قبضته الملطخة بالدم كل الأرض.
فأوروبا المغطاة من الرأس الى القدم بالدروع،
تحرس في يقظة تسلطها البراق الكاذب».
(ضرب كليم)

كان اقبال هلعاً من فكرة اندلاع حرب عالمية ثانية، ففي قصيدة هجاء للحرب العالمية الأولى كتب اقبال في عام ١٩٢٤ محذراً من منظر قتل الناس بالجملة واطلاق القنابل عليهم. وقد أدرك جيداً أن الوقوف ضد التوسع الأوروبي الامبريالي يمثل ضرورة حيوية، فالاستسلام والاذعان لا يتفقان مع روح فلسفته، بل هو على نقيض ذلك يؤمن بالنضال المسلح في مواجهة الشيطان، وكانت دعوته للفعل باسم «الجهاد». وكان يرى أنه يجب ألّا تتاح الفرصة لأية دولة أوروبية لتملك القوة التي تتيح لها التوسع العسكري:

«اذا كانت حرب الشرق غير مقدسة،
فهل حرب السلاح الغربي هي المقدسة؟
واذا كانت الحقيقة هي هدفكم، فهل هذا هو الطريق السليم..
ان تباركوا أخطاء أوروبا.. وتضعوا الاسلام تحت المجهر؟»
(المرجع السابق ٦٣)

وفي نقده للحضارة الأوروبية أعلن اقبال في مرات كثيرة عن رفضه لنظام الديموقراطية البرلمانية. كان يؤمن أن النظم الجمهورية في بعض الدول لا تتعدى أن تكون حكومات شعبية بالاسم فقط وفي مجموعته الأولى بأنك درا **(صلصلة الجرس)** يكتب:

«ان مارد الاستغلال يرقص في حلة النظام الجمهوري،
وعليك أن تتخيل أنه حسناء الحرية.
المؤسسات، الاصلاحات، الامتيازات والحقوق،
هي المخدرات الحلوة في الطب الغربي».
(بانك درا ٢٩٦)



موسوليني

وبالمثل رفض اقبال أفكار القوميين الهنود وفكرة «المؤتمر القومي لكل الهند». وقد عظمت معارضته بعد اعلان الدستور الجديد عام ١٩٣٥.

وقد ظهر عامل جديد في الحياة السياسية في الهند تحت الاحتلال البريطاني في العشرينات والثلاثينات وهو بزوغ طبقة عمال الصناعة وأصبحت أفكارهم ومعتقداتهم عاملاً سياسياً جديداً يؤثر في طبيعة النضال من أجل التحرر. فقد أثرت الأفكار الاشتراكية بدرجات متفاوتة على الشباب والجماعات اليسارية في الحركة القومية للهند وفتحت أمامهم آفاقاً جديدة. فانجازات الدولة السوفيتية الفتية بدأت تعرف في الهند، وتأسس الحزب الشيوعي في الهند، عام ١٩٣٣ بعد توحيد المجموعات الشيوعية السابق تكوينها في الأقاليم المختلفة. ولكن الحزب الشيوعي في الهند اعتبر بعد عام واحد غير قانوني، وكان عليه أن يمارس نشاطه في الخفاء.

وكان اقبال دائماً يفكر من أجل الرجل الفقير كما يفكر في الأمم الفقيرة. وبدأت المشكلة الاجتماعية تلح عليه بشدة، كانعكاس لتأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى في القارة الآسيوية. وكان اقبال أول شاعر يتحدث عن معاناة الطبقة العاملة في الشعر الأردي، وقد بدأ

يستخدم في وعي مصطلح الرأسماليين (**سرماية دار**) للتفرقة بينهم وبين العمال (**ناردا**). ولكن الاشتراكية كمذهب اجتماعي في تحليلها المنهجي ظلت بعيدة عن دائرة ادراكه.

حقيقة انه طوال حياته كان يؤكد على عناصر العدالة الاجتماعية والأخوة بين البشر ولكنه بحث عنها في العصر الأول النقي من ظهور الاسلام.

كان اقبال يحلم بوحدة تضم الدول الاسلامية في ظل شكل ما من الاتحاد يربط بينها عن طريق الايمان المشترك ووحدة العقيدة. وطبقاً لكلمات كيرنان (V. G. Kiernan) الذي ترجم أعماله و«ان اعتقاده في الأخوة النابعة من الدين يرجع الى أنه كواحد من الطبقة المتوسطة كان قريباً بدرجة كافية من طبقة ملاك الأرض والنبلاء التي تعلو طبقته، وكذلك من طبقة العمال والفلاحين التي تقل عن طبقته، ولهذا كان في مقدوره أن يتأمل الحياة من وجهة نظر كل منهم.

كانت فكرته المثالية عن المساواة والوحدة بين البشر ومبدأ توزيع الموارد وفقاً للاحتياجات هي التي جذبته نحو الاشتراكية. ولكنه «من جهة إخرى كان بغير وسعه قبول النظرة المادية للعالم، التي لامناص من أن ترتكز عليها الاشتراكية الحقيقية. ولا نستطيع في الوقت الحاضر أن نوضح الى أي مدى قد تعمق اقبال في دراسة المنهج الاشتراكي، على الرغم من أن من يكرس مثل هذا الجهد لدراسة الفلسفة الأوروبية واتجاهاتها يفترض فيه أنه قرأ على الأقل كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وربما بعض المؤلفات النظرية الأخرى.

يعترف اقبال بأنه لايعرف الشكل الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الأفضل الذي يتمناه. وببساطة يدعو الى مجتمع يكون الأساس فيه العدالة الاجتماعية، وليس من الضروري أن يكون اسلامياً كلية. ولم يتساءل اقبال عما اذا كان في مقدرة الاسلام أن يكون قوة موحدة لمجتمع دولي أو أن منهجاً آخر قد يحقق ذلك بنجاح أكبر. وقال اقبال ذات مرة:

«اذا كنت حاكماً لدولة اسلامية فقبل كل شيء ومنذ البداية سوف أخلق منها دولة اشتراكية».

(نقلاً عن سميث (W. C. Smith):

«الاسلام الحديث في الهند» ٢٧ ص ١٣٢)

والافصاح عن هذه الدعوة ظل بمنأى عن الثورة الاجتماعية وعن سيطرة الطبقة العاملة. ولم يكن اقبال راضياً على الحالة الاجتماعية القائمة، وكان يتطلع الى التغيير، وبالرغم من دعواته المتكررة للثورة، فلم يكن يعرف كيف يمكن أن تنطلق الثورة، فهنا أيضاً نصادف ذلك التناقض المعروف بين الفكر والفعل عند اقبال. كان اقبال يفكر في الثورة كقوة سرية مبهمة تبزغ فجأة بسبب عوامل مجهولة، وبضربة تغير العالم الى حالة أفضل. وتحدث عنها كثيراً بطريقة رمزية. ولم ير اقبال أصلاً أن الثورة نتيجة ضرورية للتطور الاجتماعي ولم يوضح أصلاً أية طبقة اجتماعية سوف تفجرها، ولكنه توقع فقط قيامها في وقت قريب:

أوروبا هي الموت لروح الانسان، وآسيا هي
الموت لارادة الانسان: وكلاهما لا يشعر بالحياة.
في قلوب الناس يشع تيار الثورة
وربما كان عالمنا القديم أيضاً
يقترب من حتفه

(«ضرب كليم» ١٣٩)

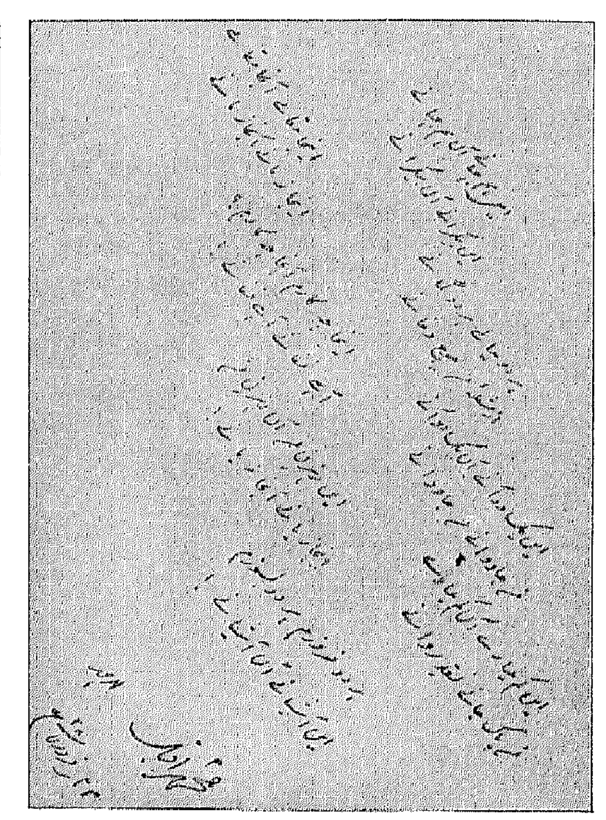
كثيراً ما نظر اقبال الى النظام الجائر للمجتمع البشري كنظام لا يمكن تأييده أو الدفاع عنه، ودعا الى تغييره. ولكن من سيغيره: قوة ثورية غير معروفة الهوية:

السيد يحول الدم في عروق العمال الى ياقوت
صاحب الأرض الظالم يدمر ما بذره الفلاح
الثورة! الثورة! الثورة!

(«زبور عجم» ١٣٤)

وكان اقبال بكل تأكيد واحداً من أوائل الشعراء في آسيا الذين احتفوا بانتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية، وعندما استقرت الأمور للسوفييت في روسيا وتدعمت، كان رد فعل اقبال قصيدة باسم «**رأس المال والعمل**» وفي هذه القصيدة دعا اقبال الطبقة العاملة في الشرق وفي الغرب لاتباع المثال السوفيتي والتحرر من أغلال الرأسمالية:

الى العامل الكادح أذهب، واليه أتوجه برسالتي:



قصيدة بخط يد الشاعر من «زبور عجم».

الكلمات ليست كلماتي وحدي، انها رسالة تملأ أركان العالم الأربع.
آه، ان رجل رأس المال الخبيث قد التهم
لحمك وجلدك.
لقد ضاع عرقك، منذ زمن، بين قرون الغزال المتوحشة.
لكن تعال الآن. لأن السّبل تتغير في أنحاء الأرض،
ففي الشرق والغرب أيامك تشرق
ومن رحم هذا الكون العجوز تشرق
شمس جديدة حمراء من أجل النجوم المطفأة
وأنت أيتها السماء، الى متى سوف تنوحين؟
(«ضرب كليم» ٢٩٧ ـــ ٢٩٨)

وتشبيه ثورة أكتوبر بالشمس الجديدة، ظهر أيضاً في أشعار اقبال الموضوعة في اللغة الفارسية. ففي مقدمة منظومته المثنوية «**كلشن راز جديد**» (حديقة السر الجديدة) عاد الى هذا الرمز ثانية:
رأيت ثورة من نمط آخر:
بزوغ شمس جديدة
(«كلشن زار جديد» ١٥/١٦)

وبدأت السمات الجديدة التي ظهرت بها حركة التحرير القومية للهند في العشرينات نتيجة اشتراك الطبقة العاملة، بدأت تنعكس في شعره في ذات العقد، خاصة في ديوان «**بيام مشرق**» (رسالة المشرق). وقد اهتم اقبال اهتماماً كبيراً بوضع الطبقة العاملة ودافع عن حقوقها. وقادته فلسفته الى رفض التفاوت بين الطبقات، وأدان بشدة ذلك التناقض الشديد المتمثل في عوز العمال واسراف السادة.

في قصيدته «**أغنية العامل**» أشار الى صانع القيمة ـــ أي العامل ـــ الذي يستغل بدون وجه حق بواسطة السيد الذي يتكاسل فحسب:
في غضبي وخرقي البالية أكدح كعبد مدفوع الثمن.
ولهذا يستطيع سيدي الكسول أن يزين نفسه بالحرير
ومن عرقي يبتاع المتسلط ياقوتاً لخواتمه
ومن دموع طفلي يزين الأمير بيته باللآلي.
(«رسالة المشرق» ٢٥٧)

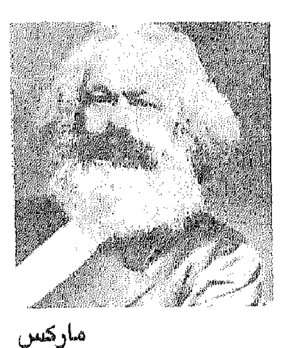
كان اقبال يعتقد بأن العمل الخلاق فقط هو الذي يمكن أن يكون أساساً لحياة سعيدة، وأن طفيلية الرأسماليين تمثل عبئاً على أكتاف الانسانية، وقد عبر اقبال عن اعتقاده في شكل قاطع في قصيدته المسماة «**حوار بين الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت وأحد العمال**»:
الرأسمالي يجلس ثقيلاً على أكتاف الأرض،
آكلاً نائماً ليس عنده ما يفعل ولا يعرف الحزن.
ثروة العامل تخلقها فقط يد العامل
ألّا تدرك أن هذا الرأسمالي الكسول هو في الحقيقة لص؟
(«رسالة المشرق» ٢٤٤ ـــ ٢٤٥)

وقد اعتنق اقبال هذه الفكرة، من شرحه الشاعري لفكر هذا الفيلسوف الفرنسي الوضعي أوجست كونت (١٧٩٨ ـــ ١٨٥٧)، الذي نادى بأن الانسان في أعماقه يسعى الى المشاركة والتوافق بين كل أعضاء المجتمع الانساني.

قد أوضح اقبال أسس اعتقاد كونت في أن المجتمع الانساني يجب أن يخضع الطبيعة وقوانينها التي تحدد مكانة كل فرد وعمله بحيث تنحصر الحرية الفردية في مجال محدود. فالعامل



اوغست كونت



ماركس

في هذه القصيدة ينتقد ذلك المبدأ القائل بثبات نظام المجتمع، وينتقد الفيلسوف الذي لا يرى غير هدف واحد للحكمة، وهو ستر الاستغلال الرأسمالي.

ينتمي اقبال الى طبقة البرجوازية المسلمة الصغيرة، ولم يكن في مقدوره أن يرى العامل ومشاكله من جهة نظر الطبقة العاملة. لقد تحقق اقبال، حقيقة، من بؤس واستغلال العمال من جهة، ومن رفاهية رجال الأعمال من جهة اخرى، وكانت هذه اللامساواة تثير معارضته بشدة. وكان يشير اليها مراراً ولكنه لم يقدم أي برنامج لحلها أو لرفع الظلم عن البؤساء وفي قصيدته **«نصيب الرأسمالي والعامل»** أشار الى هذا التناقض الشديد بين نصيب العامل والرجل المستغل:

أنا أظفر بطرق الحديد وبضوضائه الخشنة،
وأنت تظفر بالاستماع الى الأرغن في المعبد.
أنا أمتلك هذا الجسد ومعدته،
بينما أنت تمتلك كل شيء يمتد من الأرض حتى السموات.

(«رسالة المشرق» ٢٥٥ ــ ٢٥٦)

وعلى الرغم من ادانة اقبال للاشتراكية كنظام اجتماعي مادي وغير مؤمن، فقد كان اقبال يكن احتراما عظيما لمؤسس الاشتراكية العلمية كارل ماركس. وكان يشير اليه كمبشر بنظام جديد مؤسس على المساواة بين كل البشر، وقد نظر اليه كنبي ورأى كتابه «رأس المال» ككتاب مقدس يحتوي على مبادىء نظام جديد عادل للمجتمع.

(«رسالة الخلود» ٦٩)

وفي موضع آخر يتوسل اقبال الى روح ماركس أن تجهر مستنكرة نظام الاستغلال في أوروبا الغربية، ويدع ماركس يهاجم الاقتصاديين الأوروبيين الذين يخفون عمداً البنية المستغلة للنظام الرأسمالي ويسخرون العلم فقط لتلبية احتياجات الطبقة الحاكمة:

أيها الاقتصاديون الحكماء ماذا يوجد في كتبكم المقدسة؟
ملهاة ذات منحنيات محكمة، من نوع
دعوة البرامكة.
في مزارات الغرب الوثنية،
وعلى منابرها وفي مراكز التعليم بها،
الشراهة، وجرائمها الفتاكة مقنعة،
خلف ملهاة احتفالكم الخبيثة.

(«ضرب كليم» ١٣٩)

وعلى الرغم من أن اقبال في سنوات حياته الأخيرة قد كرس اهتماماً منتظماً للاشتراكية الا أن اهتمامه ظل مركزاً في اعتقاده الديني الثابت أن الأساس الاقتصادي للاشتراكية يتفق مع تعاليم القرآن.

كذلك كان اقبال يعتقد أن الاسلام والاشتراكية لهما نفس الهدف، وهو ضمان العيش لكل الناس، ولم تتغير أفكاره في هذا الصدد. وعلى أي حال فقد اختلط على اقبال الفارق بين النظام الاشتراكي وبين أفعال الاحسان في الدين كما أوصى به الاسلام، الذي ــ أي فعل الخير ــ ليس من شأنه القضاء على جذور الحيف وعدم المساواة. وفي قصيدة «اشتراكية» يورد اقبال بمعنى جديد جزءاً من آية «الزكاة» الشهيرة: «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» (سورة البقرة ٢/١٩):

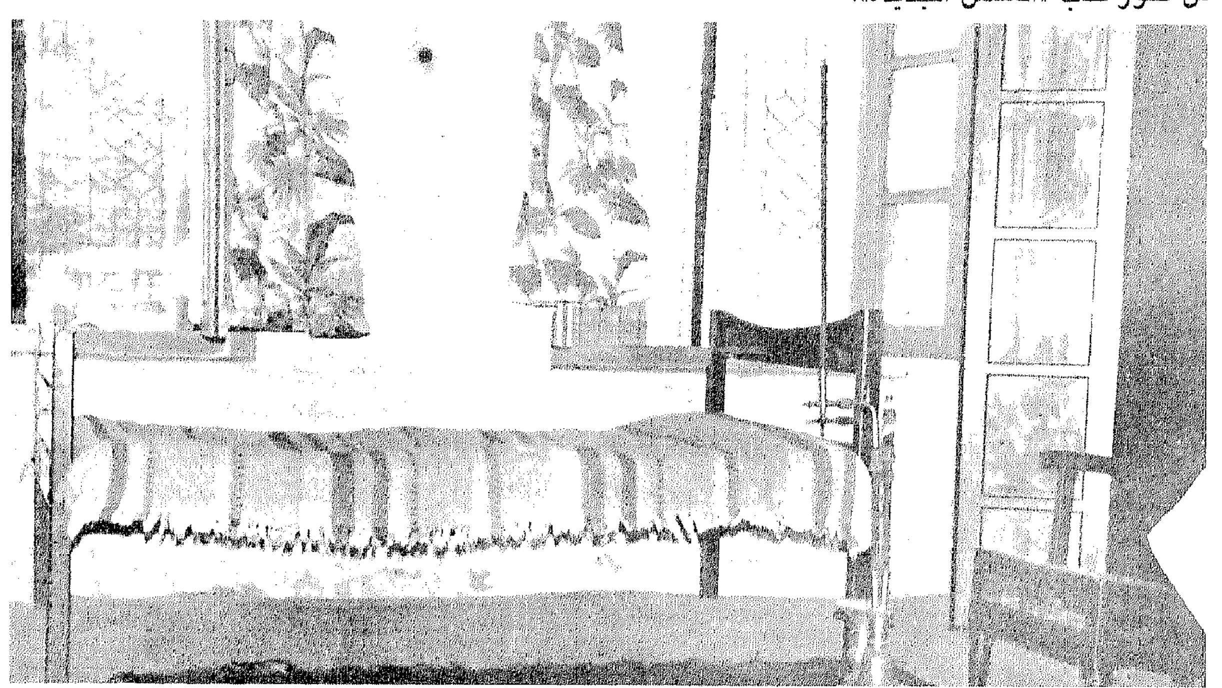
من سلوك الأمم يتضح
أن تقدم روسيا السريع ليس بلا ربح.
وربما أظهر التقدم في هذه اللحظة، الحقيقة المخبأة في هذه الكلمات «قل العفو»

(ضرب كليم ١٣٨)

طالب اقبال باشتراكية اسلامية للمسلمين. وقد وصف الالحاد بأنه الشرخ الأساسي في النظام الاشتراكي في روسيا، على الرغم من أنه سلم بأن الاتحاد السوفييتي قد أكمل الى حد ما وعن غير قصد عملاً من أعمال الله. وكان يعتقد أن الالحاد السوفياتي لم يجىء الا نتيجة فشل الكنيسة الأرثوذكسية القديمة وفسادها. وفي

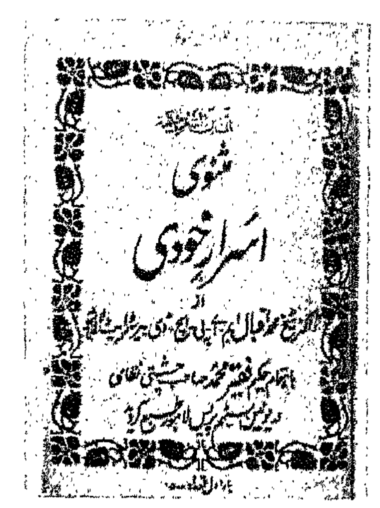


من صور كتاب «الشمس الجديدة».



غرفة نوم اقبال ــ هنا قضى اقبال اعوامه الأخيرة، على سرير المرض وفي التأمل.

قصيدة روسيا البولشفية يقول:
المراسيم الالهية، الخفيفة، تتحرك
من يدري أية أفكار تضرب بعمق في عقل الكون!
هؤلاء المكلفون بالهدم، الذين اعتقدوا متأخراً
أن الخلاص
أن يحموا القساوسة؟
على روسيا الكافرة تهبط هذه اللعنة:
لتهوى وحوش الكنيسة وكل الآلهة المزيفة؟
(«ضرب كليم» ١٤٣)



غلاف كتاب اقبال: «اسرار خودي»

ولاقتناعه أن النظام الاشتراكي الذي حقق المساواة والعدالة لكل الناس لا يمكن أن يكون غير مؤمن، فإن اقبال في رسالته الى الأمة الروسية «رسالة الخلود» يسأل شعب الاتحاد السوفيتي أن يكف عن انكار الله وأن يبدأ حياة دينية. ولأول مرة يستخدم هنا تعبير «لا» و«الا» الذي يتكرر بشكل أكثر في أعماله اللاحقة. فـ «لا» العربية هي أداة نفي في شهادة المسلم بايمانه «لا اله». وتعني السقوط النهائي لكل الهرطقة والسلطان الدنيوي أما «الا» فهي تكون الجزء الايجابي في الشهادة «الا الله» وتعني لدى اقبال الحاجة الى الاعتقاد في اله واحد والايمان به كحاكم أعظم وتقديسه. واعتقد اقبال أن الشعب السوفياتي قد حقق بالفعل الجزء الأول من الشهادة باسقاطه النهائي لحكامه، ورأى اقبال أنه قد حان الوقت بالنسبة للسوفيات أن يعرفوا الله كسلطان أعلى لهم:

لقد انتهيتم الآن من السادة
انتقلوا من «لا» واتجهوا صوب «الا»
(«جاويد نامه» أو «رسالة الخلود» ١٤٣٧)

وفي رسالته الى الأمة الروسية يشرح اقبال أفكار الاشتراكية الاسلامية، وهي نظرية اجتماعية فلسفية كانت ولا تزال رابحة بين قسم من المثقفين المسلمين، وتركز النظرية على الجوانب الاشتراكية في التعاليم القرآنية موضحة أن المساواة بين كل الناس لا تتطلب ثورة أو اعادة تنظيم اقتصادي في المجتمع الانساني وأن التمسك الدائم بتعاليم القرآن كاف للوصول الى الهدف. وقد أقام بعض المثقفين اعتقادهم أساساً على آيات القرآن التي تدين السادة الأغنياء وتدافع عن العبيد وتحض على فعل الخير وتقديم الزكاة. ويستشهد كثيراً في هذا الخصوص بالآية القرآنية «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ــ البقرة ٢/٢١٩ ــ والآية الأخرى التي تقول:

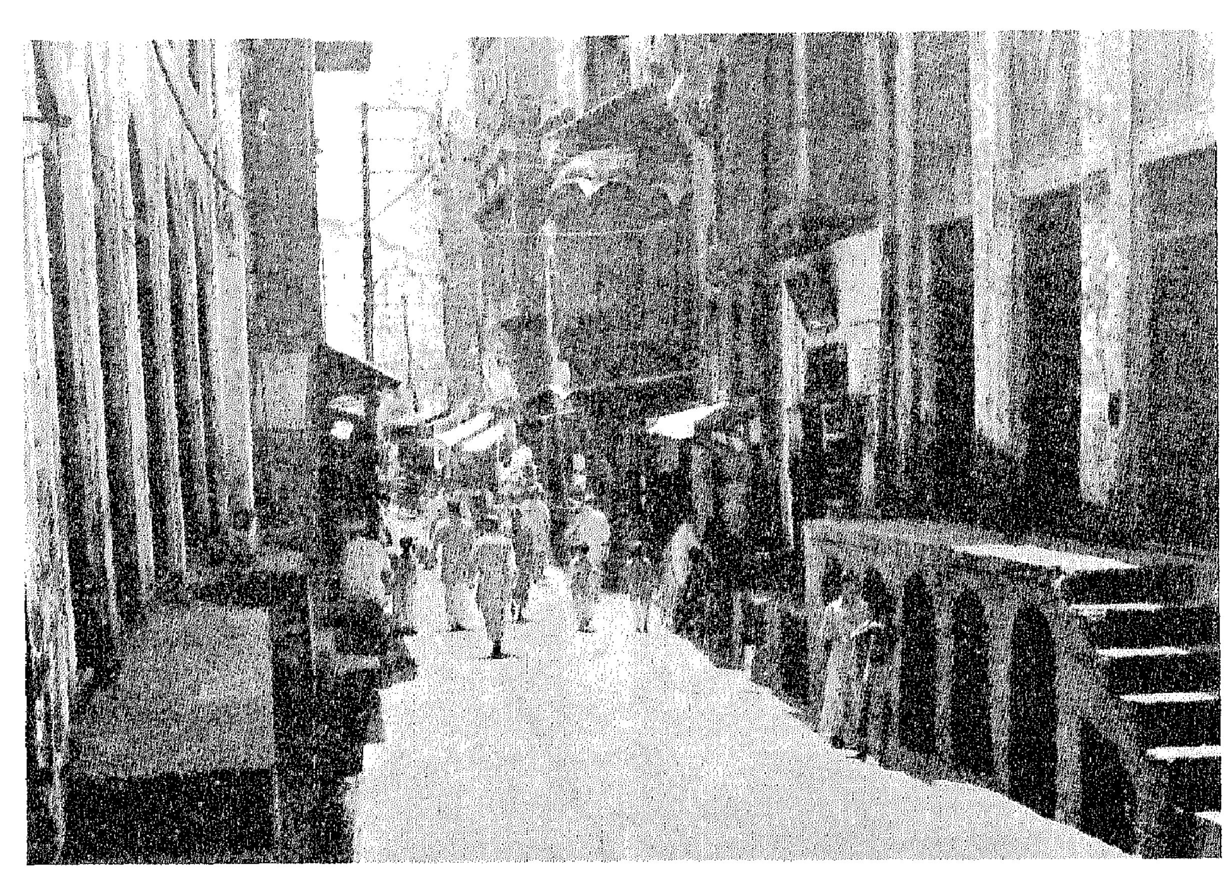
«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون..»
ــ آل عمران ٣/٩٢ ــ

فالاشتراكية الاسلامية تعلي من شأن فعل الخير معتمدة على الارادة الطيبة للأفراد الأغنياء بدلاً من مبدأ عدالة التوزيع. وقد حاول اقبال أن يثبت أن مبدأ الاشتراكية الذي تحقق بالفعل في الاتحاد السوفيتي هو مبدأ وثيق الصلة بالمبادىء القرآنية، وبالتالي فليس ثمة صعوبات أمام قبول الشعب السوفيتي الاعتقاد في الله والاسترشاد بالقرآن وقوانينه:

ان الله أمر المسلمين، أن ضعوا أرواحكم
على أكفكم.
أعطوا كل ما تملكون فوق احتياجاتكم
لقد خلقتم قانوناً جديدا ونظاما،
تأملوه قليلا،
في ضوء القرآن.
(«رسالة الخلود» ١٤٨٩)

لكن من الواضح أن اقبال لم يأخذ هذا النقاش مأخذ الجد، ولم يقصد بالتأكيد دعوة الشعب السوفيتي الى اعتناق الاسلام. أنها كانت بالأحرى طريقة لاثبات أن المبادىء الاشتراكية مثل تلك التي يتضمنها القرآن يمكن أن تطبق في العصر الحديث.

ان نقد كل أشكال الانتهاك والاستغلال التي يمارسها الانسان ضد الانسان ونقد النظم الرأسمالية، والتعاطف مع العمال، كل هذا يرد في كتابات اقبال مقترناً بعقيدة ثابتة بضرورة اقامة علاقة حب بين الشعوب. ان العقيدة الدينية القوية جعلت اقبال غير قادر على الابتعاد عن فكر طبقته وعلى وضع شعره في خدمة الحركة الثورية للعمال والفلاحين كما فعل بعض المسلمين من معاصريه (على سبيل المثال «شاعر الثورة» ــ جوش مليها بادي) لم يكن



بازار الحكمة ــ هنا قرأ أشعاره الجديدة على صديقيه شهباز دين، وحكيم أمين الدين.

اقبال أبداً قائداً للجماهير. كان شاعراً مثقفا وفيلسوفا، مرتبطا عاطفيا بالنظام الاقطاعي القديم الذي أراد على أساسه أن يبني مستقبلاً اشتراكيا مثاليا، لقد أحس بقوة بالقمع الواقع على الطبقة العاملة، لكنه ظل بعيدا عنها. وكثيراً ما كان ينتقد الظلم الاجتماعي، ويدين النظام الرأسمالي الذي يتفشى فيه هذا الظلم. ولكنه في الواقع العملي قد سعى لتأمين النمو المطرد للعمل الرأسمالي. وفي بداية الثلاثينات دعا اقبال الى اقامة وطن مستقل للمسلمين الهنود (وهو ما أصبح فيما بعد مطلب تأسيس دولة باكستان) والى تحديد مجالات النفوذ تحديداً عمليا ييسر للبرجوازية المسلمة أن تمارس نشاطها الرأسمالي دون عوائق.

حاولت في السابق أن أبين عدم الاتساق الأساسي الذي يميز حياة اقبال وفلسفته. وعدم الاتساق هذا لا يلازم شخصية اقبال فحسب، وانما يسم الفترة التي عاش فيها، فهو كشاعر ومفكر وقف على الخط الفاصل بين حقيقتين ــ المجتمع الاقطاعي القديم والرأسمالي الحديث ــ وقد انفصل جزئياً عن الاثنين، لكنه فيما يختص بالأفكار التصق بالأولى، بينما من الوجهة العملية التصق أكثر بالثانية. لقد كانت الاشتراكية في عصره ايديولوجية الحقبة الجديدة القادمة في التاريخ الانساني، أيديولوجية طبقة اجتماعية لم يعرفها اقبال ولم يثق بها. كان اقبال ممثلاً نموذجياً للبرجوازية الهندية وفوق كل شيء لمثقفي الطبقة المتوسطة المسلمة. وقد عبر في شعره عن آمال هذه الطبقة ومطالبها وقدم لها المثل التي تخدم حاجاتها الموضوعية. وقد نجح الى حد ما في الاسراع بحركة انتقال المسلمين الهنود من النظام الاقطاعي الى مجتمع برجوازي، وأسهم بذلك بشكل غير مباشر في تمهيد الأرض للتقدم في المستقبل نحو نظام اجتماعي أفضل وأكثر عدلاً..

●



غزاة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي

الحلقة الأولى

د. عمر عبد السلام تدمري

في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وصل المسلمون بفتوحاتهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط فافتتحوا أقاليم وموانئ كانت خاضعة للسيطرة البيزنطية، ولم يكن البيزنطيون ليسلموا بسرعة بخروج الساحل الشرقي للبحر الأبيض من أيديهم، إذ كان موردًا ومعبرًا هامًا لتجاراتهم، ومركزًا لأساطيلهم وقوتهم البحرية في هذه المنطقة. ولذا بدأ منذ عهد عمر الإحساس بأنه من الضروري اصطناع أسطول بحري للمسلمين يقف أمام الإمبراطورية البيزنطية ويصد أساطيلها.

ويُحكى عن معاوية أنه ألحّ على الخليفة عمر ليسمح له بركوب البحر وغزو البيزنطيين، لمجاراتهم وصدّ غاراتهم البحرية ومقاتلتهم بسلاحهم نفسه. وكتب إليه يقول: «يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهي تلقاء ساحل من سواحل حمص»(١). فقيل عن الخليفة أنه كتب إلى معاوية: «إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك».

وقد ذكر ابن خلدون سبب امتناع العرب عن ركوب البحر في أول عهدهم فقال: «والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته. فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولًا (خدمًا) لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النوتية في

حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها، فتاقت نفوسهم الى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى حافته، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس»[٣].

وبسبب موقف الخليفة عمر من اصطناع الأسطول، انصرف الاهتمام الى تحصين المدن الساحلية وترميم حصونها القديمة التي تركها العدو، وسميت «أخائذ»[٤]، كما أنشأوا «مناظر» كانت-تتخذ للمواقيد والحفظة والمرابطة وحمايتها من غارات الروم المفاجئة. وكان معاوية قد كتب الى الخليفة يصف له حال الساحل، فكتب اليه في مرمّة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، واقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها. ولم يأذن له في غزو البحر[٥].

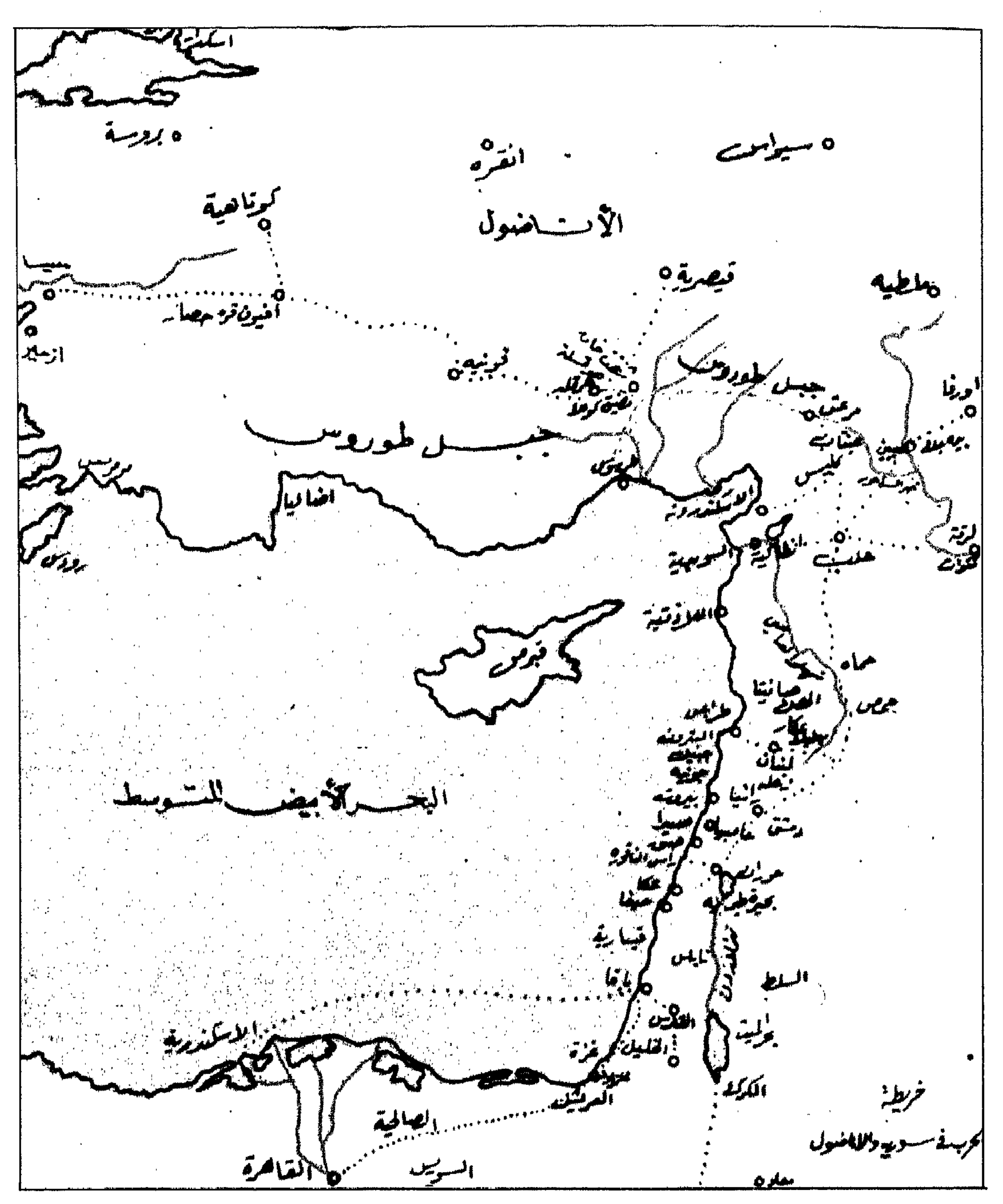
وحدث في أواخر أيام الخليفة عمر وأوائل أيام الخليفة عثمان أن غمرت موجة بيزنطية الساحل الشامي، وعمل البيزنطيون على تثبيت أقدامهم في مدن الساحل والتشبّث بها، بفضل أسطولها البحري، وألحقوا هذه الموجة بحملة بحرية، استطاعوا أن يستعيدوا فيها مدينة الاسكندرية سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م. ووجد معاوية أن من الضروري اصطناع أسطول بحري للوقوف في وجه الخطر البيزنطي، والدفاع عن سواحل مصر والشام، وحماية المياه العربية، بله ضرب الأراضي البيزنطية نفسها لتأديبها ولمنع الغارات العدوانية التي تقوم بها.

واذا كان معاوية قد فشل في الحصول على موافقة الخليفة عمر على ركوب المسلمين البحر، فإنه نجح في اقناع الخليفة عثمان بعد لأي، رغم أن عثمان كان محترزاً في قراره بالموافقة، اذ قال لمعاوية: «لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»[٦].

بناء معاوية للأسطول:

وهكذا شرع معاوية ببناء أسطول اسلامي في مواني الشام ومصر، معتمداً على العناصر التي كانت لها دراية وخبرة في هذه الصناعة من سكان الساحل الشامي، وفي مصر من القبط، بالاضافة الى عناصر فارسية استقدمها الى السواحل. وبذلك تكون الأسطول الاسلامي. فكانت أسلحة رجاله لا تختلف عن أسلحة الجند في البر، اذ كانوا يتمنطقون بالخناجر والسيوف، ويحملون القسي والحراب والنبال، كما كانت المراكب تشحن بالحجارة لرميها على الأعداء، الى جانب الحبال التي ينتهي طرفها بكلاليب لقذفها على السفن المعادية والالتصاق بها لجذبها ومنعها من التحرك أو المناورة.

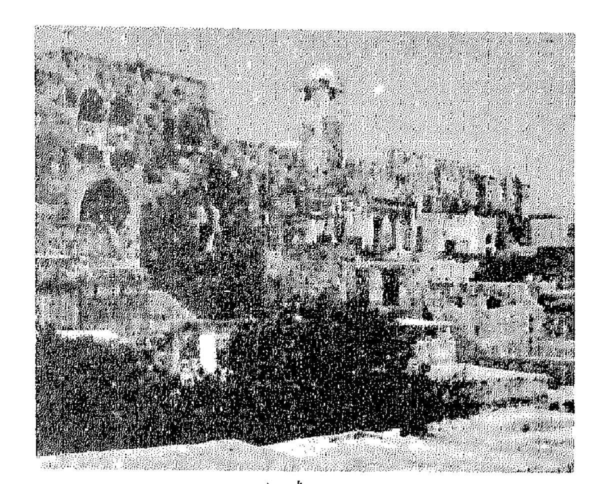
واذا كان عثمان قد وافق على انشاء الأسطول نزولاً عن الحاح واصرار معاوية، فإنه قد استمر في وضع القيود أمامه، ومن هذه القيود أنه اشترط عليه في حملته على جزيرة قبرس أن يأخذ معه زوجته، وعلى من معه من القادة المسلمين أن يصطحبوا زوجاتهم كذلك[٧]. وكانت غزوة قبرس هي باكورة أعمال العرب الحربية في البحر الأبيض المتوسط «اذ لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها»[٨].ولقد كتب معاوية الى أهل السواحل فأمرهم بإصلاح المراكب التي غنمها المسلمون من الروم عند الفتح، وتقريب تلك المراكب الى ساحل حصن عكا بفلسطين، وكان معاوية أمر بترميمها وترميم مدينة صور[٩]. وخرج من ميناء عكا في حملته الأولى على الجزيرة في سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م[١٠]. على رأس أسطول ضخم، ومعه من الصحابة: «أبوذر الغفاري» و «عبادة بن الصامت» وزوجته «أم حرام بنت ملحان»، و «المقداد بن الأسود»، و «شداد بن أوس»، و «أبو الدرداء الأنصاري»، وكان هذا الأخير ممن رابط في بيروت. وانتهت هذه الحملة بعقد صلح بين أهل الجزيرة والمسلمين، على أن يؤدوا سبعة آلاف دينار سنوياً للمسلمين، ويؤدوا للبيزنطيين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على أن لا يغزوهم، ولا يتحمل المسلمون الدفاع عنهم أمام عدوّ يهاجمهم، ولكن على القبارسة أن يبادروا الى اخطار المسلمين في حال مسير عدوهم اليهم من الروم، ويتولى المسلمون وضع بطريق منهم ليحكمهم[١١]. ولكن أهل الجزيرة أخلوا بشروط هذا الصلح، فهاجمها المسلمون



في سنة ٣٣هـ/٦٥٤م. وفتحوها عنوة، ونقل اليها معاوية جماعة من أهل بعلبك وبنى بها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية الى أن توفي، وولي بعده ابنه يزيد فأعاد البعلبكيين وغيرهم من أهل الديوان وأمر بهدم المدينة(١٢).

وكان حظ جزيرة أرواد الشامية، الواقعة تجاه أنطرطوس، مثل حظ جزيرة قبرس، اذ تعرضت لحملتين كانت أولاهما بعد الحملة الأولى على قبرس سنة ٢٩هـ. انتهت بعقد معاهدة مع أهلها. أما الحملة الثانية فكانت في السنة التالية، وتم فيها فتح الجزيرة بالقوة واحراق عاصمتها وقلعتها(١٣).

وفي سنة ٣٣هـ/٦٥٤م. هاجم المسلمون جزيرة رودس، واستولوا عليها بالقوة. كما


جزيرة أرواد

أغاروا على جزيرة اقريطش (كريت) وأنزلوا الخسائر بالأسطول البيزنطي[١٤]. على أن المسلمين توجوا نشاطهم البحري بالانتصار الرائع في الموقعة التي اشتهرت باسم «ذات الصواري»، والتي ماتزال حتى الآن تعتبر من أهم المعارك البحرية الفاصلة في التاريخ، وبعدها أصبح بحر الروم يعرف ببحر الشام عند الساحل الشرقي. وقد برز في هذه الموقعة من أمراء البحر الشاميين «بسر بن أرطاة» أو «ابن أبي أرطاة» الذي يرجح أنه خرج بأسطوله من ميناء طرابلس، وانضم الى أسطول مصر بقيادة «عبد الله بن أبي السرح» وكان غزاة البحر يتألفون من العرب اليمانيين والقيسيين، ومن القبط، والفرس، وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين، وكان معاوية في أول الأمر يغزي اليمنيين في البحر، ويغزي القيسيين في البر، فقال شاعر اليمن يقرّع بني قومه وعشيرته:

ألاّ أيها القوم الذين تجمعوا
بعكّا أناس أنتم أم أباعر؟
أنترك قيس آمنين بدارهم
ونركب ظهر البحر والبحر زاخر؟

فلما بلغت هذه معاوية بعث الى اليمن فاعتذر اليهم، وقال: ما أغزيتكم البحر الاّ لأني أتيمن بكم، وأن في قيس نكداً وأخلاقاً لا يحتملها الثغر، وأنا عارف بطاعتكم، ونصحكم. فأما اذ قد ظننتم غير ذلك فأنا أجمع فيه بينكم وبين قيس فتكونون جميعاً فيه، وأجعل الغزو فيه عقباً بينكم (أي نوبة ومبادلة)، فرضوا فعل ذلك فيما بعد[١٥].

الغزاة في عهد معاوية:

لما قتل الخليفة عثمان واختلف الناس، لم تكن للمسلمين غازية ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية سنة ٤٠هـ. وسموها سنة الجماعة[١٦]. وما أن بويع معاوية بالخلافة في الكوفة ورجع الى الشام في سنة ٤١هـ. حتى بلغه أن ملك الروم زحف في جموع كثيرة، فخاف أن يشغله عما يحتاج الى تدبيره واحكامه، فوجه اليه فصالحه على مائة ألف دينار مع «حبيب بن مسلمة الفهري» والي الجرجومة. فكان بذلك أول من صالح الروم في سنة ٤١ أو أول سنة ٤٢هـ[١٧]. ولما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة، تصيف بها وتشتوا ثم تقفل وتدخل معقبتها[١٨]. فكان المسلمون يخرجون للغزو في البر والبحر كل سنة. وقد فصل «قدامة بن جعفر» مواعيد الغزوات الصيفية والشتوية والربيعية على النحو التالي:

«ان أجهدها ممن يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بغد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً، وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فانهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً، وكأن داوبهم ترتبع ربيعاً ثانياً، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً، وهي بقية حزيران، وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر. ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً. فأما الشواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار مايحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في أواخر سباط (شباط)، فيقيم الغزاة الى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف مايكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون»[١٩].

● ولقد كان معاوية أول من غزا في البحر، واستعمل على البحر «عبد الله بن قيس الجاسي» حليف بني فزارة، وكان الخليفة عمر أول من استعمله على السواحل، حيث يذكر «الطبري» أن عمر لما قدم الشام قسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها، وسمى ذلك في كل كورة، واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، وكان ذلك في سنة ١٧هـ[٢٠]. ويفهم من هذه الرواية أن «عبد الله بن قيس» كان أميراً على مدن الساحل وثغوره أيام عمر، ثم أصبح غازياً في عهد معاوية، وقيل أنه غزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب. وقد ورد ذكره في حوادث سنة ٣٥هـ. صائفة، وفي سنة ٥٥هـ. خرج في غزوة شاتية، وفي سنة ٥٧هـ. شتا بأرض الروم وأصيب وحده في هذه الغزوة. وذكر الطبري أنه كان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى اذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى الى المرقى من أرض الروم وعليه سؤال يعترون بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت أمرأة من السؤال الى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى. قالوا: أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد. فثاروا اليه فهجموا عليه فقاتلوا وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملّاح حتى أتى أصحابه فجاؤا حتى أرقوا، والخليفة منهم «سفيان بن عوف الأزدي» فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل، فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت:

الغمرات ثم ينجلينا

فترك ما كان يقول ولزم: الغمرات ثم ينجلينا. وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي.

وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك ولم يقبض قبض التجار.. فعرفت أنه عبد الله بن قيس[٢١].

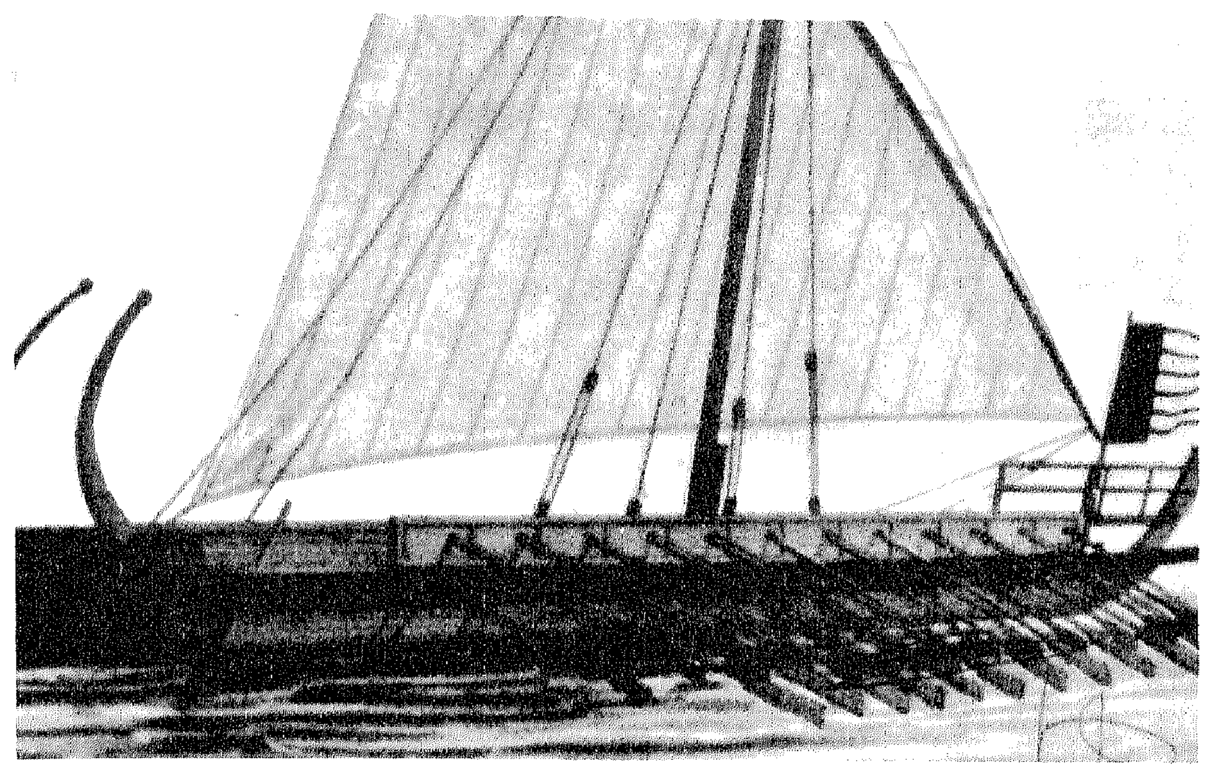
● وذكر «المنجي» أن «بسر بن أرطاة» كان أول من غزا الروم في خلافة معاوية سنة ٤٢هـ. فهزمهم هزيمة منكرة وقتل عدة من البطارقة[٢٢]. وعاد فغزاهم في البحر سنتين متواليتين، حيث شتا بأرضهم في سنة ٤٣هـ. حتى بلغ القسطنطينية، ثم في سنة ٤٤هـ.

● وخرج «عقبة بن عامر بن عبس الجهني» الصحابي المشهور لغزو رودس في سنة ٤٧هـ. وقام الروم، في مقابل ذلك، بغزوة وصلوا فيها الى السواحل في سنة ٤٩هـ.

ويلاحظ أن «البلاذري» لم يورد تفصيلاً لغزوة الروم هذه، كما لم يشر اليها غيره من المؤرخين المسلمين، وقد أشار اليها المؤرخ اليوناني «توافانس» المتوفي سنة ٨١٨م. فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح (٤٩هـ). دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة. وانضم اليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف».

ويبدو أن هذه الغزوة البيزنطية لم تلبث أن تراجعت دون أن تحدث أثراً هاماً، ولكنها نبهت معاوية الى ضرورة الاهتمام بتحصين المدن الساحلية، فأمر بعدها بجمع الصناع والنجارين، فجمعوا، ورتبهم في السواحل. وسير قواده لقتال الروم، فشتا بأرضهم «مالك بن هبيرة السكوني»، وغزاهم في البحر «يزيد بن شجرة الرهاوي» وشتا بأهل الشام. كما غزاهم «يزيد بن معاوية» حتى بلغ القسطنطينية، ومعه: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وجماعة من جند مدينة بعلبك وأنطاكية وغيرها.

● ويذكر «البلاذري» وغيره أن معاوية كان وجه جيشاً الى بلاد الروم ليغزو الصائفة، فأصابهم جدري فمات أكثر المسلمين، وكان ابنه «يزيد» مضطجعاً بدير مران مع زوجته أم كلثوم، فبلغه خبرهم، فقال في ذلك شعراً ولم يبال بما لاقاه المسلمون، فبلغ شعره أباه، فقال: أجل، والله ليلحقن بهم فليصيبنه ما أصابهم، فخرج حتى لحق بهم، وغزا حتى بلغ



سفينة بيزنطية

القسطنطينية وهزم الروم، وضرب بابها بعمود حديد كان في يده فهشمه حتى انخرق(٢٣). وكانت هذه الغزوات كلها في سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، مما يؤكد أن غزوة «المردة» الى «لبنان» التي ذكرها «توافانس» لم تكن في تلك الخطورة التي بالغ في وصفها.

وتتابعت الغزوات الاسلامية على السواحل البيزنطية، فكان يتناوب على الغزو في البحر عدد من القادة والأمراء والغزاة، برز منهم في ساحل بحر الشام على عهد معاوية:

- «**بسر بن أرطاة**»: وقد غزا في البحر أيضاً سنتي ٤٨ و٥٢هـ. وهو صحابي.
- «**مالك بن هبيرة السكوني**»: غزا في البحر سنة ٤٨هـ. وهو صحابي.
- «**يزيد بن شجرة الرهاوي**»: وهو من الصحابة، غزا سنة ٤٩ و٥٦هـ. وقيل: ٥٥هـ.
- «**فضالة بن عبيد الأنصاري**»: وهو صحابي شهد أحد وما بعدها، وشهد فتح مصر، وسكن دمشق وولي قضاءها لمعاوية وأمره على غزو الروم في البحر سنة ٥٠هـ وقيل: شتا بأرض الروم في البحر سنة ٥١هـ.
- «**أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري**»: توفي غازياً في البحر سنة ٥١هـ. قيل أن بنيه قالوا له: قد غزوت على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر، فنحن نغزو عنك، فأبي، فغزا في البحر، فمات في السفينة، فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها الّا بعد سبعة أيام، ولم يتغير!
- «**عياض بن الحارث**»: وكان على البحر في سنة ٥٦هـ. وقتل وهو يغزو في سنة ٥٨هـ.
- «**جنادة بن أمية الأزدي الدوسي**»: كان على غزو البحر أيام معاوية كلها. وقد أغزاه معاوية سنة ٥٢هـ. الى جزيرة رودس، وكانت غيضة في البحر، فسار اليها في الشتاء بعد اغلاق البحر، ومعه «حي بن هاني السريع المعافري»، ففاجأ البيزنطيين وتمكن من فتح الجزيرة في سنة ٥٣ (وقيل: ٥٤هـ)، وأرسل اليه معاوية فأنزل فيها قوماً من المسلمين، فزرعوها، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، وأقاموا على الشاطىء حارساً ممن يريدهم في البحر، فكانوا أشد شيء على الروم يعترضون سفنهم في البحر حتى أخافوهم، وأمدهم معاوية بالعطايا والارزاق. فأقاموا في

الجزيرة سبع سنين، ومعهم مجاهد بن جبر يقرىء الناس القرآن[٢٤].

وقد تولى «جنادة» الغزو في البحر من زمن الخليفة عثمان الى أيام يزيد بن معاوية، الا ما كان من أيام الفتنة. وهو من صغار الصحابة، اختلف في سنة وفاته.

● وقد قام البيزنطيين بتسيير أسطول كبير من السفن في سنة ٥٧ أو ٥٨هـ. فتصدى لهم الأسطول الاسلامي بقيادة «**يزيد بن شجرة الرهاوي**»، ولكن البيزنطيين تمكنوا من قتل «يزيد» وأصحابه، وهزموا الأسطول الاسلامي، وانكشف الساحل الشامي لهم فنازلوا مدينتي: صور وصيدا[٢٥] واستطاعوا اقتحامها والقضاء على كل مقاومة فيهما، ثم تسلقوا جبال لبنان واستولوا عليها، وجاؤا بالجراجمة فبثوهم فيما بين جبل الجليل في شمالي فلسطين، الى الجبل الأسود في شمال الشام، وشكلوا بذلك حاجزاً يفصل بين القوات العربية في البلاد الداخلية، وقواتهم في الساحل، حتى اضطر معاوية لرفع حصاره عن القسطنطينية وعقد هدنة مع الأمبرطور «قسطنطين اللحياني الرابع» مدتها ثلاثون عاماً، التزم فيها معاوية بأن يدفع في كل سنة عشرة آلاف قطعة ذهبية، ومائة عبد، و ٥٠ فرساً ــ حسب رواية المؤرخ اليوناني «شدرانس» ــ[٢٦].

● غير أن «**سعيد بن يزيد بن شجرة الرهاوي**» أراد الانتقام لأبيه فقام بغزوة في سنة ٥٨هـ. ومعه أحد الغزاة ويدعى «أكدر» الى جزيرة رودس.

● وفي سنة ٥٩هـ/ ٦٧٩م. ــ وهي المعروفة بسنة الجوع ــ قام «**جنادة بن أبي أمية**» بغزوة شاتية الى جزيرة اقريطش «كريت» بعد اغلاق البحر استجابة لأمر معاوية الذي أراد أن تكون الغزوة مفاجئة للروم في وقت لا يتوقعون الغزو فيه، وكان جواب «جنادة» «اللهم ان الطاعة عليّ وعلى هذا البحر»، فقيل: انه لم يصب من المسلمين أحد بأذى في تلك الغزوة التي لم تقتصر على اقريطش فقط، بل وصلت الى رودس أيضاً[٢٧]. وكان مع «جنادة» في هذه الغزوة: «علقمة بن جنادة الحجري» و«علقمة بن الأختم»، وتولى أهل مصر ارسال الطعام الى أهل رودس.

غير أن البيزنطيين استردوا الجزيرة بعد خروج «جنادة» منها، مما دعاه الى العودة اليها ومنازلتها وهدم مدينتها في سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م. وقد عرفنا من التابعين الذين نزلوا رودس في هذه الغزوة: «عبد الله بن عوف القاري» و«عبد الله بن محيريز».

واستفحل خطر الروم وعبثهم في سواحل الشام حتى أنهم انتزعوا مدينة حماة من المسلمين، مغتنمين فرصة وفاة معاوية الذي كانت آخر وصاياه «أن شدوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم»، ونقضوا الهدنة التي كانت موقعة في عهده. وعندما قصد ابنه يزيد لاستردادها اعترضه أهل الجبال وردوه عنها في سنة ٦٠هـ. وازاء هذا الخطر رأى يزيد أن يدعم القوات الاسلامية المرابطة في بيروت وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية لتقوى على الصمود أمام البيزنطيين ومن والاهم، فكتب الى المسلمين في جزيرة رودس يخبرهم بوفاة أبيه، ويطلب منهم مغادرة الجزيرة وهدم الحصن الذي كانوا يرابطون فيه، والعودة بسفنهم الى ساحل الشام، فغادروها كما أمرهم، فلم تعمر بعد ذلك وخربت، وأمن الروم ركوب البحر. ويبدو أن قراره شمل جند قبرس فقفلوا أيضاً في السنة نفسها[٢٨].

وعن عودة المسلمين من رودس يروي المؤرخون حكاية طريفة، هي أن «رشيد بن كيسان الفهمي» قال:

«كنا برودس ــ وأميرنا «جنادة بن أبي أمية الأزدي» ــ فكتب الينا معاوية بن أبي سفيان: انه الشتاء ثم الشتاء، فتأهبوا له. فقال «تبيع» ابن امرأة «كعب الأحبار»: تقفلون الى كذا وكذا. فقال الناس: وكيف نقفل وهذا كتاب معاوية: انه الشتاء ثم الشتاء. فأتاه بعض أهل خاصته من الجيش فقال: ما يسميك الناس الا الكذاب لما تذكر لهم من القفل الذي لا يرجونه. فقال «تبيع» فانهم يأتيهم اذنهم في يوم كذا وكذا، من شهر كذا وكذا، وآية ذلك أن تأتي ريح فتقلع هذه التينة التي في مسجدهم هذا. فانتشر قوله فيهم، فأصبحوا ذلك اليوم في مسجدهم ينتظرون ذلك، وكان يوماً لا ريح فيه، فانتظروا

حتى احتاجوا الى المقيل والغداء، وملوا فانصرفوا الى مساكنهم أو الى مراكبهم، حتى اذا انتصف النهار، وقد بقي في المسجد بقايا من الناس، فأقبلت ريح عصار فأحاطت بالتينة فاقتلعها، وتصايح الناس في منازلهم: خرت التينة، خرت التينة. فأقبلوا من كل مكان حتى اجتمعوا على الساحل، فرأوا شيئاً لائحاً يتجول في الماء، حتى تبين لهم أنه قارب، فأتاهم بموت معاوية وبيعة يزيد ابنه واذنهم بالقفل، فشكروا تبيعاً وأثنوا عليه خيراً، ثم قالوا: وأخرى بقيت، قد دخل الشتاء، ونحن نخاف أن تنكسر مراكبنا. فقال «تبيع»: لا ينكسر لكم عود يضركم، ولا ينقطع لكم حبل يضركم حتى تردوا الى بلادكم، فساروا فسلمهم الله عز وجل(٢٩).

المصادر والحواشي

(١) الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ٢٥٨/٤ ــ طبعة دار المعارف بمصر، ويقصد بالقرية: جزيرة أرواد.

(٢) الطبري ٢٥٨/٤ و٢٥٩.

(٣) مقدمة ابن خلدون ــ ص ٢٢٠ ــ ٢٢٢ ــ طبعة بيروت ١٩٠٠.

(٤) فتوح مصر والمغرب، ابن عبد الحكم، ص ١٣٠، طبعة نيويورك ١٩٣٢.

(٥) فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ج١٥٢/١، طبعة القاهرة ١٩٥٦.

(٦) المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، المقريزي، ج ٣٠٨/٣، طبعة مصر.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ١٨١/١.

(٨) البلاذري، المصدر نفسه.

(٩) البلاذري ١٤١/١.

(١٠) وفي تاريخ أبي زرعة الدمشقي أن الغزوة كانت سنة ٢٥هـ. (أنظر التاريخ ١٨٤/١ ــ طبعة المجمع العلمي بدمشق).

(١١) البلاذري ١٨١/١، الطبري ٢٦٢/٤ وهو ينقل هذه الحادثة عن محدثين من ساحل الشام، منهم: سليمان بن أبي كريمة الصيداوي والوليد بن مسلم، والليث بن تميم الفارسي الأطرابلسي، وجميعهم حدثوا بصيدا وبيروت وطرابلس. وذكر الطبري أنهم «من مشيخة ساحل دمشق». وأنظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (مخطوط التيمورية)، ج ١٩٦/٣٦، التهذيب ٣٠٧/٧، شرح كتاب السير الكبير ــ الشيباني ــ ٢١٦٦/٥، طبعة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ١٩٧٢، وفي: تاريخ اليعقوبي١٦٦/٢ كان الفتح سنة ٢٧هـ.

(١٢) البلاذري ١٨٢/١.

(١٣) المنيحي، كتاب العنوان ٣٤٦/٢ طبعة بلجيكا، د. العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٩٦.

(١٥) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ج ٢٠٩/٢٠، ترجمة مسكين الدارمي، أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق د. احسان عباس، ق ٤ ج ٩٩/١، طبعة بيروت، ١٩٧٩، مختار الأغاني، ابن منظور، ج ٥٤/٤ و٥٥، طبعة معهد المخطوطات بالقاهرة ١٩٦٥.

(١٦) تاريخ أبي زرعة الدمشقي ١٨٨/١.

(١٧) تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٠٥، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، طبعة بيروت، تاريخ اليعقوبي، ٢١٧/٢، طبعة دار صادر ببيروت.

(١٨) تاريخ أبي زرعة ١٨٨/١.

(١٩) نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، (ملحق بالمسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ٢٥٩، نشره: دي غويه، طبعة بريل ١٨٨٩.

(٢٠) الطبري ٦٤/٤، ٦٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٥٦٢/٢، طبعة صادر ببيروت، ابن عساكر تاريخ دمشق ٣٠٢/٦ وانظر أيضاً: الطبري ٢٣١/٥ و٢٩٩ و٣٠٨ وابن الأثير ٤٥٧/٣ و٥٠١ و٥١٤ واليعقوبي ٢٤٠/٢، وابن خياط ٢٢٥.

(٢١) الطبري ٢٦٠/٤ و٢٦١ (حوادث سنة ٢٨هـ). وانظر عنه في تاريخ خليفة، ص ٢٣٠ (حوادث سنة ٦٠هـ).

(٢٢) المنبجي، العنوان ٣٤٩/٢، نهاية الأرب، النويري، ج ٢٦٥/٢٠، طبعة مصر ١٩٧٥.

(٢٣) انساب الأشراف، طبعة القدس ١٩٣٨، ق ٢ ج ٣/٤، الأغاني، ج ٢١٠/١٧، تاريخ اليعقوبي ٢٢٩/٢ و٢٤٠، جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الاندلس، ص٢٨٣، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

(٢٤) البلاذري ق ٢٧٩/١، المنبجي، ٣٥٢/٢، الطبري ٢٨٨/٥ و٢٩٣، ابن الأثير ٤٩٣/٣ و٤٩٧، ابن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، نشره كلمان هوار، ج ٤/٦، طبعة باريس ١٩١٩.

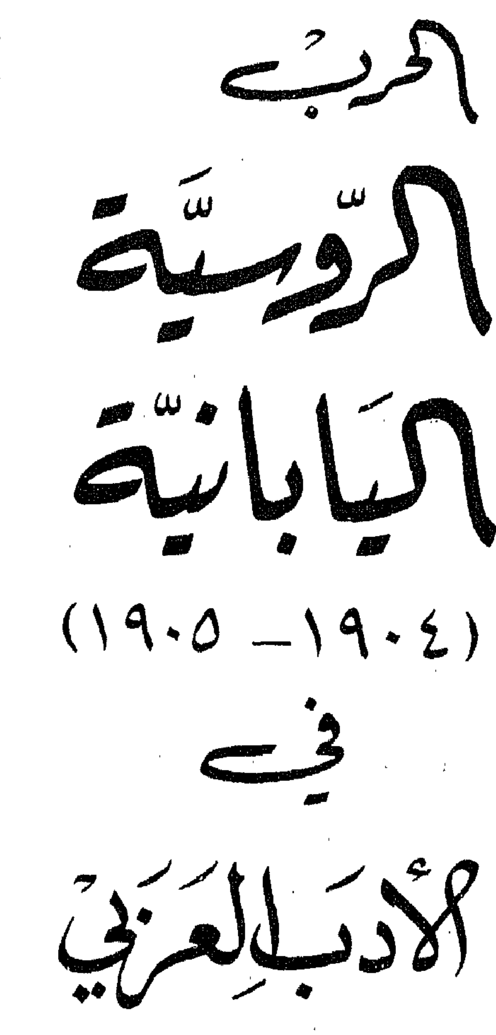
(٢٥) المنجبي ٣٥٢/٢.

(٢٦) تاريخ سورية، يوسف الدبس، مجلد ٥، ج ١٠٤/٣، الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل، ص ٣٥، طبعة بيروت ١٩٠٥.

(٢٧) البلاذري ٢٧٩/١، اليعقوبي ٢٤٠/٢، الطبري ٣١٥/٥، ابن خياط ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ابن عساكر المخطوط، ج ٥٠/٨، ابن الأثير ٥٢١/٣.

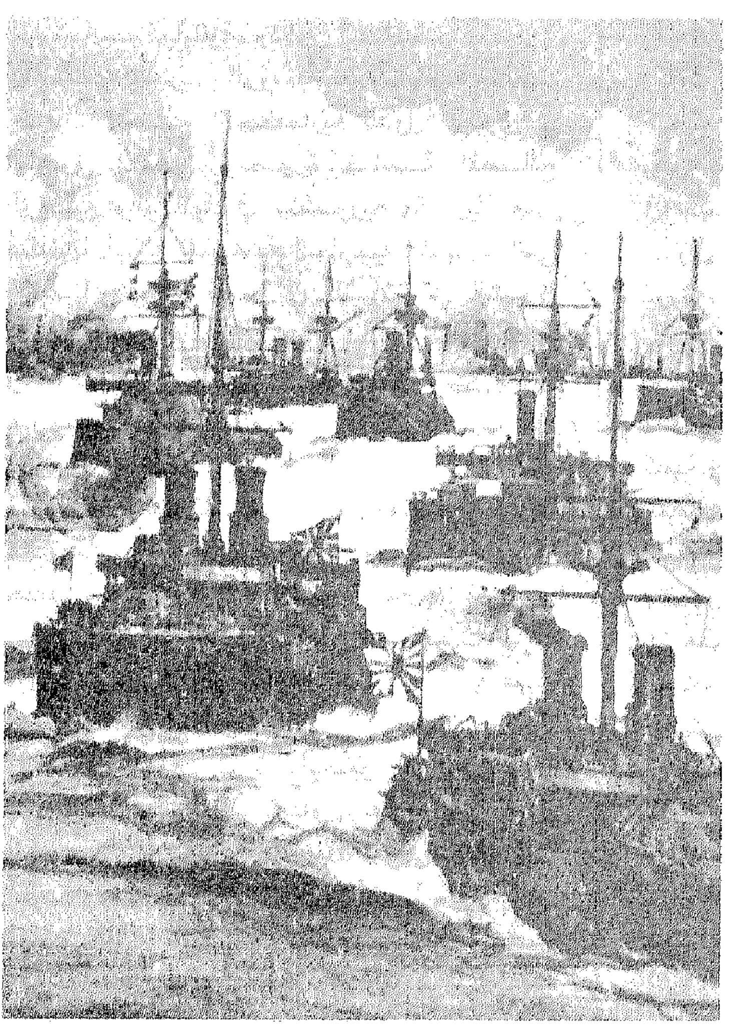
(٢٨) البلاذري ١٨٢/١، تهذيب ابن عساكر ٤١٢/٣.

(٢٩) ابن عساكر ٤٣١/١٠ و٤٣٢ نشره محمد أحمد دهمان، المعرفة والتاريخ، البسوي، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ج ٣٢٣/٣ و٣٢٤، طبعة بغداد ١٩٧٦، سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٤١٤/٤، طبعة بيروت ١٩٨١.



الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ ــ ١٩٠٥) في الأدب العربي

نجدة صفوة



معركة تسوشيما (٢٧ ايار ١٩٠٥) ويبدو الأسطول الياباني يتقدم.

كانت الحرب الروسية ــ اليابانية التي دارت رحاها في ١٩٠٤ و ١٩٠٥ أهم الأحداث الدولية في مطلع القرن العشرين، ولذلك لم تقتصر آثارها على الدولتين المتحاربتين وحدهما ــ حيث كانت ثورة ١٩٠٥ في روسيا إحدى نتائجها المباشرة ــ وإنما ترددت أصداؤها في العالم أجمع، وفي بلاد الشرق بصورة خاصة.

وقد شغلت هذه الحرب الرأي العام في البلاد العربية، واهتمت بها الصحافة العربية اهتماماً كبيراً، فكانت تتناقل أخبارها، وتصف معاركها، وتعلق على أحداثها، وتتكهن بنتائجها. كما اهتم بها الكتاب والشعراء، فتردد صداها في الادب العربي سنوات طويلة بعدها.

كانت هذه الحرب تجري في منطقة نائية من العالم، ولم تكن للبلاد العربية مصلحة مباشرة فيها، وكانت أسباب المواصلات ووسائل الاعلام محدودة وبطيئة. فما سبب هذا الاهتمام الكبير بها؟ ولماذا كان لها ذلك الصدى الواضح في الأدب العربي والصحافة العربية؟ ومن أبرز الكتّاب والشعراء الذين تردد ذلك الصدى في أدبهم؟

قبل الاجابة عن هذه الاسئلة، قد يكون من المستحسن أن نعرض بايجاز أسباب الحرب

(*) نجدة فتحي صفوة دبلوماسي سابق، عمل في وزارة الخارجية العراقية، وهو يهتم الآن بالأبحاث التاريخية. نشر عدداً من المقالات في مجلة «آفاق عربية» وكتابا بعنوان «العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب»، (بيروت، ١٩٦٩).

الروسية ـــ اليابانية، وتطور أحداثها.

نشبت الحرب الروسية ـــ اليابانية بسبب تضارب المصالح الاستعمارية للدول الكبرى في الشرق الاقصى، وبصورة خاصة المصالح الروسية واليابانية في منشوريا وكوريا. ومن أسبابها أيضاً السياسة الخارجية المتهورة التي اتبعها القيصر نيقولاي الثاني في الشرق الاقصى. وقد انجرفت روسيا إلى المنافسات الاستعمارية منذ قيامها بمشروع سكة حديد عبر سيبيريا. وكانت المنطقة المتنازع عليها هي منشوريا.

كانت روسيا قد حصلت ـــ بموجب معاهدتين عقدتهما مع الصين ـــ على امتياز بمد سكة حديد عبر منشوريا (التابعة للصين)، كما انها ـــ بموجب إتفاقية تالية ـــ استأجرت ميناء «بورت آرثر» لاقامة قاعدة عسكرية بحرية فيها، كما استأجرت الميناء التجاري «دالني». ولما قامت في الصين ثورة «ايختيوان» ـــ المعروفة بثورة «البوكسر» ـــ تعاون عدد من الدول الكبرى، من ضمنها روسيا، على قمعها. فلما أخمدت الثورة، أخذت روسيا تماطل في سحب قواتها المرابطة في منشوريا، متذرعة بحجج شتى، منها حماية الخط الحديد فيها. وبهذه الوسيلة، اتخذت من منشوريا منطقة نفوذ لها، بالرغم من انها كانت قد تعهدت بسحب قواتها منها بمعاهدة وقعت في ١٩٠٢.

ان تغلغل روسيا في منشوريا، وترسيخ أقدامها فيها، وحيازتها على قاعدة «بورت آرثر»، أثار مخاوف اليابان، كما انه أقلق بريطانيا على مصالحها الاستعمارية في الشرق الاقصى، فكان جوابهما على ذلك الحلف البريطاني ـــ الياباني الذي عقد في ١٩٠٢.

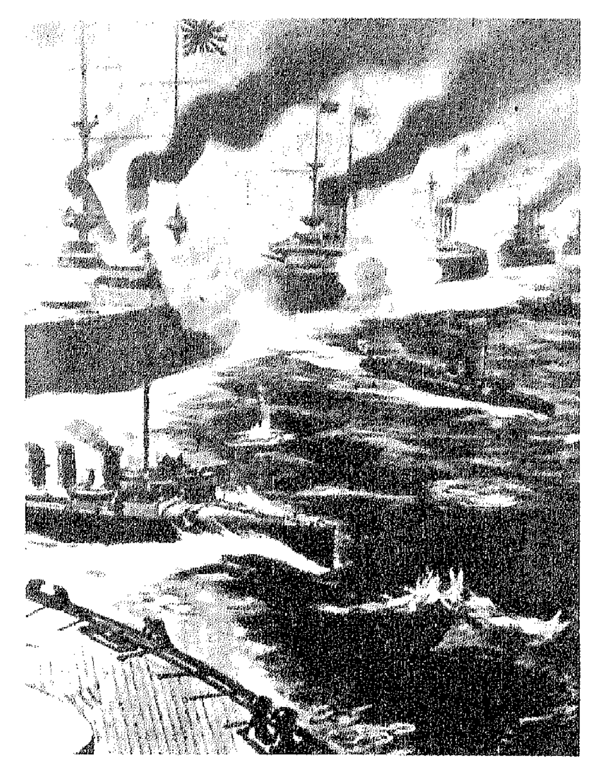
وربما سكتت اليابان عن بقاء منشوريا منطقة نفوذ روسية لو ان روسيا اكتفت بذلك، ولكن روسيا كانت تحاول ان تمد هذا النفوذ ايضاً إلى كوريا التي كانت اليابان تعتبرها منطقة نفوذ تابعة لها بصورة قاطعة، ولم تكن مستعدة للتساهل في أمرها مطلقاً. وقد أقر القيصر نيقولاي الثاني، الذي تسلم زمام السياسة الخارجية بيده، تسلل القوات الروسية إلى شمالي كوريا، واستغلال موارد الاخشاب والمعادن في الجانب الكوري من نهر «يالو». وكانت تحسن اليه هذه السياسة بطانة توجهها مطامع رأسمالي يدعى «بيزوبرازيف»، وهو مضارب يمتلك شركة لاستخراج الاخشاب في الشرق الاقصى.

وفي ١٩٠٣، بلغ التوتر بين روسيا واليابان ذروته، ومع ذلك كان هنالك مجال لحل الخلاف بالطرق السلمية، لو قبلت روسيا عرضاً يابانياً للاعتراف المتبادل بحقوق كل من الدولتين في منشوريا وكوريا. واستمرت المفاوضات سنة كاملة.وكانت الحكومة القيصرية تستهين بقوة اليابان، كما ان وزير داخليتها «بليفه» كان يعتقد بأن «حرباً قصيرة» تخرج منها البلاد منتصرة، سيكون من شأنها توحيد صفوف الشعب، وإذكاء حماسته الوطنية، وتجديد ولائه للحكومة، مما سيصد الحركات الثورية التي أخذت تقوى وتتسع في البلاد.

ولما بلغت المفاوضات مرحلة تعذر فيها التفاهم، وأدركت اليابان انها ستجبر في النهاية على دخول الحرب، قررت ان تعاجل الروس بها، قبل ان يأخذوا لها عدتهم، فقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا (في شباط ١٩٠٤)، ثم شنت على القاعدة الروسية في «بورت آرثر» هجوماً مفاجئاً يشبهه بعض المؤرخين بهجومهم على «بيرل هاربر» في الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن الخسائر التي ألحقتها القوات اليابانية بالاسطول الروسي كبيرة، ولكن الأثر المعنوي للهجوم الياباني المفاجيء كان عظيماً، برغم الشجاعة التي أبداها القادة الروس. وكانت المشكلة الكبرى التي واجهتها روسيا هي صمود جيشها وتموينه من مسافة ٥،٥٠٠ ميل (بين موسكو وفلاديفوستوك) على سكة حديد ضيقة وغير كاملة.

وعانت قوات الجنرال الروسي «كروباتكين» خسائر جسيمة في البر، كما مُنيَ الاسطول الياباني بخسائر كبيرة ألحقتها به الألغام، غير ان محاولات الاميرالية الروس في توجيه قواتهم البحرية المتفوقة على القوات اليابانية، كان يحبطها مقتلهم في المعارك واحداً بعد آخر. وعمدت روسيا إلى تعزيز اسطولها في



الهجوم على «بورت ارثر»

الشرق الاقصى، بأن أوعزت إلى قطعاتها البحرية في بحر البلطيق بالالتحاق بها، فلما علم بذلك اليابانيون، قرروا احتلال قاعدة «بورت آرثر» قبل وصول تلك القطعات، فحاصرتها القوات اليابانية من البر، وعزلتها عن القوات الروسية، حتى تمكنت من احتلالها في أول كانون الثاني ١٩٠٥، بعدما أظهرت القوات الروسية الموجودة فيها، بقيادة الجنرال «ستوسل» شجاعة فائقة في الدفاع عنها. وكان لسقوط «بورت آرثر» دوي هائل ليس في روسيا وحدها، وإنما في العالم أجمع.

ووصل الاسطول الروسي من بحر البلطيق، بعد ان قطع المسافة الطويلة حول إفريقيا دون ان تكون لديه الامكانات الكافية للتزود بالوقود، أو تنظيف قواعد السفن قبل خوض المعارك. وقد استغرقت رحلتها سبعة أشهر، وكانت عند وصولها في حالة لا تسمح بالحرب، ولا بالهرب. فتصدت لها قوات الأميرال «طوغو» في مضيق «تسوشيما» (في ٢٧ ـــ ٢٨ مايس)، فأبادتها بعد معركة ضارية. وفي هذه الاثناء هزمت قوات الجنرال «كروباتكين» أمام القوات اليابانية في معركة برية دامت أسبوعين.

ولما أصبح من الواضح ان روسيا خسرت الحرب، تدخلت الدول الكبرى، ووافق الطرفان على اقتراح أميركي بالمفاوضة على شروط الصلح في مدينة «بورتسموث» ـــ ولاية نيوهامبشر في الولايات المتحدة ـــ واستغرقت المفاوضات ثلاثة أسابيع وقعت بعدها معاهدة الصلح في بورتسموث في ٢٣ آب ١٩٠٥.

ان اليابان، وان انتصرت في المعارك، فانها خرجت من الحرب مرهقة ماليا، وتكبدت خسائر جسيمة في الارواح[١]. ولذلك تمكنت روسيا من الحصول على شروط صلح مقبولة نسبياً لدولة خسرت الحرب، ولكن بعد ان تزعزع النظام القيصري من أساسه، فقد أظهر اندحار روسيا في هذه الحرب سوء التنظيم العسكري، وفساد النظام السياسي في روسيا القيصرية[٢] وزاد في حالة جماهير الشعب سوءا، وفي سخطها شدة. وهكذا أدت «الحرب القصيرة المظفرة» التي اقترحها «بليفه» حلا لمشاكل روسيا الداخلية إلى عكس النتائج المطلوبة تماما: فهي لم تكن قصيرة (دامت سنة ونصف تقريبا)، ولا مظفرة. ولم يكن من شأنها توحيد صفوف الشعب، بل زيادة نقمته على الحكومة بسبب إرسالها أبناءه إلى منشوريا البعيدة، لكي يقتلوا هناك لاسباب لا يفهمها. وظهرت خلال الحرب حركات المقاومة ضد الحكومة في بعض أقاليم الامبراطورية، وخاصة في بولونيا، اعتراضا على التجنيد، أعقبتها انتفاضات الفلاحين التي أخذت تتكرر في فترات متقاربة، وإضرابات العمال التي اتسع نطاقها، حتى انتهت أخيرا بثورة ١٩٠٥ التي مهدت السبيل بدورها لثورة اكتوبر سنة ١٩١٧، وانهيار النظام القيصري.

كان لانتصار اليابان، وهي الدولة الشرقية النامية ـــ على دولة اوربية كبرى وقع عظيم على الرأي العام العالمي، ورنّة خاصة في بلاد الشرق، بما فيها البلاد العربية التي اتجهت أنظار شعوبها إلى اليابان بشعور مزدوج من العجب والاعجاب. فقد وجدت هذه الشعوب انها تستطيع ـــ بل يجب ـــ ان تتخذ اليابان قدوة لها في نهضاتها وفي كفاحها ضد التغلغل الاوربي والسيطرة الاجنبية، وان الشعوب الشرقية المضطهدة، المغلوبة على أمرها، إذا

وجدت صفوفها، وأصلحت أمورها، وتسلحت بالعلم، فليس ثمّ ما يحول دون ان تقوى وتزدهر، فتحيي حضاراتها القديمة وأمجادها الغابرة.

نالت هذه الحرب عناية خاصة من أدباء العراق ومصر والشام الذين عاصروها، وبعثت فيهم أحداثها ونتائجها كثيراً من الخواطر والعواطف الشعرية، وأوحت إليهم بقصائد ومقالات كثيرة لم تنل ما تستحقه من عناية الباحثين الذين أرّخوا للأدب العربي في تلك الفترة(٣).

وكانت عواطف اولئك الكتاب والشعراء نحو الأمتين المتحاربتين، وتأييدهم إحداهما على الأخرى، تخضع لاعتبارات سياسية وعاطفية ودينية. وكانت أقوى هذه الاعتبارات هي «النعرة الشرقية» التي جعلت معظم الأحرار في البلاد العربية يقفون إلى جانب اليابان لانها دولة شرقية، ويعدون انتصارها انتصارا للشرق، ودليلا على يقظة شعوبه. وقد ظهر هذا الاتجاه في قصائد عدد من الشعراء المصريين، أبرزهم حافظ إبراهيم.

ان الشعور بالرابطة الشرقية كان قويا في نفس حافظ إبراهيم، فظهر أثر ذلك واضحا في شعره، وان لم يضعف من شعوره القومي والاسلامي. وقد شهد النصف الاخير من القرن التاسع عشر عوامل واتجاهات سياسية، كان من شأنها ان تبعث مثل هذا الاتجاه، ومن أهمها السياسة الاستعمارية التي سارت عليها الدول الاوروبية الكبرى وروح التسلط التي سادتها. وكان حافظ إبراهيم يظهر في كل مناسبة اعتزازه بالرابطة بين البلاد الشرقية من أقصاها إلى أقصاها، وكان شعره يجري بذكر الصين واليابان وغيرهما من بلاد الشرق، مستجيبا لاحداثها، ناعيا عليها تأخرها، متمنيا ان يرى الشرق وقد نفض عنه رداء التأخر، مهيبا به ان يعمل على استرداد عظمته ومجده(٤):

يا ليتني لم أعاجل بالموت قبل الأوان
حتى أرى الشرق يسمو رغم اعتداء الزمان



ويسترد جلالا له ورفعة شان

ولذلك كان طبيعيا ان تستجيب نفس حافظ إستجابة صادقة لاحداث اليابان، وان يخص حربها مع روسيا — الدولة الاوروبية والامبراطورية التوسعية — بأكثر من قصيدة وهو في أوج شهرته ومكانته الأدبية.

ومما قاله حافظ في ذلك قصيدة، عنوانها «الحرب»، يصف فيها الحرب الروسية — اليابانية وأهوالها، ومطلعها:

أساحة للحرب أم محشر
ومورد الموت أم الكوثر؟

وقد نشرت هذه القصيدة في «المقتطف» في ١٩٠٤، بينما كانت الحرب لا تزال على أشدها، ونتيجتها مجهولة، وان كان يستدل من بعض أبياتها ان حافظا كان أميل إلى الظن بأن روسيا هي التي ستخرج منتصرة في النهاية، وفيها يقول:

أمسى «كروباتكين» في غمرة
وبات «أوياما» له ينظر
وظلت الروس على جمرة
والمجد يدعوهم: ألا فاصبروا

ومن غرائب الصدف ان يصدر عدد «المقتطف» الذي نشرت فيه هذه القصيدة قبل سقوط «بورت آرثر» بيوم واحد(٥):

ان حافظ إبراهيم وان كان يشجب فكرة الحرب، فانه رأى في وقوف اليابان في وجه روسيا، ودفاعها عن حقوقها وكرامتها الوطنية بشجاعة، مفخرة للشرق، وإعلاء لمكانة الأمم الشرقية في العالم، فيقول:

تسوؤنا الحرب وان أصبحت
تدعو رجال الشرق ان يفخروا
أتى على الشرق حين إذا
ما ذكر الأحياء لا يذكر
حتى أعاد الصفر أيامه
فانتصف الأسود والأحمر

والاشارة إلى «الصفر» واضحة تدل على الجنس الياباني الأصفر الذي انتصف للشعوب المضطهدة، مهما كان لونها، وسواء أكانت من شعوب إفريقيا أم هنود أميركا.

على ان أشهر قصائد حافظ إبراهيم في الحرب الروسية ــ اليابانية هي قصيدته «فتاة اليابان»، ومطلعها:

لا تلم كفي إذا السيف نبا
صح مني العزم والدهر أبى

ويشيد حافظ في هذه القصيدة بوطنية المرأة اليابانية خلال الحرب، ويقول فيها مادحا امبراطور اليابان «الميكادو» ووطنيته على لسان فتاة يابانية:

هكذا الميكاد قد علمنا
أن نرى الاوطان أما وأبا
ملك يكفيه منه أنه
أنهض الشرق، فهز المغربا

وقد نالت هذه القصيدة شهرة واسعة في البلاد العربية، وأصبحت من محفوظات طلاب المدارس، لما تبعثه في نفوس الناشئة من روح وطنية عالية، بالاضافة إلى قيمتها الأدبية، وما يتجلى فيها من أسلوب حافظ السلس، وديباجته الناصعة.

وفي شعر حافظ إشارات متفرقة أخرى إلى اليابان ونهضتها كمثال يجب ان تحذو الأمم الشرقية حذوه في الاتحاد ومحاربة الجهل، منها قوله يخاطب أمته في قصيدة عنوانها «الانقسام آفة الشعب»:

فانفضوا النوم وجدّوا للعلى
فالعلى وقف على من لم ينم
وانظروا اليابان في الشرق وقد
ركزت اعلامها فوق الأمم
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا
في دجى عميائه، حتى انهزم

ومما يدل على قوة النعرة الشرقية التي أملت هذا الموقف على شعراء مصر في وقوفهم إلى جانب اليابان، هو ان اليابان في فترة حربها مع روسيا كانت حليفة لبريطانيا، وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية غير المباشرة لبريطانيا، وتقوية لموقفها الدولي. وكان حافظ وزملاؤه ــ كمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب ــ من محاربي النفوذ البريطاني في مصر. ولكن ذلك لم يمنعهم من إظهار عواطفهم الشرقية، وإبداء عطفهم على اليابان، بل وتحمسهم لها، برغم الصداقة التي تربطها بمحتلي بلادهم. فقد تغلبت تلك العواطف على شعورهم الاقليمي، لانهم وجدوا ان نهضة أمم الشرق وتقويتها كفيلتان بتخليصها من الاستعمار الأجنبي.

أما الاعتبار الثاني في تحديد مواقف الأدباء العرب من الجانبين المتحاربين، فهو موقفهم من «الدولة العثمانية» وعلاقتهم بها وشعورهم نحوها. فقد كان العراق وسوريا ولبنان في أيام تلك الحرب جزءا من الدولة العثمانية. أما مصر، فكانت تربطها بها رابطة إسمية واهية. وكان النضال الوطني في مصر متجها إلى مقاومة الاحتلال البريطاني، ولذلك كان شعراؤها يعطفون على الدولة العثمانية بدافع الشعور الديني، وبوصفها عاصمة الخلافة الاسلامية. وكانت اليابان تحارب روسيا، وهي عدوة تركيا التاريخية، ولذلك كان للشعور الاسلامي أثره في موقف الشعراء المصريين وعطفهم على اليابان.

أما في العراق والشام، فان النضال الوطني كان يتمثل في استقلال هذه البلاد عن السلطة العثمانية، ومع ذلك فان الشعراء ــ حتى الناقمين منهم على تلك السلطة ــ لم يؤيدوا روسيا عدوة تركيا - وإنما غلب عليهم شعورهم الشرقي، فانحازوا إلى اليابان أيضا، كما فعل الرصافي في قصيدته «معركة تسوشيما» التي أغرق فيها الأسطول الياباني، بقيادة طوغو الأسطول الروسي القادم من بحر البلطيق،

معروف الرصافي

إذ قال:

سعروها في البحر حربا ضروسا
تأكل المال نارها والنفوسا
يوم طوغو دهى بأسطوله الـ
روس قتالا، وكان يوما عبوسا
فحداها بوارجا تملأ البحر وقـ
ـارا طورا وطورا بوسا
فكسوهم من الهوان لبوسا
وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناء المعالي
هكذا أحسنوا لها التأسيسا

ونلمس مثل هذا الاتجاه في شاعر آخر من خصوم الدولة العثمانية، وهو فؤاد الخطيب، اللبناني الأصل، الذي التحق فيما بعد بالملك حسين في ثورته على الدولة العثمانية، ومدحه بقصائد كثيرة، وترأس تحرير جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في مكة، ناطقة بلسانه خلال الثورة، وبعدها. ففي الجزء الأول من ديوانه قصيدة، عنوانها «العجوز اليابانية» يعارض فيها قصيدة صديقه حافظ «فتاة اليابان»، ويشيد أيضا بوطنية الأم اليابانية. وفيها يروي حادثة وقعت لأرملة يابانية عجوز، دفعت بابنها إلى الجيش أيام الحرب الروسية اليابانية، ولكن السلطات رفضته لانه كان معيلها الوحيد، فما كان منها إلا ان قتلت نفسها لكي يسوغ تجنيده. وفيها يقول على لسان العجوز اليابانية:

لا تقولوا بلغ السيل الزبى
نحن مزقنا العدى أيدي سبا
بعثتنا غيرة شرقية
كاد منها الغرب ان يلتهبا
مادت الدنيا لها من دهشة
واضطرابا رقصت، لا طربا
أدبتنا الحرب فيما قد مضى
بخطوب حار فيها الخطبا

وفيها يقول أيضا:

نحن سيف قاطع لكنه
مغمد يحسبه الأعمى نبا
ان نكن صفرا فماذا ضرنا
هل يعيب الاصفرار الذهبا[٦]؟

وللشاعر اللبناني أمين ناصر الدين في الحرب الروسية ـ اليابانية قصيدة، عنوانها «الياباني ومعشوقته»، تشيد بشجاعة اليابانيين ووطنيتهم وانتصارهم الباهر، ومنها قوله على لسان المحارب الياباني في اسقاط «بورت آرثر»:

هجمنا على ميناء آرثور هجمة
ترد ابن عام وهو بالخوف أشيب
ببيض يلوح النصر أيان جردت
وسمر لها بين القلوب تقلب
وكنا إذا انهل الرصاص كأننا
من الغيد بالتفاح نرمي فنطرب
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها
مهدمة قد حل منها المركب
وقائعنا في البر كانت عجيبة
ولكنها في لجة البحر اعجب

وهنا يصف معركة «تسوشيما» وانتصار «طوغو» ويشير إلى ما ساد الشرق من سرور بانتصار اليابان، وما أصاب الغرب من خيبة وأسى:

ورجعت الأقطار صوت انتصارنا
ففي الشرق هزاج وفي الغرب ندب[٧]

ومن الطريف، ان من أبرز السوريين الذين اهتموا بموضوع هذه الحرب، هو السياسي السوري المعروف المرحوم فارس الخوري، الذي كان في طليعة زعماء الحركة القومية العربية منذ فجر شبابه. فقد كان إلى جانب نشاطه السياسي ونضاله الوطني، يعنى بالأدب وينظم الشعر، ولذلك انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق منذ تأسيسه. وقد أوحت إليه أحداث الحرب الروسية ـ اليابانية بأربع قصائد طويلة



فارس الخوري

نشرت في صحف دمشق، ثم جمعت في كتاب نشر في مصر في ١٩٠٦ بعنوان «وقائع الحرب».

تصف القصيدة الأولى إعلان الحرب، والمعركة البرية الأولى بين الروس واليابان، وغيرها من الوقائع حتى «موكدن»، ومنها قوله في غرق الأميرال «مكاروف» وأثره في معنويات الروس:

على مكروف قد بكت البواكي
وأطلقت المدامع والشعورا
بمصرعه عزوم الروس خارت
وحق لها بذلك ان تخورا
رجاء القوم معقود عليه
ليدفع عنهم الخطب العسيرا
فكان بهديه قمرا مضيئا
وكان بكره أسدا مزيرا

أما القصيدة الثانية، فهي في وصف معركة «موكدن» وفيها يقول:

ودارت للمنون رحى طحون
لها الاجساد قد صارت طحينا
وطبّق كل ناحية دخان
كثيف، أسود، يعمي العيونا
فليس بمبصر أحد أخاه
ولا هو سامع منه الانينا

وتتناول القصيدة الثالثة وصف وقائع اسطول البلطيق الذي أغرق في مضيق «تسوشيما»، ثم عقد الصلح، منها وصفه الأميرال الياباني طوغو:

حول تمرس بالصعاب محنك
بطل شديد في الحروب مجرب
بمضيق سوشيما تخير مجثما
حتى إذا أزف القضا يتوثب
كالليث يأتيه القضاء برزقه
وهو المقيم بأرضه يترقب

أما القصيدة الرابعة، فهي في مولد ولي عهد روسيا الذي ابتهل له القيصر «نيقولا الثاني» ابتهالا عظيما، وان لم يقدّر له اعتلاء العرش، بسبب انهيار النظام القيصري. وكان «نيقولا الثاني» متزوجا من أميرة ألمانية ولدت له ثلاث بنات متتاليات، حتى أصابه اليأس والألم، وحسب انه لن يرزق وريثا ذكرا لعرشه، فلما وضعت مولودها الرابع، كان ذكرا — وقد جاءت ولادته خلال الحرب الروسية اليابانية — فابتهل القيصر لذلك ابتهالا، وامر باقامة معالم الزينة واطلاق المدافع ابتهاجا بولادة ولي العهد، غير عابىء بأهوال الحرب التي تجتازها البلاد، ولا بدموع الشعب على أبنائهم الذين تحصدهم الحرب. وقال فارس الخوري مخاطبا المولود الجديد:

يا أيها الطفل الموسد هل ترى
كيف استفز أباك هذا المولد
لما ظهرت انجاب أفق داكن
بحياته، وأبيض يوم أسود
قد جئته والحرب فاغرة فما
تجتاح مضرب جنده وتبدد
أجمدت عبرته على قتلى الوغى
ولفاقديهم عبرة لا تجمد
برّدت حسرته فانبرت صعقاتها
باذاعة البشرى تعج وترقد
هل ذكّرته ان في منشوريا
نار المدافع للكتائب تحصد

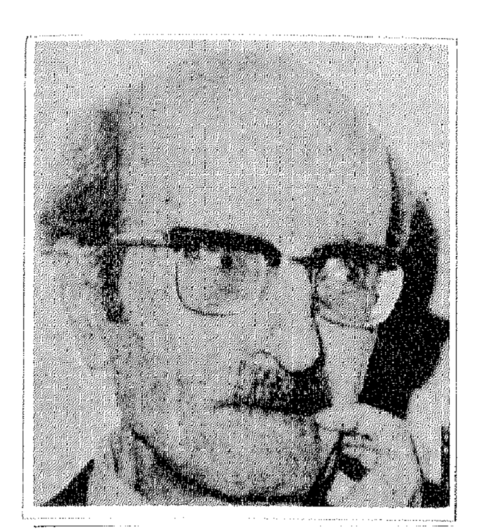
ان هذه القصيدة الأخيرة هي أبعد أخواتها مغزى، وأحفلها بالمعاني الانسانية، وهي تدل على مدى تحسس فارس الخوري لأهوال الحرب ومآسيها، وتحمل معنى اللوم للقيصر على مبالغته في اظهار السرور والابتهاج في مناسبة شخصية، في وقت يعاني فيه شعبه من نكبات الحرب التي يتساقط فيها مئات القتلى من ابنائه يوميا.

ولا شك ان اهتمام شاعر وطني، وسياسي قومي كفارس الخوري بأحداث هذه الحرب، يدل على الصدى القومي الذي أحدثته في البلاد العربية، كما انه يدل على ان تلك الحرب وعبرها، والوطنية التي أظهرها اليابانيون الشرقيون فيها، قد زودت العرب بحقائق وتجارب وأمثلة في الوطنية، وجدوا انهم يستطيعون الافادة منها في نضالهم لتحرير بلادهم، وفي الثورة التي كانوا يستعدون لها.

«ولو أردنا تعداد القصائد والمقالات التي أثارتها هذه الحرب أو ذكرياتها»، كما يقول أنيس المقدسي، «لضاقت بنا الصفحات الكثيرة. وليس غرضنا من الاشارة إليها وضرب الأمثلة عليها، إلا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الأيام، أو تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار، وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت أوجها في حرب ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق، فظهر ذلك في أدبهم المنظوم والمنثور، وكان من الأسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني، فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية»(٨).

وهنالك اتجاه آخر في موقف بعض الأدباء العرب من الحرب الروسية ـ اليابانية ظهر بصورة خاصة بين أدباء لبنان والمهجر، واتسم بالعطف على روسيا، والتحمس لها في نزاعها مع اليابان، والخيبة والأسف لاندحارها.

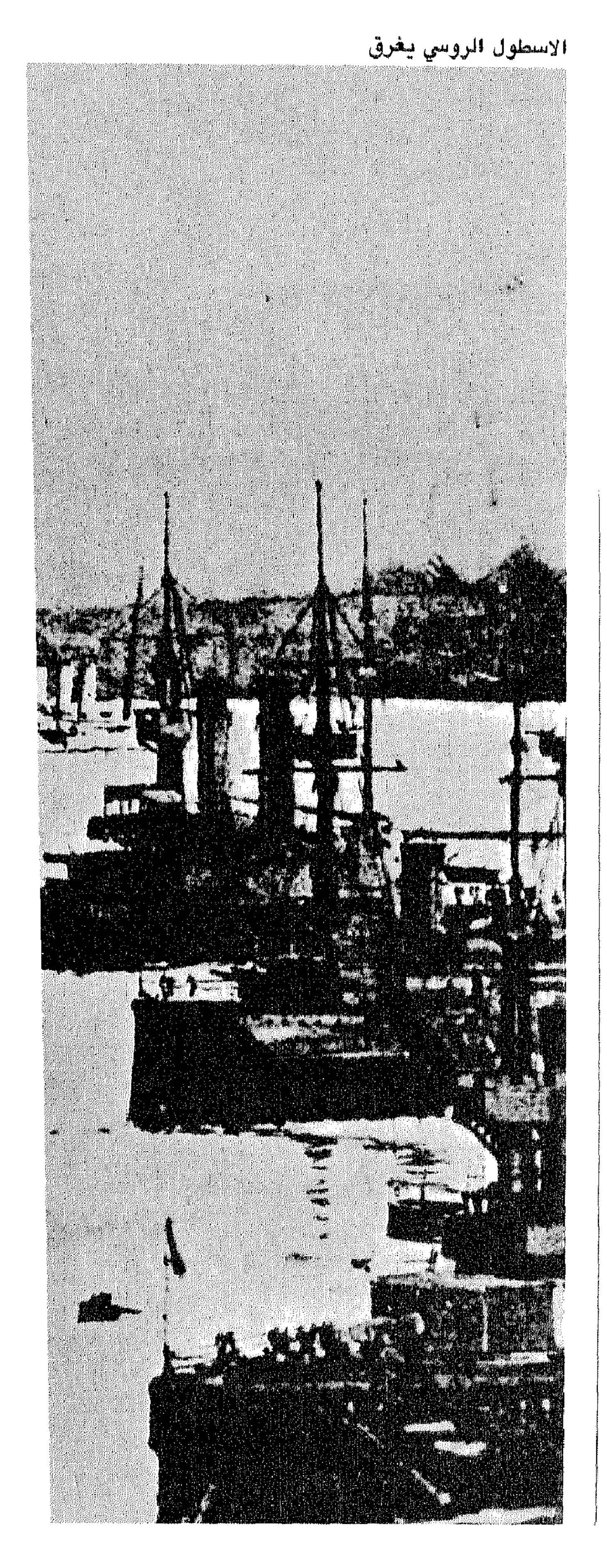
ومن المعروف ان «بلاد الشام» في العهد العثماني كانت تحت النفوذ الفرنسي من الناحية الثقافية، وأن فرنسا لم تخف ادعاءها بما كانت تسميه حقوقها في سوريا، فكانت تمد الارساليات الدينية بالمال، وتعمل على اعطاء الناشئة نوعا من التعليم هو جيد في حد ذاته، ولكنه يستهدف صب أفكار النشء في قالب فرنسي، وتوجيه أذهانهم وولائهم الفكري نحو فرنسا. ولكن روسيا كانت ترمي إلى الغاية نفسها، وتنافس فرنسا في ذلك منافسة شديدة(٩). وربما كان لبنان وفلسطين في ذلك العهد أوثق البلاد العربية صلة بروسيا بسبب انتماء نسبة كبيرة من المسيحيين فيهما إلى الكنيسة الارثوذكسية. وكانت روسيا القيصرية



ميخائيل نعيمة

تعد نفسها حامية للارثوذكس ـ بصفتها أكبر دولة ارثوذكسية ـ وقد أظهرت حمايتها هذه بوسائل عديدة منها الارساليات الدينية، والمدارس التابعة لها، ومنها تشجيع التجارة. وكانت تهتم بوجه خاص بالقدس، وبالأراضي المقدسة في فلسطين، وقد أسست لهذه الغاية «جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية» برعاية القيصر، وكان رئيسها العامل الغراندوق «سرجيوس» عم القيصر، ففتحت هذه الجمعية كثيرا من المدارس في فلسطين ثم في سوريا ولبنان(١٠)، كما أسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات في «الناصرة» وفي «بيت جالا» لسد حاجة مدارسها منهم، لان التدريس فيها كان باللغة العربية، مما لا يمكن معه استقدام المعلمين لها من روسيا. وقد بزت روسيا منافساتها، بأن مدارسها كانت مجانية، وبأنها كانت تنسق برامجها على أحدث الأساليب التربوية(١١). وكان من الطبيعي ان تبعث المدارس الروسية في نفوس طلابها شعورا خاصا نحو روسيا، قوامه المحبة والاعجاب. ويصف ميخائيل نعيمة الذي تعلم في احدى مدارس الارساليات الروسية في لبنان وفلسطين هذا الشعور في مذكراته قائلا: «لقد أخذتنا نشوة من الاعتزاز بمدرستنا الجديدة، إذ كنا نشعر ان من ورائها دولة عظيمة تهابها الدول. وها هي صورة القيصر نقولا الثاني وصورة القيصرة ألكسندرا في اطارين مذهبين تزينان صدر البهو الكبير»(١٢).

الاسطول الروسي يغرق



وكان الروم الارثوذكس يحبون الروس حبا يقرب من العبادة[١٣]، وينظرون إلى روسيا كحامية لهم، وكضمان تجاه الدولة العثمانية التي يؤلفون فيها أقلية دينية لا تتمتع بحقوق كاملة[١٤]. ويصف ميخائيل نعيمة مشاعرهم نحو روسيا أو «بلاد المسكوب»، كما كانوا يسمونها، فيقول: «... وكل ما عرفناه ان (المسكوب) قوم أشداء وكرماء، يحكمهم قيصر، تهتز لكلمته جميع ملوك الأرض، وانهم يقطنون بلادا شاسعة وباردة في الشمال، وانهم (روم) مثلنا. ولذلك يعطفون علينا، ويحرصون على الدفاع عنا وعن (ديننا) الذي هو الدين الصحيح...»[١٥].

ولما نشبت الحرب الروسية ــ اليابانية، كان ميخائيل نعيمة قد انتقل إلى مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة، وهو يتحدث عن موقف طلابها من روسيا خلال تلك الحرب، ومدى اهتمامهم بأخبارها قائلا: «نشبت الحرب الروسية ــ اليابانية ابان دراستي في الناصرة. واني لأذكر بأي لهفة كنا نتسقط أخبارها على قلة الوسائل في ذلك الزمان لنقل الأخبار. فالراديو كان لا يزال في ضمير الغيب. والصحيفة الوحيدة التي كانت تأتينا بعد أسبوع أو أكثر من صدورها في بيروت البعيدة. والصحف بالروسية كانت تصلنا بعد شهرين من تاريخ صدورها. وعندما بلغنا خبر الفاجعة التي حلت بالأميرال (مكاروف) ودراعته (بتروفا فلوفسك) في ميناء فلاديفوستوك، كان له وقع الصاعقة في نفوسنا. وكان في الناصرة شيخ أمي، طاعن في السن، يتعشق روسيا وذكرها حتى الجنون. وكان في كل يوم يأتي إلى المدرسة ليقف من التلاميذ على آخر أنباء الحرب...»[١٦].

ولم يكن نظام عبد الحميد الصارم، والرقابة المشددة على الصحف العربية، ليسمحا للكتّاب العرب وشعرائهم بالتعبير عن مشاعرهم في صحافة بلادهم. وقد أدت الرقابة المستمرة، وسياسة الارهاب والتجسس إلى لجوء كثير من المفكرين والكتّاب إلى الهجرة.

ولذلك كانت صحف المهجر في بعض الحالات أكثر تعبيرا عن المشاعر والاتجاهات السائدة في

البلاد العربية.

وكانت قد تكونت في أميركا الشمالية والجنوبية في ذلك الوقت جالية عربية كبيرة، يؤلف السوريون واللبنانيون أغلبيتها الساحقة، وكان بينهم عدد من الشعراء والكتاب والصحفيين الذين وجدوا في تلك البلاد مجالا للتعبير عن مشاعرهم ومشاعر ابناء وطنهم بحرية.

أما فيما يتعلق بصدى الحرب الروسية ـ اليابانية، فأننا لا نجد في انتاج أدباء المهجر وشعرائه انعكاسات عرضية، كالتي في شعر حافظ إبراهيم ومعروف الرصافي مثلا، بل تيارا معينا سيطر على اتجاه عدد منهم. وأبرزهم في هذا الاتجاه الشاعر «أسعد رستم»(١٧).

وفي ديوان رستم ثماني قصائد عن الحرب الروسية ـ اليابانية(١٨)، تدل جميعا على اهتمام خاص بروسيا وأحداثها، وهو اهتمام غريب، لا يمكن تفسيره بسهولة. فأسعد رستم لم يكن ارثوذكسيا ـ بل ان والده كان شيخ الكنيسة الانجيلية في بعلبك ـ كما انه لم يدرس في مدارس الارساليات الروسية، ولا تربطه بروسيا صلة خاصة ولم يسافر إليها قط(١٩). ومع ذلك، فهو يظهر عطفا شديدا على روسيا، وانتصارا قويا لها، ويشيد برعايتها لسوريا، فيقول مثلا:

يسوؤنا حزن روسيا وتفرحنا
أفراحها، فهي فخر العالم البشري
وهي التي شملت أنظارها الوطن الـ
سوري، فليشملنها الله بالنظر

وكذلك يعرب أسعد رستم، في غير موضع، عن أمله بأن تخرج روسيا من حربها مع اليابان ظافرة، وأن تقهر اليابان التي يصفها بصورة تنم عن الاحتقار بالدولة الصفراء، فيقول، مخاطبا الجنرال كروباتكين الروسي:

ألا أرح الدنيا من الدولة الصفرا
وضع بيراع النصر موضعها صفرا
وحكّم سيوفا في رقاب رجالها
وغادر أراضيهم لهم بلقعا قفرا
وعد يا كروباتكين من الشرق ظافرا
ومن أمم اليابان خذ ما تشا أسرى

وفي قصائد رستم أيضا عطف خاص على القيصر نيقولاي الثاني، وتغن بمحامده، فهو يصوره بصورة الملك الذي «حنو على الشعب، ويتمتع بمحبته، ويشير اشارة صريحة إلى انه لم يكن راغبا في إقحام روسيا في هذه الحرب. وإذا تذكرنا ان وزير الداخلية «بليفه» اقترح «حربا قصيرة مظفرة» بقصد توحيد صفوف الشعب الروسي وصد موجة الثورة ضد النظام القيصري، أمكننا استقصاء الاساس الذي يستند إليه رستم في ذلك، فهو يقول:

واليوم جيش الروس في منشوريا
والخصم أمسى واقفا بازائه
والعسكر الروسي عد محبة الاوطا
ن دينا فانبرى لوفائه
والكل فارق أهله وصحابه
ليكون يوم الحرب من شهدائه
والقيصر المحبوب تدمع عينه
فالحرب لم تك قط من آرائه
يبكي على فقد السلام موجها
في حربه لوما إلى وزرائه

وفي قصيدته المعنونة «إلى جلالة قيصر روسيا» يهنىء الشاعر نيقولاي بمولوده، ولكنه لا ينسى الاشارة إلى قتلى الحرب أيضا ـ وان كانت الاشارة بلهجة أخف من لهجة فارس الخوري ـ فيقول، ان الله منّ عليه بمولود ذكر ليعرف قدر الذكور، ويشعر بشعور الآباء الذين تحصد الحرب أبناءهم، فيقول:

ما بين طعن القنا والصارم الذكر
عليكم أنعم الرحمن بالذكر
قد استجاب الدعاء والحرب دائرة
وفي استجابته معنى لمفتكر
أراد ان تعرفوا قدر الذكور وكم
يجود آباؤهم بالدمع والسهر

وفي قصيدة أخرى عنوانها «بورت آرثر أثناء حرب الروس واليابان»، يصف حصار حصن «بورت آرثر»، واستبسال القوات الروسية بقيادة الجنرال «ستوسل» في الدفاع عنها ومطلعها:

في بورت آرثر تخفق الرايات
وتشن فيها للردى غارات

وفيها يقول:

وهناك في احدى الحصون «ستوسل»
كالليث منه ترعد الزفرات
سالوه تسليما لهم فأجابهم
أنسى، وفي أجسادنا نسمات

الاسطول الياباني قبل هجومه.

ولم يكتم أسعد رستم خيبته الكبرى لاندحار روسيا وهزائمها، ويقول بأسلوب من فكاهة مريرة، لعل الله ضجر من كثرة سماعه دعاءه للروس بالنصر، فأراد معاقبته بدحرهم:

وشربنا أسرارنا وسألنا الـ
ـله نصرا للروس في الهيجاء
إنما كلما طلبنا لروسيـ
ـا انتصارا تقهقرت للوراء
قد دعونا للروس بالفوز حتى
ضجر الله من سماع الدعاء
وانتقاما منا أبى الله ان ينـ
ـصرهم في الوغى على الأعداء

وثمة شاعر مهجري آخر في أميركا الشمالية، أشار إليه كراتشكوفسكي، وهو سليمان داود سلامة اللبناني، وقد نشر في جريدة «الهدى» التي كانت تصدر في نيويورك قصائد عديدة عن الحرب الروسية ـ اليابانية، ثم جمعها في ديوانه الذي نشر في ١٩٠٥، وبينها قصائد تنم عناوينها عن مضامينها: «روسيا واليابان» و «الحرب الروسية ـ اليابانية» و «بورت آرثر» الخ(٢٠)...

أما شعراء المهجر في أميركا الجنوبية، فكان أكثرهم اهتماما بهذه الحرب «قيصر إبراهيم المعلوف»(٢١). وفي ديوانه قصائد عناوينها «مؤتمر لاهاي» و «بورت آرثر» وما أشبه.

ولم يقتصر صدى الحرب الروسية في الأدب العربي على الشعر وحده، ولكن ذلك الصدى في الشعر كان أقوى منه في النثر. وربما كان سبب ذلك ان الاشكال الفنية التي تصلح لتصوير مثل ذلك الحدث تصويرا فنيا، كالقصة والرواية والمسرحية لم تكن قد تبلورت في الأدب العربي في تلك الفترة، فلم تظهر سوى محاولات محدودة في عددها، تافهة في قيمتها الأدبية، أهمها رواية وضعها «يعقوب صروف»، صاحب المقتطف، عنوانها «فتاة مصر» نشرت في المقتطف، ثم أعيد طبعها أربع مرات، آخرها في ١٩٢٣.

والرواية عن فتى انكليزي وأخته أوفدا إلى اليابان قبيل حربها مع روسيا، مراسلين لجريدة انكليزية يصدرها أبوهما. ويتوقف الفتى وأخته في مصر. وفي طريقهما إلى اليابان، يتعقبهما

جاسوس ياباني تلقي الشرطة اليابانية القبض عليه فيما بعد. وعند عودتهما تغرق سفينتهما قرب احدى الجزر، ولكنهما ينجوان بأعجوبة، ويعودان إلى مصر ثانية. وتجري معظم حوادث هـذه الرواية في مصر، وبعضها في إنكلترا واليابان ـ خلال الحرب ـ وأقل من ذلك في روسيا[٢٢].

ومما كتب بوحي من تلك الحرب أيضا مسرحية وضعها وهبي تادرس بعنوان «بطرس والكسي». وقد نشرت هذه المسرحية في القاهرة في ١٩٠٥، ومثلت على بعض المسارح المدرسية، ولكنها لم تكن مستوفية الشروط الفنية، بل كانت من قبيل المسرحيات التي يكتبها المدرسون، بأسلوب خطابي، ليمثلها طلابهم في الحفلات المدرسية.

وهناك رواية أخرى نشرت في المهجر بعنوان «بورت آرثر» من تأليف أسعد منصور صدرت عن دار «مرآة الغرب» في ١٩٠٦، والشخصية الرئيسية في هذه الرواية ضابط روسي اسمه «إيفان» وهو كولونيل في القوة البحرية. يقابل «إيفان» خطيبته في موسكو، ثم يرسل إلى «بورت آرثر». وتتناول الرواية بعد ذلك عرضا مفصلا لاحداث «بورت آرثر»، وتنتهي بوصف مختصر لعودة بطل الرواية إلى موسكو بطريق «اوديسا».

وفي الرواية مشاعر وطنية تشابه بعض المشاعر الساذجة التي تظهر في شعر المهجر. ويتضمن الكتاب تصويرا لعدد من الشخصيات العسكرية الروسية واليابانية.

أما في ميدان الصحافة، فقد كان اهتمام الصحف العربية بأحداث هذه الحرب طبيعيا، لانها كانت أهم أحداث الساعة في العالم. وكانت الصحف اليومية والمجلات الدورية الصادرة ابان الحرب طافحة بأخبارها. وفي أعداد «الهلال» و «المقتطف» الصادرة في تلك الفترة مقالات كثيرة عن روسيا واليابان، والحرب الدائرة بينهما، تتضمن تحليلا لاسبابها، ووصفا لمعاركها، وتنبؤات عن مستقبلها. ولكن هـذه المقالات، بالرغم من مستواها الجيد في بعض الحالات، لا تعد نثرا فنيا، ولا أدبا سياسيا، ولا تخرج عن حيز الكتابات السياسية التي تفقد قيمتها بزوال المناسبة التي كتبت فيها. أما اتجاه تلك المقالات، ونظرتها إلى الحرب، فكان متشابها، إذ انها كانت متفقة جميعا، في بداية الحرب، على ان النصر سيكون لروسيا. فكتبت «الهلال» مثلا في عددها الصادر في شهر مارس ١٩٠٤، تقول: «.. والحرب الحاضرة: إما ان يفوز بها الروس قريبا فتمهد لهم السيطرة على الصين، أو ان يفوز بها اليابانيون، فيكون ذلك التمهيد لهم. ولكن العارفين لا يقدّرون الفوز إلا مؤقتا، ولا بد أخيرا من فوز الروس»[٢٣].

كما ان تلك الصحف كانت تنظر إلى الحرب الروسية ـ اليابانية على انها صراع بين الشرق والغرب، وترى في اليابان رمزا للشرق، وفي انتصارها انتصارا للشرق على الغرب. كما انها كانت تأمل في ان يؤدي انتصار اليابان ـ في حالة تحققه ـ إلى ان «يستريح أهالي الشرق الاقصى من غطرسة الغربيين نوعا، ويحسن الأوربيون معاملتهم ومجاملتهم بما لم يسبق لهم مثله إلى هذا التاريخ[٢٤].

ونشرت «المقتطف» خلال الشهور الأولى من الحرب مقالا افتتاحيا، في ثماني صفحات بعنوان «الحرب بين الروس واليابان» جاء فيه: «ان للحرب الحاضرة أكبر شأن في مصالح البشر، وعليها سيكون مدار المناظرة القديمة بين الشرق والغرب. فان فازت روسيا، وسحقت دولة اليابان، بقي الفوز للغرب على الشرق قرونا كثيرة. وان فازت اليابان، ولم تعارضها في إنهاض بلاد الصين، فلا يستبعد ان يعود الفوز للشرق في بلاد المشرق في القريب العاجل»[٢٥].

والخلاصة ان الحرب الروسية ـ اليابانية كان لها صدى كبير في الأدب العربي الحديث الذي أنتج خلالها. وقد استمر هذا الصدى يتردد حوالي عشرين سنة بعد ان وضعت اوزارها. ويعود السبب إلى ان تلك الحرب كانت أهم الأحداث الدولية في ذلك الوقت، ولم يكن العالم قد شهد حربا في نطاقها الواسع منذ مدة طويلة. كما انها كانت أول حرب تقف فيها دولة شرقية في وجه احدى الدول الاوروبية الكبرى، ثم تخرج منها منتصرة، مما أثار مشاعر الاعتزاز والفخر بين الشعوب الشرقية. وقد حركت نهضة اليابان عواطف الوطنيين في البلاد العربية، وعرتهم منها هزة وطنية، فأخذوا

يدعون إلى اتخاذ اليابان قدوة في نهضة بلادهم وأمتهم. وكانت مشاعر أكثرية الأدباء تميل إلى اليابان بدافع النعرة الشرقية، وان ظهر بينهم من أبدى العطف على روسيا، وتمنى انتصارها، بسبب الرابطة الدينية.

ان الأدب الذي كتب بوحي من هذه الحرب ــ وخاصة في مجال الشعر ــ قد أغنى الأدب العربي، واضاف إلى الشعر العربي المعاصر لونا انقطع عنه الشعراء العرب منذ مدة طويلة، وهو وصف المعارك والحروب، ولم تظهر العناية بهذا اللون مرة أخرى إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى. ●

الهوامش

(١) قدرت خسائر اليابان بـ (...،١٧٥) قتيل. أما خسائر الروس فكانت حوالي (...،٣٠) جندي.

(٢) تضيف المصادر السوفيتية إلى أسباب انحدار روسية «خيانة عدد من الجنرالات القيصريين وجهلهم في المسائل الحربية»: آ. بريسوف، وآخرون «تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية ــ موجز»، موسكو، دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية، الطبعة العربية. ص ١٩١.

(٣) ان أول باحث أشار إلى هذا الأثر فيما نعلم، هو الاستاذ أنيس المقدسي في دراسة له عن «العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث»، نشرت للمرة الأولى في المقتطف (المجلد ٩٣ و ٩٤) في ١٩٣٩، ثم أعيد طبعها ضمن كتابه «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» بيروت، ١٩٥٢، ص ٢٧ ــ ٣٠. كذلك أشار إليه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في بحثه المعنون «أصداء ثورة ١٩٠٥ في الأدب العربي» والذي نشر باللغة الروسية في مجلة «الاستشراق السوفيتي»، ج ٣، ١٩٤٥، ص ٥ ــ ١٤.

(٤) روفائيل مسيحة «حافظ إبراهيم ــ الشاعر السياسي»، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧، ص ٢٢ ــ ٣٣.

(٥) نشرت القصيدة في العدد الصادر في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤، ج ١٢، م ٢٩، ص ١٠٦٨، وسقطت «بورت آرثر» في الثاني منه.

(٦) ديوان الخطيب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٧٣.

(٧) صدى الخاطر، ١٩١٣، ص ٣٤.

(٨) أنيس الخوري المقدسي، «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث»، بيروت، منشورات الجامعة الاميركية، ١٩٥٢، ص ٣٠.

(٩) جورج انطونيوس، «يقظة العرب»، الطبعة الانكليزية، لندن ١٩٣٨، ص ١٥٣.

(١٠) أسعد خليل داغر، «المدارس الروسية في سورية»، المقتطف: المجلد ٢٦، ج ١٠، القاهرة، اكتوبر ١٩٠١، ص ٩٠٢.

(١١) ساطع الحصري، «محاضرات في نشوء الفكرة القومية»، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٧١.

(١٢) ميخائيل نعيمة، «سبعون»، بيروت، ١٩٥٩، ج ١، ص ٧٦.

(١٣) أسعد خليل داغر، المرجع السابق، ص ٩٠٢.

(١٤) ساطع الحصري، المرجع السابق، ص ١٦١.

(١٥) ميخائيل نعيمة، «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٧) من شعراء المهجر، ومن ضهور الشوير في لبنان. ولد في بعلبك في ١٨٧٥، وهاجر إلى الولايات المتحدة في ١٨٩٢، ونشر في الصحف العربية التي كانت تصدر فيها قصائد جمعها في ديوان عنوانه «ديوان رستم»، طبع في بيروت، المطبعة الادبية ١٩٠٨. ويغلب على شعره الطابع الهزلي الخفيف، وهو ضعيف التركيب وفيه الكثير من التعابير العامية.

(١٨) وفي ديوان رستم قصيدة تاسعة تتعلق بروسيا ايضا، ولكنها ليست عن الحرب الروسية ــ اليابانية، بل عن حادثة قديمة هي معركة برثوب بين روسيا وتركيا في ١٧١٠، وعنوان القصيدة «بطرس الأكبر وزوجته كاترينا والقائد التركي»، ص ٢٦٦.

(١٩) ترجمة أسعد رستم بقلمه، في مقدمة ديوانه، ص ٥ ــ ٧.

(٢٠) أشار إلى هذا الديوان كراتشكوفسكي. المرجع السابق، ص ٩.

(٢١) من شعراء المهجر في البرازيل. ولد في زحلة في ١٩٠٣، وعاد في أخريات أيامه إلى لبنان. وقد جمع شعره في ديوان «تذكار المهاجر»، طبع في سان باولو، مطبعة المناظر، في ١٩٠٤، وقصيدته «عليا وعصام» نالت شهرة خاصة في العراق، وأخرجت في فيلم سينمائي.

(٢٢) نقد تحليلي لهذه الرواية ظهر في «المقتطف»، المجلد ٣١، الجزء السابع، يوليو (تموز)، ١٩٠٦، ص ٥٤٥.

(٢٣) الهلال، السنة ١٢، ج ١١، مارت ١٩٠٤، ص ٣٤٩.

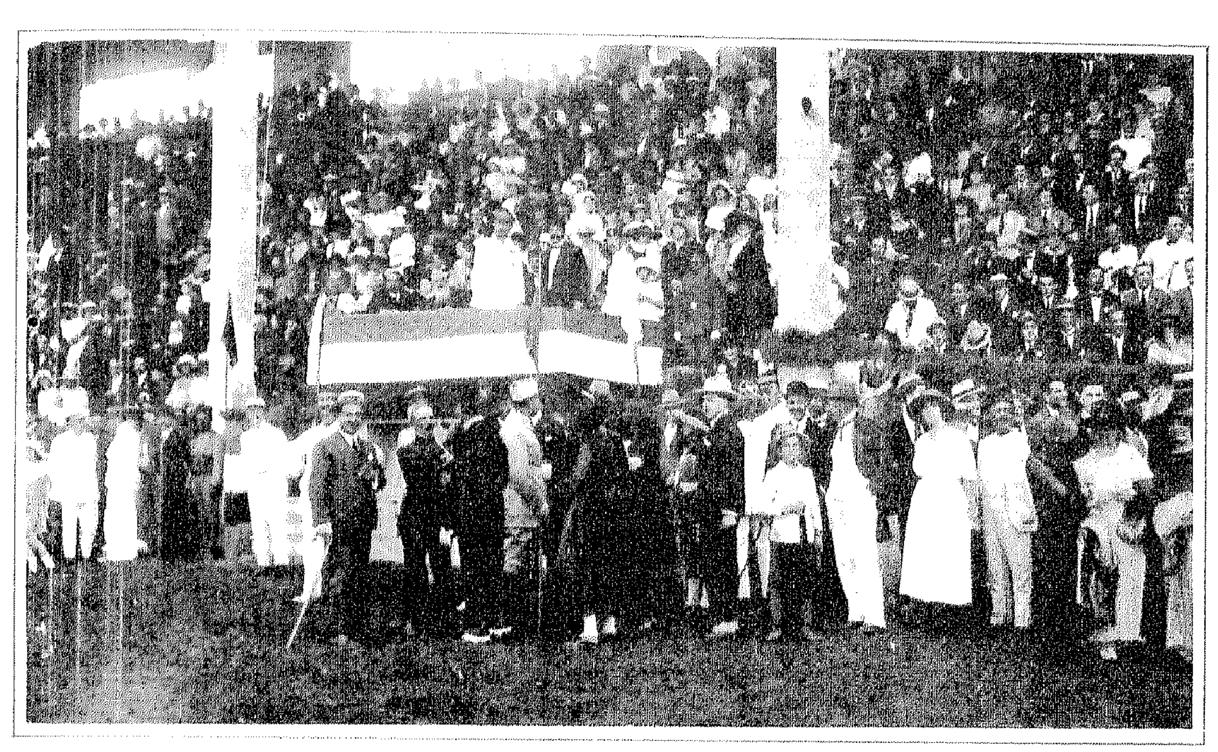
(٢٤) من مقال بتوقيع (م. ع. ج.) «الحرب الحاضرة ونتائجها»، المقتطف، مجلد ٣٠، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥.

(٢٥) «المقتطف»، المجلد ٢٩، ج ٣، مارت ١٩٠٤، ص ١٩٣.

تحليل الاتجاهات السياسية في لبنان

١٩٢٠ - ١٩٥٢

د. حسان حلاق



منصّة الاحتفال بولادة دولة لبنان الكبير (١٩٢٠)

تعتبر الاتجاهات السياسية في لبنان من أعقد الدراسات التاريخية المعاصرة وأصعبها نظراً لتعدد الاتجاهات وتناقضها وتشابكها وتبدلها باستمرار ونظراً لأن هذه الاتجاهات ليست هي في الحقيقة تيارات سياسية فحسب، بل هي تيارات طائفية ودينية ومنفعية، بل هي في حقيقتها ليست اتجاهات وتيارات لبنانية بقدر ما هي اتجاهات عربية أو صهيونية أو دولية: أوروبية أو أميركية أو سوفياتية.

هذه التيارات السياسية المتصارعة، كانت تتخذ حيناً طابعاً سياسياً بحتاً وطوراً تتخذ طابعاً طائفياً، وذلك تبعاً للظروف والحالات التي تمر بها وتبعاً للعوامل الكامنة في تحريكها، بل كانت هذه التيارات تتخذ أحياناً طابع الصراع الدولي — تبعاً لصراع الأحزاب اليمينية واليسارية، أو صراع الفئات السياسية التي كان بعضها يدين بالولاء لهذه الدولة أو تلك. وعلى هذا يمكن عملياً أن نقسم الاتجاهات السياسية في لبنان في الفترة،

د. حسان حلاق، مدرس التاريخ في كلية الآداب — جامعة بيروت العربية، له عدة مؤلفات في التاريخ المعاصر منها: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية / الاتجاهات السياسية الطائفية في لبنان / وتعريب النقود والدواوين في العصر الأموي...

من ١٩٤٣ إلى ١٩٥٢ إلى عدة أقسام وهي:
١ ــ إتجاهات سياسية وطائفية لبنانية.
٢ ــ إتجاهات سياسية عربية.
٣ ــ إتجاهات سياسية صهيونية.
٤ ــ إتجاهات سياسية دولية.

ومن خلال هذا التفريع للاتجاهات السياسية في لبنان يتبين لنا بأن التيارات السياسية من المنطلقات غير اللبنانية هي الغالبة والمسيطرة على الفكر السياسي اللبناني، هذا مع العلم أن التيارات اللبنانية ليست بالضرورة أن تمثل تياراً سياسياً إصلاحياً وطنياً، بل قد تمثل تياراً منفعياً استغلالياً.

إن الاتجاهات السياسية في لبنان، في الفترة موضوع الدراسة، تعتبّر من أهم الفترات في تاريخ لبنان المعاصر، لأنها الفترة التي وضعت فيها المحاولات الأولى لأسس دولة الاستقلال، وهي الاسس الطائفية التي لا يزال يعاني منها لبنان إلى عهدنا الحاضر، وهي الاسس التي انطلقت منها كافة المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة وإن ساسة عام ١٩٤٣ ظنوا أنهم قادرون على فصل لبنان ١٩٤٣ عن لبنان الانتداب ولبنان الامتيازات. فمنذ أن أعلن الجنرال «غورو» (gouraud) في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ دولة لبنان الكبير. ولبنان يئن من الصراعات السياسية أو الطائفية، ومنذ ذاك التاريخ ازداد انقسام اللبنانيين على انفسهم، فرغم أن دولة لبنان الكبير وحدت لبنان جغرافياً غير أنها لم تستطع أن توحد اتجاهات اللبنانيين السياسية، بل على العكس فمنذ اعلان غورو لبنان الكبير رفض الوحدويون ــ أكثرهم من المسلمين ــ الصيغة الجديدة، ونزعوا أكثر نحو المطالبة بتحقيق الوحدة السورية بين المناطق الساحلية في لبنان وبين سوريا الداخلية. كما ضاعف ذاك الاعلان من اتجاه المسيحيين وبالتحديد الموارنة نحو الانفصال التام عن سوريا والقبول بدولة لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي، فيما رأى القنصل البريطاني «ساتو» (Satow) بأن بعض المسلمين ايدوا صيغة لبنان الجديد، ولكنهم طالبوا باقامة العدل والمساواة، غير أن العناصر المسيحية تخوفت من هذه التحركات والمطالب الاسلامية.

ومن الاهمية بمكان القول أن الفرنسيين استغلوا هذه الانقسامات بين اللبنانيين وغذوها كي يتمكنوا من إحكام قبضتهم على البلاد وبصورة أسهل. وكان الوحدويون يعبرون عن



الجنرال غورو

رفضهم للصيغة الجديدة برفضهم قبول المناصب الحكومية باستثناء قلة منهم لئلا يفسر قبولهم بها اعترافاً بواقع ١٩٢٠، الأمر الذي أدى إلى أن يتولى المسيحيون غالبية المناصب الكبرى، والهامة في الدولة، وكان ذلك سبباً هاماً ورئيسياً في أن الادارة اللبنانية أصبحت «مسيحية الطابع». هذا ولا يمكن أن ننكر في أن المسلمين يتحملون الكثير فيما وصلت إليه الادارة اللبنانية من غياب إسلامي فيها، وكان هذا الحرمان والابتعاد عن مناصب الدولة نتيجة إيمانهم وتشبثهم بالوحدة السورية. ولما حاول المسلمون في أواخر الثلاثينات القبول بدولة لبنان الكبير والدخول إلى مناصب الدولة كانت الادارات والوظائف تغص بسواهم ممن سبق لهم أن باركوا وأيدوا إعلان غورو.

ومن المهم القول أن الدستور اللبناني الذي نشر في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٦ في عهد المندوب السامي هنري دي جوفنيل (H. de Jouvenel) خرج دستوراً طائفياً. فقد أوصى في مواده بتوزيع وظائف الدولة وتشكيل الحكومات على أسس طائفية، مما أدى إلى حدة الانقسامات بين اللبنانيين وقد نصت المادة (٩٥) على التوزيع الطائفي صراحة بقولها: «بصورة مؤقتة وعملاً بصك الانتداب والتماساً للعدل والوفاق، تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة، وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الاضرار بمصلحة الدولة» والغريب في الأمر أن هذه «الصورة المؤقتة» منذ عام ١٩٢٦ لا تزال مستمرة بنصها الحرفي إلى وقتنا الحاضر، الأمر الذي أدى إلى تكوين الطائفية السياسية التي لعبت دوراً بارزاً في تكوين الاتجاهات الحزبية والقيادية والفكرية. والجدير بالذكر أن دستور عام ١٩٢٦ ظل معمولاً به في عهود الاستقلال باستثناء تعديلات طفيفة واهية طرأت عليه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ لا تزيد عن تغيير ألوان العلم اللبناني، وإلغاء الفرنسية من إدارات الدولة والابقاء على اللغة العربية فحسب كلغة رسمية في الدولة، وحذف عبارة «عملاً بصك الانتداب» من بنود الدستور.

والحقيقة أن فرنسا ساهمت بدورها في تعميق الطائفية السياسية وبتكريس الانقسامات بين اللبنانيين، ومما ساهم في ذلك شعور المسلمين بالغبن لا سيما بعد اعترافهم بواقع لبنان الكبير، فبالاضافة إلى انتفاء أي احتمال لوصولهم لمنصب رئاسة الجمهورية منذ عام ١٩٢٦، فانهم أبعدوا أيضاً عن منصب رئاسة الوزارة ولم يتولوا هذا المنصب ولأول مرة إلا في عهد الرئيس إميل أده (١٩٣٦ ــ ١٩٤١) الذي اختار مسلماً موالياً للفرنسيين هو خير الدين الأحدب. وعلى حد قول الوزير البريطاني «سبيرز» (Spears) بأن الفرنسيين سيطروا على البلاد وحكموها بتقريب الموارنة إليهم واعطائهم امتيازات امتازوا بها عن سواهم من الطوائف.

وفي عام ١٩٤٣ وعندما تمكن اللبنانيون من نيل استقلالهم بعد أحداث تشرين الثاني (نوفمبر) استمرت الاتجاهات السياسية ــ الطائفية تفعل فعلها في «المجتمعات اللبنانية» ولم تحاول دولة الاستقلال صهر هذه «المجتمعات» في مجتمع لبناني واحد بل رأت أن خير وسيلة للابقاء على المصالح الذاتية هي في الابقاء على روح الاسلوب الفرنسي باستغلال الفكر الطائفي والديني وأحياناً السياسي واستخدامه كوسيلة يهدد به اللبنانيون بعضهم الآخر به كسلاح سريع الأثر.

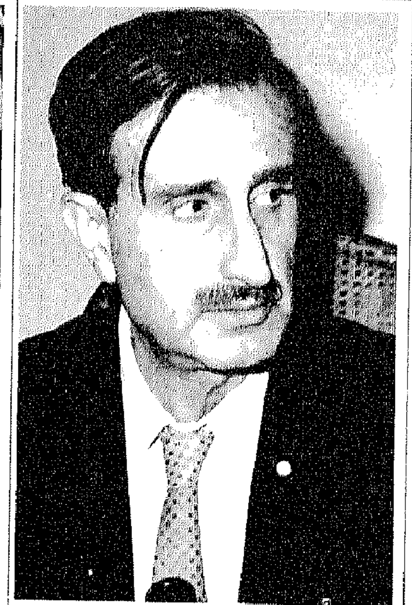
ويلاحظ بأن النظام السياسي الطائفي حكم لبنان على أساس أنه بلد عشائري ذلك «أن خمس لبنان يحكم البلد بواسطة رئاسة الجمهورية ــ والموارنة خمس اللبنانيين ــ وخمس لبنان الآخر ــ السُنة ــ يحكم البلد بواسطة رئيس الحكومة والشيعي والدرزي والأرثوذكسي والكاثوليكي والأرمني والأشوري والكلداني وما إلى ذلك يحكمون لبنان، هذا بخمسه وهذا بسدسه وهذا بعشره و... كأننا في نظام العشائر والبطون والافخاذ» وذلك على حد قول كمال جنبلاط في عام ١٩٥٨.

حقيقة أن الميثاق الوطني الذي أوجده بشارة الخوري ورياض الصلح كان لتهدئة الاوضاع السياسية في لبنان ولتأمين استقرارها، غير أنه منذ ولادته عام ١٩٤٣ ولد ميثاقاً طائفياً بأساليب سياسية، وكان بمثابة أداة تهدئة مؤقتة بين اتجاهين:

أولهما، الاتجاه الاسلامي الوحدوي الذي كان يؤمن بتحقيق الوحدة السورية.

وثانيهما، الاتجاه المسيحي اللاوحدوي الذي يؤمن باستقلال لبنان بحماية أجنبية.

غير أنه تبين من خلال ممارسات السياسيين في الفترة من ١٩٤٣ إلى ١٩٥٢ ان ما من أحد منهم إلا واستمر يعمل أو يصرح من أجل الوحدة العربية أو من أجل الحماية الاجنبية، مرة علانية ومرة أخرى في الخفاء. وراح رياض الصلح مثلاً يعمل من أجل التوازن العربي ــ اللبناني كقوله: «ماذا يمنع أن يكرس العلم اللبناني عربياً بألوانه، وأن تحتل الارزة صدر هذه الألوان» على حد قول صحيفة «الأيام» الدمشقية، مما أثار احتجاجاً لدى الأوساط


كمال جنبلاط


بشارة الخوري


رياض الصلح

اللاوحدوية. وكانت بعض الأوساط السورية لا تزال تطالب حتى هذه الفترة بإلحاق المناطق الساحلية اللبنانية بسوريا مما أثار العديد من التساؤلات حول حقيقة الموقف السوري.

والحقيقة التي لا ينبغي تجاهلها هي أن الميثاق الوطني ــ خلافاً للفكرة السائدة في لبنان والخارج ــ ليس اتفاقاً نهائياً على توزيع الرئاسات الثلاث بين الموارنة والسنة والشيعة، بل هو في الحقيقة اتفاق على أن يبتعد المسلمون عن اتجاهاتهم الوحدوية مقابل أن يبتعد المسيحيون عن طلب الحمايات الأجنبية وقد أكد هذه الحقيقة الرئيس بشارة الخوري نفسه حينما أشار في مذكراته «وما الميثاق الوطني سوى اتفاق العنصرين اللذين يتألف منهما الوطن اللبناني على انصهار نزعاتهما في عقيدة واحدة: استقلال لبنان التام الناجز دون الالتجاء إلى حماية من الغرب ولا إلى وحدة أو اتحاد مع الشرق». ومما يؤكد ذلك أيضاً بأن الرئاسة الثانية ــ رئاسة المجلس النيابي ــ لم تكن باستمرار للطائفة الشيعية، بل تولاها نائب أرثوذكسي عام ١٩٤٦ وبدعم وتأييد من رئيس الجمهورية نفسه الذي نصح الرئيس صبري حماده «بأن من مصلحته الاحتجاب عن الرئاسة مدة فيما لو فاز منافسه بها. وهكذا كان وفاز حبيب أبو شهلا بأكثرية ضئيلة..»

وهكذا استمرت الزعامات اللبنانية في استغلال «المجتمعات اللبنانية» المتناحرة أساساً، وكان كل زعيم أو نائب يمثل طائفته ومجتمعه الضيق رغم أن الدستور اللبناني يعتبر أن كل نائب يمثل كل لبنان وليس ناخبيه فحسب، مما أدى إلى زيادة المناحر والانقسامات والتهافت على كسب المغانم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي كان يؤدي إلى انهيار أسس لبنان قبل تركيزها. ولم تحاول تلك الزعامات الوقوف بجرأة في وجه التيارات الطائفية، بل كانت تشجعها حرصاً منها على مصالحها السياسية الخاصة. حتى أن رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه ووزرائه كثيراً ما كانوا يحرصون على أخذ آراء القوى الطائفية، السياسية والدينية على السواء استرضاء وتخوفاً من تهجم أو معارضة أو نقد.

ونظراً لتردي الأوضاع السياسية والادارية في الدولة برزت قوى معارضة ادعت أن هدفها «الاصلاح» في الادارات والشؤون العامة سرعان ما ينتهي هذا الهدف حينما تتولى زمام الحكم. غير أنه مما لا شك فيه أن تشابك الصلاحيات بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء كان من شأنه تعقيد الكثير من الامور



صبري حمادة



سامي الصلح

السياسية مما دعا العديد من الصحف اللبنانية ورؤساء الوزراء السابقين للمطالبة بتعديل الدستور اللبناني لتحديد الصلاحيات والمسؤوليات غير أن شيئاً من هذا لم يحدث، وعندما قرر النواب تعديل الدستور إنما قرروا تعديله عام ١٩٤٨ لتجديد الولاية لرئيس الجمهورية ست سنوات أخرى قبل انتهاء ولايته بسنة واحدة على أن تمتد الولاية الجديدة بين ١٩٤٩ ــ ١٩٥٥. ولم يعترض سوى قلة من النواب نجحوا في انتخابات ١٩٤٧ دون تدخل الدولة لمصلحتهم، بخلاف الذين سارعوا إلى تعديل الدستور وهم الذين نجحوا عبر تدخل أجهزة الدولة لمصلحتهم.

والجدير بالذكر أن الولاية الجديدة للرئيس بشارة الخوري لم تكن أفضل من الولاية الأولى بل تردت خلالها الاوضاع العامة في البلاد، وزادت سلبيات الطائفية وعمت البطالة وتفشت الفضائح الادارية، وتفاقمت الصراعات الحزبية والعشائرية، وعادت الانقسامات حول نظرة اللبنانيين إلى كيان لبنان. وانقسم أركان الحكم أنفسهم على غرار ما وقع من خلافات حادة بين الرئيس بشارة الخوري، ورئيس وزرائه الرئيس سامي الصلح عام ١٩٥٢، مما دعا الصلح إلى إلقاء كلمة في المجلس النيابي عرفت باسم البيان ــ الفضيحة حيث أوضح بقوله «أردنا تطبيق القانون فحاربونا، حاربونا لاننا أردنا أن نطبق القانون القاضي بمنع المقامرة والقمار هو أحد مواردهم السرية. حاربونا لاننا شرعنا في مكافحة التهريب إلى إسرائيل لأن هذه المكافحة تقطع عليهم الرزق الحرام» ثم طالب الصلح باقالة رئيس الجمهورية في معرض تساؤله عن كيفية الاصلاح بقوله «كيف تريدون أن يتحقق إصلاح ونجاح إذا لم تستأصل شأفة العلة القاتلة ونقتلع جذورها؟»

ونظراً لتردي الاوضاع كان لا بد من استقالة رئيس الجمهورية في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢ الذي دافع عن نفسه وسجل مشاعره حيال ما جرى في لبنان خلال حكمه بقوله: «معارضة ضارية ظالمة لا تعرف التحليل والتحريما .يشجعها الاجنبي، وموالاة متواكلة نائمة على الثقة، وفي كثير من أفرادها نهم ومطامع وأحقاد». ●



أنا في الحقيقة طاحونة، لست عملاقاً. ها أنا أقف في مكاني، خارج القرية، وحدي على هضبة رملية، لا أزور أحداً ولا أساعد أحداً، ولا أدع أحداً يساعدني... جميع الرياح الأثنين والثلاثين تصادقني. لا أطلب من الكون أجمعه غير ما يكفيني حتى تدور أجنحتي. ومطلبي الوحيد أن تدور أجنحتي...

(لسنج: خطابات ذات محتوى)

الغناء يحيي القلب (*)

حدّث من يفهم الغناء، قال:

بلغني أن جميلة قعدت يوماً على كرسي وقالت لآذنتها: لا تحجبي عنا أحداً اليوم، واقعدي بالباب، فكل من يمر بالباب فاعرضي عليه مجلسي؛ ففعلت ذلك حتى غضت الدار بالناس؛ فقالت جميلة: اصعدوا الى العلالي(١)؛ فصعدت جماعة حتى امتلأت السطوح.

فجاءتها بعض جواريها فقالت لها: يا سيدتي؛ إن تمادى أمرك على ما أرى لم يبق في دارك حائط إلا سقط، فأظهري ما تريدين؟ قالت: اجلسي!

فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الماء الناس، فدعت لهم بالسويق(٢)، فشرب من أراد، ثم قالت: أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يبق في سفل الدار ولا علوها أحد إلا شرب، وقام على رؤوسهم الجواري بالمناديل والمراوح الكبار، وأمرت جواريها فقمن على كراسي صغار فيما بين كل عشرة جارية تروح.

ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئاً أفزعني وأرعبني، ولست أعرف ما سبب ذلك، وقد خفت أن يكون قرب أجلي، وليس ينفعني إلا صالح عملي، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أن يلحقني منه شيء عند ربي!

فقال قوم منهم: وفقك الله وثبت عزمك! وقال آخرون: لا حرج عليك في الغناء. وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة: قد تكلمت الجماعة، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولم أعترض عليهم في قولهم، ولا شركتهم في رأيهم فاستمعوا الآن لقولي، وانصتوا ولا تشغبوا(٣) إلى وقت انقضاء كلامي، فمن قبل قولي فالله موفقه، ومن خالفني فلا بأس عليه إذ كنت في طاعة ربي.

فسكت القوم جميعاً، وتكلم الشيخ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم قال يا معشر أهل الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فشلتم، ووثب عليكم عدوكم، وظفر بكم، ولا تفلحوا بعدها أبداً... إلى أن قال: إن الغناء من أكبر اللذات، وأسر للنفوس من جميع الشهوات، يحيي القلب، ويزيد في العقل، ويسر النفس، ويفسح في الرأي، ويتيسر به العسير، وتفتتح به الجيوش، ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم عند استماعه، ويبرىء المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره، ويزيد أهل الثروة غنى وأهل الفقر قناعة ورضاً باستماعه، فيعزفون(٤) عن طلب الأموال. من تمسك به كان عالماً، ومن فارقه كان جاهلاً؛ لأنه لا منزلة أرفع، ولا شيء أحسن منه، فكيف يستصوب تركه، ولا يستعان به علي النشاط في عبادة ربنا عز وجل! وكلام كثير غير هذا.

فما رد عليه أحد، ولا أنكر ذلك منهم بشر، وكل عاد بالخطأ على نفسه، وأقرّ بالحق له!

ثم قال لجميلة: أوعيت ما قلت؟ ووقع من نفسك ما ذكرت؟ قالت: أجل! وأنا استغفر الله. قال لها: فاختمي مجلسنا وفرقي جماعتنا بصوت فقط، فغنت:

أفي رسم دار دمعك المترقرق
سفاهاً! وما استنطاق ما ليس ينطق

بحيث التقى جمع وأقصى محسر(٥)
مغانيه قد كادت عن العهد تخلق

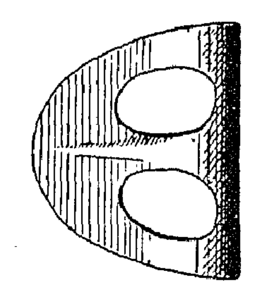
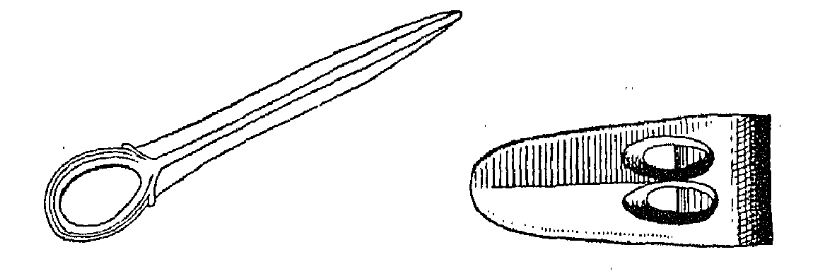
مقام لنا بعد العشاء ومنزل
به لم يكدره علينا معوق

فأحسن شيء كان أول ليلنا
وآخره حزن إذا نتفرق

فقال الشيخ: حسن والله! أمثل هذا يترك! لا والله ولا كرامة لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناس معه، وقال: الحمد لله الذي لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته، وسلام عليك ورحمة الله يا جميلة.

◇

(*) الأغاني: ٨ ــ ٢٢٤.
(١) العلالي: جمع علية، وهي الغرفة.
(٢) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير.
(٣) شغبت على القوم: هيجت الشر عليهم.
(٤) عزفت نفسي عن الشيء: تركته وزهدت فيه وانصرفت عنه.
(٥) جمع: علم للمزدلفة. ووادي محسر: موضع بين منى والمزدلفة.

فلسطين

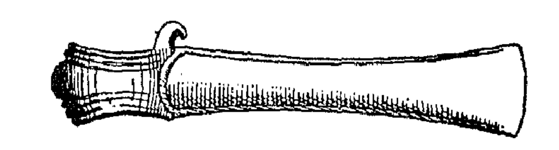
في الألف الثاني قبل الميلاد

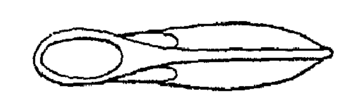
د. ديمتري برامكي



نشأت في مستهل الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل نشأت حضارة رائعة، فقامت المدن المسورة وازدهرت الصناعة والتجارة والهندسة وترعرع الفن. دامت هذه الحالة لمدة سبعة قرون أو أكثر بقليل ثم انهارت تحت وطأة هجوم قبائل همجية من العموريين أو الأموريين الذين دمروا المدن، ودبت الفوضى في البلاد إذ لم يكن بوسع مصر أن تصد تلك الهجمات نظراً لرزوحها تحت وطأة الاقطاعية التي انتشرت في المملكة المصرية في أوائل القرن الثالث والعشرين. بقيت هذه الفوضى منتشرة حتى أوائل الألف الثاني عندما قضى الفرعون انتف على الفوضى في مصر وحل محلها الاستقرار فانعكست هذه الحالة في فلسطين إذ أمّت البلاد قبائل ماهرة في صناعة المعادن من جهة وقوي شمل السلطة المصرية وأعادت هيبتها إلى المنطقة من جهة أخرى. فقامت المدن الجديدة على أنقاض المدن التي دمرها العموريون ونشأت حضارة جديدة أرقى بكثير من الحضارة السابقة. إنما موجة العموريين اصبغت البلاد بصبغة عربية محضة ولا أقول سامية لأنه حسب اعتقادي أن عبارة سامي وسامية وساميين غير صحيحة ومبنية على خرافة غير حقيقية. وبما أن مهد الأقوام التي سماها شلوزر سامية في سنة ١٧٨١ هي الجزيرة العربية ولذلك من الأصح أن نسمي هذه الأقوام بالأقوام العربية ونسمي لهجاتهم بلهجات عربية.

د. ديمتري برامكي: مولود (١٩٠٩) في الأردن، حامل شهادة دكتوراه بالآثار من جامعة لندن (١٩٥٣)، امين متحف الآثار بالوكالة في فلسطين ١٩٤٦—١٩٤٩ وأمين متاحف الجامعة الأميركية في بيروت منذ ١٩٥١. استاذ الآثار (١٩٥٨)، في الجامعة نفسها.






والعموريون عندما شنوا حملاتهم على فلسطين والبلاد المجاورة لم يكن لهم حضارة تذكر إنما كانوا يعتنون بموتاهم أكثر مما كانوا يعتنون بحياتهم على الأرض وخلدوا قبوراً كثيرة نرى فيها عناية خاصة بالموتى.

والقسط الأوفر في ازدهار مدنيّة الألف الثاني في فلسطين يعود إلى أقوام لا نعرف هويتهم بالضبط سماهم العلامة الدكتور شيفر بحملة الأطواق (Porteurs de torques) لأنهم كانوا يتزينون بالأطواق المعدنية من فضية ونحاسية يحملونها حول أعناقهم. فتعلم العموريون صناعة المعادن منهم وأخذوا يصنعون أواني خزفية بشكل الأواني المعدنية. زعمت المرحومة كثلين كنيون أن حملة الأطواق هم الكنعانيون ولكني لا أشاطرها هذا الرأي لأن حملة الأطواق جاؤوا من الشمال وتمكن الدكتور شيفر الآنف الذكر من تتبع تجوالهم من جبال القفقاس إلى فلسطين والبلاد المجاورة. والكنعانيون أقوام من أصل عربي ولكن يبدو أن الكنعانيين هم نسل العموريين الذين جاؤوا من الجزيرة العربية عن طريق شرقي الأردن من جهة وحملة الأطواق من جهة أخرى.

ونلاحظ أن منذ مستهل الألف الثاني قبل الميلاد أن التجارة ازدهرت وأقيمت علاقات تجارية وثقافية بين فلسطين وبين البلاد المجاورة خصوصاً مصر. كما نلاحظ أن صناعة الخزف وصناعة المعادن وطرق الدفن والهندسة طرأ عليها نظام جديد دام نحو سبعة قرون. بانتشار التجارة أخذت فلسطين تتأثر بالحضارات التي انتشرت في مصر والعراق وآسيا الصغرى وحتى جزيرة كريت ومما ساعد بنشوء الحضارة الجديدة كانت الحملات التي شنها فراعنة الأسرة الثانية عشر مثل سنو سرت الأول والثاني التي وضعت حداً للفوضى التي كانت شائعة في البلاد. فالحفريات التي أقيمت في بيسان ومجدو وأريحا وتل العجول وتل بيت مرسم وتل القاضي وبلاطه تعكس لنا صورة واضحة لأقوام كادحين في أعمالهم دأبهم السعي وراء حرفهم ومهنهم وعبادة آلهتهم وتحصين مدنهم وصد هجمات جيرانهم. صنفت المرحومة كثلين كنيون الألف الثاني قبل الميلاد والذي يدعى بالعصر البرونزي المتوسط والعصر البرونزي المتأخر صنفت هذا العصر إلى عدة أقسام: فهنالك العصر البرونزي المتوسط الأول والعصر البرونزي المتوسط الثاني وقسمت الأخير إلى خمس مراحل ولكنني لا أشاطرها هذا التقسيم بمجمله، أوافق معها بتقسيم العصر البرونزي إلى القسمين ولكني لا أرى مبرراً إلى تقسيم الثاني إلى خمس مراحل وأفضل تقسيمه إلى ثلاث مراحل فقط. فحسب رأيي أن القسم الأول يمتد من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٨٥٠ ق.م. ومراحل القسم الثاني يمكن تحديدها على ثلاث مراحل من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٧٨٠ ومن سنة ١٧٨٠ إلى سنة ١٧٣٠ ومن سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٥٨٠ عندما طُرد الهيكسوس من مصر.

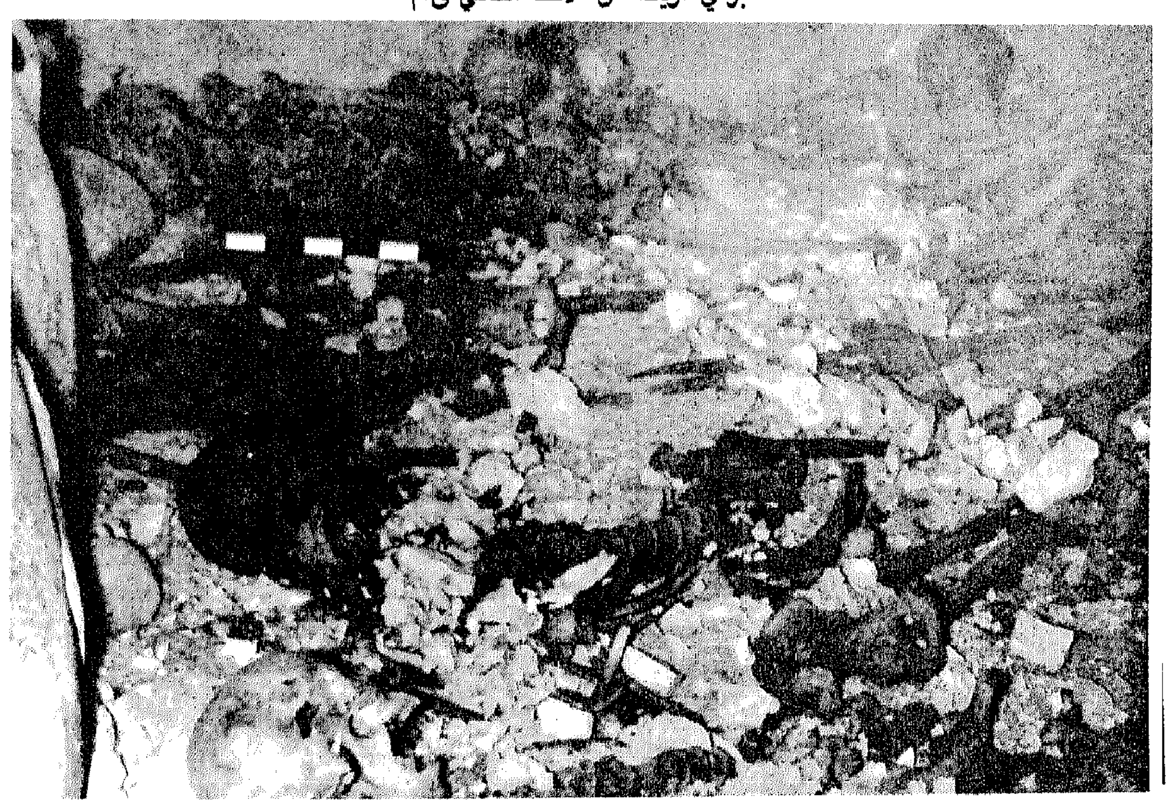
وفي العصر البرونزي المتوسط برمته كانت فلسطين وفينيقيا وسوريا ممر القوافل بين مصر من جهة والعراق وآسيا الصغرى من جهة أخرى. فرجال القبائل الرحل الذين كانوا في هذه البلاد انضموا إلى الجيوش المصرية في القسم الأول من العصر وفي القسم الثاني انضموا كمرتزقة إلى جيوش الهيكسوس وعادوا إلى بلادهم أثرياء من غنائم الحروب التي

شاركوا فيها، يظهر هذا جلياً مما تركه هؤلاء الأشخاص من ذخيرة في قبورهم.

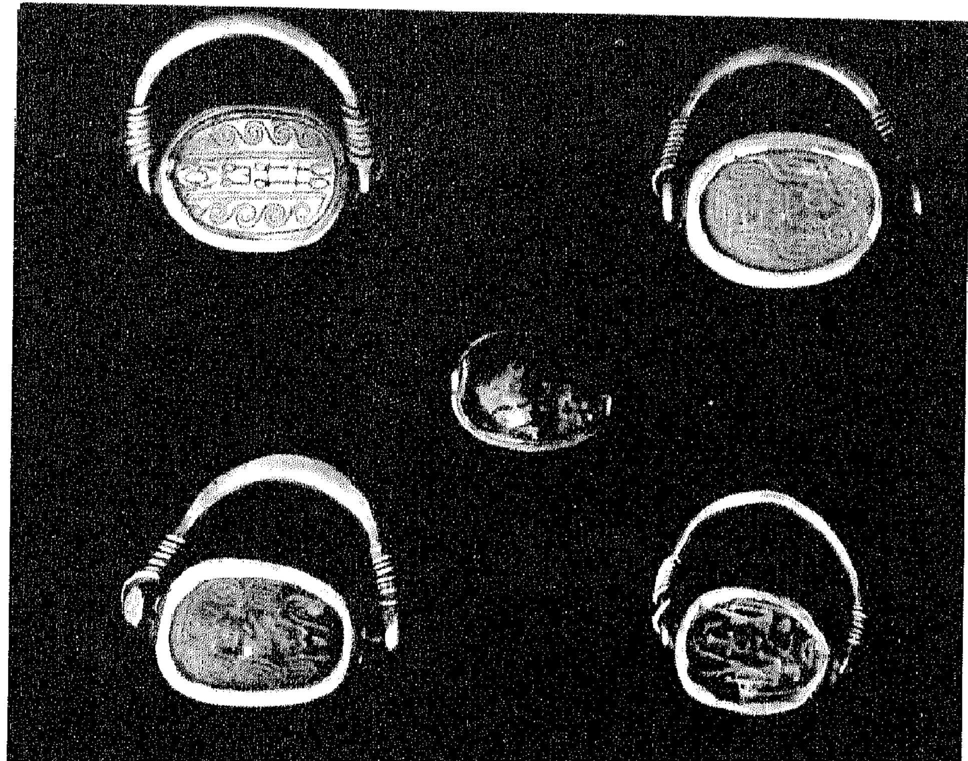
أما فيما يختص بالهندسة فإن أسوار المدن كانت مبنية من حجارة ضخمة وكانت الأسوار مائلة من الخارج. وجدت نماذج من هذه الأسوار في مدينة شكيم القديمة وتل فارة وتل بيت مرسم وأريحا. إنما الأسوار في أريحا كانت مبنية من اللبن والقسم الأعلى من الأسوار كان مبنياً باللبن. وكانت الأسوار تحصن بأبراج من الخارج وفيها مدخل محصن تحصيناً قوياً مزود بثلاث دعامات من كل جانب يقسم المدخل إلى قسمين، وبين كل زوج من الدعامات أقيم باب من الخشب أي كان للمدخل ثلاثة أبواب الواحد تلو الآخر. وجدت مداخل من هذا الشكل في مجدو وتل بيت مرسم وتل فارة وبلاطة. وكانت الأسوار سميكة بحيث يمكن بناء بيت فوقها. أما فيما يختص ببناء المعابد فالحجارة كانت مربعة عند الزوايا ومدقوقة دقاً ناعماً. وجدت بقايا أبنية على هذا النمط في تل بيت مرسم حيث عثر على بيت لأحد النبلاء يرقى إلى القرن السابع عشر، يحتوي هذا البيت على باحة أمامية على جانبيها بناءان يحتوي واحد منهما على أربع غرف والآخر على غرفتين كما وجدت أبنية مماثلة في أريحا ومجدو وبلاطة وتل العجول. فالبيت في بلاطة يحتوي على باحة داخلية تحيط بها الدواوين والغرف على جوانبها الأربع. والمعابد كانت تحتوي على غرفة صغيرة بداخلها مذبح أقيم أمام الحائط الخلفي. أمام المعبد فكانت باحته واسعة.

وكان أهل هذا العصر يدفنون موتاهم بمغائر اصطناعية منحوتة بالصخر. وكانوا يضعون في القبر جميع ممتلكات الميت. وكانوا يدفنون عدة جثث في قبر واحد كما وجدنا في تل فارة وتل الدوير وأريحا، وفي أريحا عثرت المرحومة كثلين كنيون على مدافن عائلية فيها عدد كبير من الأواني الخزفية وأدوات نحاسية ومناضد من الخشب والحصر وأسِرَّة حتى ولحم جاف.

قبر في أريحا من الالف الثاني ق.م



خزف من
الألف الثاني



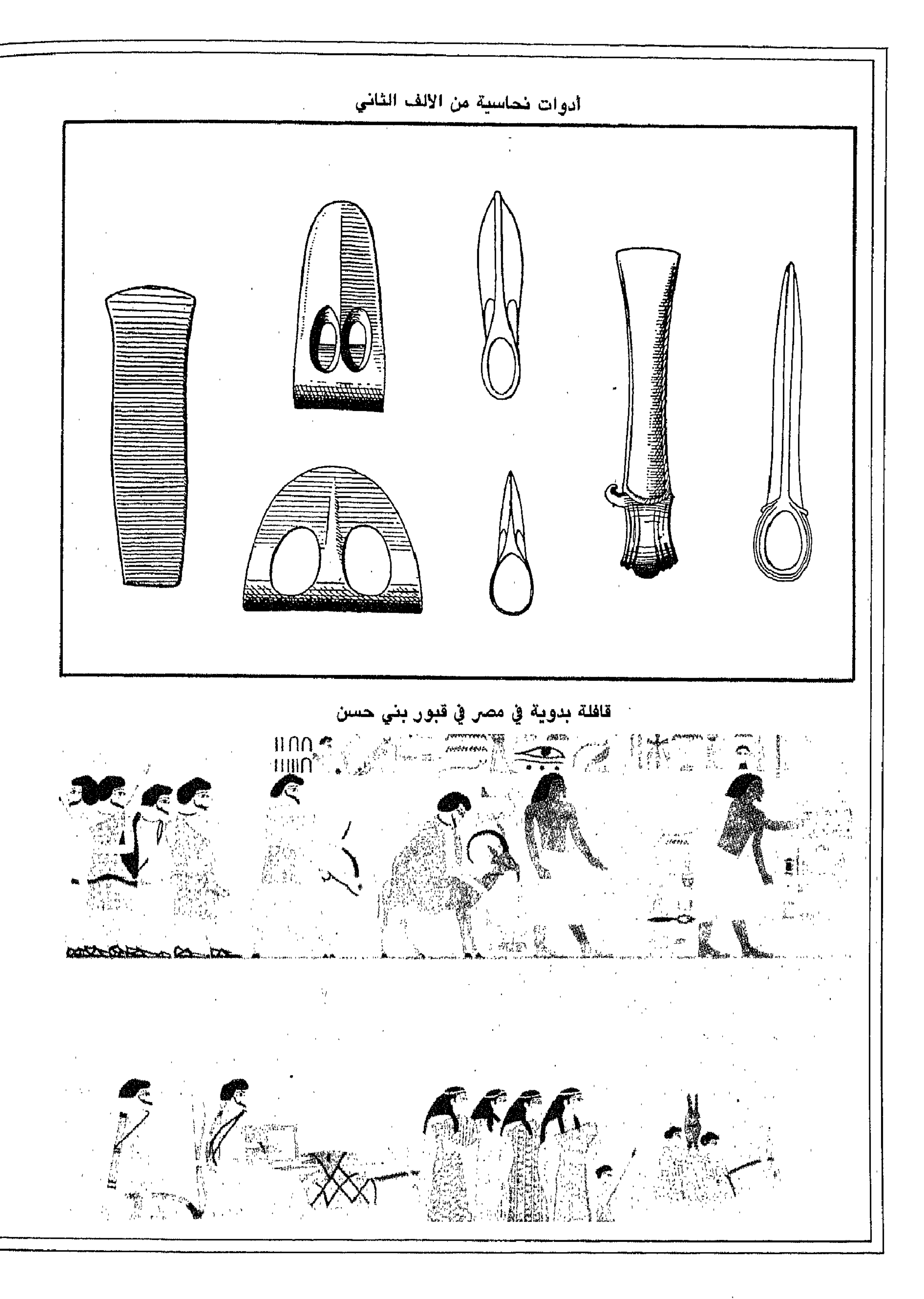
إن الخزف الذي صنع في العصر البرونزي المتوسط من أجمل ما صنع من خزف في فلسطين حتى العصر الهلنستي. وتنوعت أشكال الخزف في هذا العصر وكانوا يفضلون الشكل الاجاصي.

ففي المرحلة الأولى من هذا العصر أي ما بين ١٩٢٥ إلى ١٨٥٠ ق.م. كانوا يطلون أوانيهم باللون الأحمر القاني ويصقلونها صقلاً لماعاً ومن أوانيهم الطاسات والأباريق والصبابات والمغاطس كلها مصنوعة بالشكل الاجاصي.

وفي القسم الثاني من العصر أي ما بين ١٨٥٠ و١٦٠٠ ق.م. ففي الفترة الأولى أي ما بين ١٨٥٠ و١٧٨٠ لم يطرأ أي تبديل على شكل الأواني إنما استعاضوا عن الطلاء باللون الأحمر بطلاء بلون عاجي وكثير من الأواني كانت تدهن بطوق من الأحمر أو البني. وفي الفترة الثانية أي ما بين ١٧٨٠ و١٧٣٠ تلاشى الطلاء والصقل وأخذوا يعالجون الأواني من الخارج بشريطة مبلولة وطرأ تبديل على شكل بعض الأواني فأخذت تظهر الطاسات المجأجأة والأواني المزودة بقعر يشبه البوق وبدون أعناق. كما ظهرت لأول مرة الأسرجة المكموشة. وفي هذا العصر ظهر ابريق جديد شكله اجاصي ومطلي بطلاء أسود أورمادي قاتم ومزخرف بأشكال هندسية بثقوب دبابيس. يعرف هذا بخزف تل اليهودية حيث عثر عليه لأول مرة. وفي الفترة الأخيرة التي تمتد من سنة ١٧٣٠ إلى سنة ١٦٠٠ أي عصر الهيكسوس ظهرت أشكال جديدة مثل الأباريق الاسطوانية الشكل وتلاشى الشكل الاجاصي شيئاً فشيئاً ولكن الجأجأة زادت بشكل ملحوظ. وهنالك أشكال كانت تصنع في جميع الفترات من جرار وصبابات وأباريق ومغاطس.

عدا هذه الأواني كان أهل هذا العصر يصنعون الأواني من البرونز والفضة والذهب ويقال ان الجأجأة في بعض أشكال الأواني الخزفية منقولة عن الأواني المصنوعة من المعادن.

أدوات نحاسية من الالف الثاني



قافلة بدوية في مصر في قبور بني حسن

وخطت صناعة المعادن خطوات بارزة إلى الامام وصنع أهل هذا العصر عدداً من الأدوات والأسلحة من هذه المادة بما فيها الخناجر ورؤوس الفؤوس والبلطات ورؤوس الرماح. والخناجر تشبه أوراق الغار. كانت تمسمر بأيد من الخشب أو العاج بمسامير برونزية صغيرة تمر بثقوب في أسفل الخنجر. أما الفؤوس فكانت مثقوبة بوسطها لبرشمة اليد. أما البلطات التي كانت تستعمل بالحروب فكانت بشكل نصف دائرة مثقوبة بثقبين ومزودة بأنبوب في طرفها لوضع اليد أو المسكة وإن رؤوس الرماح كانت مزودة بأنبوب تدخل اليد فيها.

وأدوات الزينة تتكون من دبابيس مروسة برأس يشبه البطيخ كما وأنهم كانوا يزينون أنفسهم بأشكال حلزونية من الفضة والبرونز، وجد عدد كبير من الأشكال الحلزونية في تل العجول كما استعملت أيضاً الجعلان يرصعون بها الخواتم إن كانت من الذهب أو الفضة واستعملوا أيضاً العقود والأساور والخرز المصنوع من الذهب والفضة والكورنالين والحجر اللازوردي والفيروز. وكثر استعمال الجعلان في زمن الهيكسوس أي الفترة الثالثة من العصر البرونزي الثاني وكان أهل هذا العصر يتلهون بالألعاب ذات المهارة يستخدمون لذلك الألواح الحجرية مثل لعبة الضاما العصرية.

وبرع أهل هذا العصر بالتجارة ولنا برهان على ذلك من لوحة في قبر وجد في بني حسن في مصر يظهر عليها صورة اعراب يحملون كمية من الأثميد لبيعها في مصر كما يحملون على حميرهم منافخ لصناعة المعادن.

العصر البرونزي المتأخر

بعد أن طرد المصريون الهيكسوس من مصر ونظموا الادارة في البلاد أخذوا يشنون الحملات على فلسطين وفينيقيا وسوريا. شن الفرعون تحوتمس الأول حملة استطلاعية وبعد فترة وجيزة شن الفرعون تحوتمس الثالث ست عشرة حملة وتمكن من السيطرة على فلسطين وفينيقيا وسوريا سيطرة تامة.

يمتد هذا العصر من أوائل القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر. يقسم هذا العصر إلى مرحلتين. في المرحلة الأولى التي تشمل القرنين السادس عشر والخامس عشر كانت فلسطين تابعة للحكم المصري والمرحلة الثانية وتشمل القرنين الرابع عشر والثالث عشر، حين دبت الفوضى في البلاد في زمن الفرعون أخناتون والهجمات التي شنت على فلسطين من قبائل همجية تدعى حبيرو ربما كان الاسرائيليون قسماً منهم. ففي المرحلة الأولى كان تأثير المصريين كبيراً ولكن في المرحلة الثانية تعرضت فلسطين إلى تأثيرات عديدة زيادة على التأثير المصري كالتأثير الايجي والكريتي والحثي والعراقي نظراً لازدهار التجارة مع هذه البلدان.

فرض فراعنة مصر ضريبة باهظة على فلسطين فأفقر هذا البلد والدليل على هذا تدمير بعض المدن تدميراً كاملاً وصغر حجم ما تبقى من المدن الأخرى. أما الدليل الساطع على الفقر فهو ضآلة محتويات القبور التي ترقى إلى هذا العهد والانحطاط الذي أصاب الحرف والفنون. وليس هنالك من فرق بين هندسة هذا العهد والعهد السابع إلا أن الانجاز أصبح ركيكاً. عثر على معبدين يرقيان إلى الالف الثاني قبل الميلاد أحدهما وجد في مجدو والآخر في تل الدوير. والأول يحتوي على أيوان كبير في مؤخرته نتوء في الحائط لوضع تمثال الاله أو رمز ديني له. عند المدخل كانت غرفتان صغيرتان ربما اعدتا لخدم المعبد. ومعبد تل الدوير بني على ثلاثة مراحل. ففي المرحلة الأولى كان يحتوي على ايوان طوله عشرة أمتار وعرضه خمسة أمتار. كان يرتكز سقفه على صواديد من الخشب قائمة على أساسات من الحجارة. وفي طرف المعبد أقيم مذبح صغير قرب أحد طرفيه غرفة صغيرة للكاهن. وأمام المعبد أقيم رواق. يرجع تاريخ هذا المعبد إلى سنة ١٤٨٠ ق.م. وهجر في أواخر

القرن الخامس عشر ولكن أعيد بناؤه بعد فترة وجيزة من الزمن في أوائل القرن الرابع عشر على نطاق أوسع. كان هذا المعبد مربعاً وكان سقفه يرتكز على أربعة صواديد من الخشب قائمة على أساسات من الحجارة. وفي طرفه الجنوبي أقيم مذبح وعلى جوانبه الثلاثة الباقية بنيت مقاعد مزدوجة. خلف المعبد أقيمت غرفة صغيرة يصلها بالمعبد باب على جانب المذبح. أعيد بناء هذا المعبد في أواسط القرن الرابع عشر حين أزيل الحائط بين المعبد والغرفة خلفه وبنيت غرفة جديدة إلى الطرف الغربي من الغرفة ذاتها. وجد في هذا المعبد تمثال صغير من البرونز للاله الفينيقي رشف.

ومن الأبنية التي ترقى إلى هذا العصر عثر في مجدو على بيت ربما كان قصر الملك أو الحاكم. يحتوي هذا البناء على ايوان كبير يؤدي إلى عدد من الغرف في أطرافه الشمالي والشرقي والغربي، وبابه كان في طرفه الجنوبي. يبلغ طول البيت خمسين متراً وعرضه ٢٥. وجد في هذا البناء دخيرة من الحلي الذهبية كالقلائد بشكل قرون وخواتم عدا الخرز من الحجر اللازوردي والزجاج ومجوهرات أخرى.

ووجد في بيسان معبد يرقى إلى القرن الرابع عشر يحتوي على عدد من الغرف ودواوين ووجد نصب في أحد الدواوين.

إن بوابة المدينة في مجدو بنيت فوق البوابة التي ترقى إلى العهد السابق ولا تختلف عنها إلا بركاكة البناء.

بالاجمال كان العصر البرونزي المتأخر عصر انحطاط ويظهر هذا جلياً في صناعة الخزف. إن جميع الأواني التي كانت تصنع في المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المتوسط مازالت تصنع في هذا العصر ولكنها فقدت جمال صنعها فالصقل تلاشى تماماً. حاول أهل هذا العصر أن يستعيضوا عن جمال أشكال الأواني بدهانها. رغم ذلك ظهرت أشكال جديدة، منها الأواني التي كانت تدهن بلونين على كتفها بصور الحيوانات والطيور ضمن إطار مربع وتصقل صقلاً لماعاً ولكن هذا النوع من الخزف لم يدم



تمثال برونزي للإله رشف

أكثر من خمسين سنة وهو نادر جداً. من الأشكال التي ظهرت لأول مرة الجرار الصغيرة والمدهونة بلونين ولكن بدون صقل. والطاسات الصغيرة والمزودة بقاعدة عالية نقلاً عن الطاسات المصرية المصنوعة من الألبسطر. ظهرت في هذا العصر أيضاً صبابات تختلف عن صبابات العصر السابق مدهونة على الكتف بأشكال أشعة الشمس.

ولكن إن كانت صناعة الخزف المحلية عديمة الذوق فقد استورد أهل البلاد الخزف القبرصي والخزف الميسيني الجميل الصنع والزخرفة من طاسات وأباريق وأواني عدسية الشكل وأواني اسطوانية وطاسات وهلم جرا، والخزف القبرصي يكون عادة مطلياً بطلاء أسود ومدهوناً في بعض

الأحيان بحزوز بيضاء ,أما الخـزف الميسيني فإما أن يكون مدهوناً باللون البرتقالي أو اللون البني ومصقـولاً صقلاً لماعاً. ولا حاجة إلى وصف هذه الأواني برمتها ونكتفي بذكر واحدة منها فقط هي الطاسة القبرصية النصف كروية والمدهونة باللون البني على شكل سلالم فوق أرضية بيضاء ومزودة بيد تشبه عظمة الترقوة المعروفة عند العامة باليدست.

وكما كانت الحالة بالخزف كذلك في صناعة المعادن. إن رؤوس البلطات التي ألفناهـا في العصر البرونزي المتوسط تلاشت تمامـاً وحل محلها رؤوس بلطات مستطيلة. كـذلك ظهرت خناجر جديدة بدلاً من أن تكون مزودة بأنبوب لادخـال اليد فيهـا كانت تـزود في مؤخـرتها بسيلان لادخاله بـاليد. كـذلك رؤوس الرماح زودت بسيلان (Tang) لادخاله في اليد. وظهرت لأول مرة رؤوس النبل البرونزية إذ قبل ذلك كانوا يستعملون رؤوس نبل من الظران. وفي كثير من الأحيان زودت هذه بشـوكات. كـذلك تلاشت الدبابيس المعروفة بـ (Toggle pins) وحـل محلها دبـابيس مزودة بـرأس حلزوني الشكـل وندرت الحـلى المصنوعـة من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وحـل محلها حـلي مصنوعة من معجون زجاجي مصبـوغة بلون الفيروز استوردها أهل فلسطين من مصر. كانوا يتحلون بعقود وقلائد من هذا النوع من الخرز كما وأنهم استوردوا من مصر أواني صغيرة للعطور والمساحيق المصنوعة من ذات المادة كما استوردوا كميات كبيرة من العاج المحفور من فينيقيـا. وكثر استعمـال الجعـلان المصـريـة خصـوصاً المحفـورة باسم تحـوتمس الثـالث ورعمسيس الثاني كما استـوردوا من العراق الأختام الاسطوانية.

وكثـرت في هـذا العصر تمـاثيـل الآلهـة البرونزية. وجدت تماثيل للاله الفينيقي رشف في كل من تل أبي حوام وتل الدوير ومجدو. صنعت هذه عن طريق الشمع المفقود كما وأنه صنعت كميات كبيرة لآلهة الخصاب نقـلاً عن الآلهة المصرية حاثور كما وأنه شاعت صناعة تماثيل أخرى تمثل الحيوانات والطيور ربما كان لها مغزى ميثولوجي أو كـانت ألعاب يتلهى بهـا الصغار.

وازداد استعمـال الكتابـة فكانت تستعمـل الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية وظهرت بوادر الكتابة الهجائية في سيناء ومنها انتقلت إلى فلسطين إذ وجد في تل الدوير جرة مكتوب عليها كتابة بالأحرف الأبجدية.

ونظراً لنمو التجارة مع مصر فلطالمـا نجد أواني صغيرة مصنوعة من الالبسطر في بعض المواقع الفلسطينية مثل مجدو وبيسان وحاصور وتل الدوير.

إن النحت لم يـرق بأعـين الفلسـطينيـين القدماء. وجد في تل بيت مرسم نصب محفور عليه آلهة بأسلوب بدائي. ولكن استورد أهل البلاد الأنصاب مثل نصب الفرعون ستي الأول كما وجد في بيسـان نصب من حجر البـزلط محفور عليه أسد وكلب الآلهة نرجال استورد من العراق. ووجدت بعض الانصاب في مجدو ولكنها من صنع مصري.

أما طرق الدفن في هذا العصر فلا تختلف عن طرق العصر السابق. فالموتى كانوا يقبرون بمغاور عائليـة اصطنـاعية كمـا وأنهم كانـوا يضعون في القبر جميع ممتلكات الميت.

استورد أهل هذا العصر بعض العاجيات من فينيقيا وجد بعضها في مجدو.

فحضارة العصر البرونزي المتوسط والمتأخر من صميم اسهـام الكنعـانيـين والعمـوريـين المنحدرين من أصل عربي والفضل في الحضارة التي نشأت في فلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد يعـود للعرب فقـط ولا دخل فيـه للاسـرائيليـين الذين بقـوا في حـالة البـداوة لا يملكون مدناً تذكر حتى زمن الملك داوود في العصر الحديدي الذي نشـأ في أواخر الألف الثـاني وأوائـل الألف الأول قبـل الميـلاد والحضارة التي نشأت في ذلك الحـين لم تكن رائعـة ولم تضاهِ حضـارة الألف الثاني رغم الانحطاط الذي انتاب البلاد في العصر البرونزي المتأخر. ●

إدريس الأول

ت: ١٧٧هـ/ ٦٩٦م

د. سُهيل زكّار



هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ، فالبعض يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق ما عداه من الناس في وقته، وبذلك تسنى له أن يتربع على مقعد للزعامة، وأن يحدث تغييرات كبيرة، وانجازات خطيرة، تأثر بها معاصروه ومن أتى بعدهم بدرجات مما تسبب له بالشهرة والخلود، والبعض الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع التاريخ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي صنع أحداث التاريخ، إنما إذا راعينا متذكرين أن لكل واقعة من الوقائع العديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ، وأن البطل الفرد وحده لا شيء، بدون جماهير تستجيب لقضيته، التي تعتبرها قضيتها، وتتعاون معه وتحت قيادته لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد.

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي، ولها أسباب قريبة، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجاز، يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الانجاز، وقد يكون الانجاز كبيراً، له فاعلية الاستمرار، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل، وقيام الفراغ والحاجه، يقودان نحو الاستغلال الأعظم لانجاز «البطل» وهكذا يبدأ الناس في اغناء دور البطل بتفسيرات وشروح كبيرة، ثم باضفاء مواد جديدة عليه، حتى يتم تحويله من واقعة تاريخية إلى واقعة شبه اسطورية.

ويمكن لنا أن نرى هذا الحال في شخصية المولى ادريس الأول في المغرب الأقصى، ففي دولة مغرب اليوم ــ كما في الماضي ــ يلاحظ الانسان أن السواد الأعظم من ملايين سكان المغرب من أصل عربي أو بربري سواء ينسبون أنفسهم إليه، كما أنهم يعتقدون أن كيان دولتهم ظهر لأول مرة على يديه.. والمولى ادريس هو واحد من أبناء عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأبناء الحسن بن علي من حزب الشيعة، لم يكن لهم نشاط يذكر في العصر الأموي، بل شغلوا أدوارهم التاريخية في العصر العباسي، ففي أيام أبي جعفر المنصور ثار اثنان من أبناء عبدالله وهما محمد النفس الزكية ثم أخوه ابراهيم، وقد استطاعت جيوش المنصور القضاء على ثورتيهما وقتلهما مع اعداد كبيرة من الشيعة، وكان النفس الزكية قبل اعلان ثورته، قد أرسل دعاته واخوانه إلى أمصار العالم الاسلامي للدعوة له، وللاعداد لثورة على العباسيين، ومن أخوانه الذين بعثهم إلى شمال افريقية كان عيسى، وقد نشط في تونس، وسليمان وقد نشط في المغرب الأوسط، ثم تحول

استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق

إلى منطقة الصحراء.

وفي أيام الخليفة الهادي حفيد المنصور، ثار حسني جديد في الحجاز، هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان ذلك سنة ١٦٩ هـ، وسار إلى مكة لأخذها في موسم الحج، فتصدت له القوات العباسية، وواقعته يقع على بعد ثلاثة أميال من مكة، وبطشت به وبأنصاره بلا رحمة، ثم لاحقت من نجا من المعركة لاستئصاله.

وكان ادريس بن عبدالله ممن شارك بموقعته فخ، وكتبت له الحياة، ففر مع مولى له اسمه راشد نحو مصر، ومنها إلى المغرب الأقصى، حيث حل فيه سنة سبعين ومائة للهجرة، وقصد مدينة طنجة، التي كانت قاعدة المغرب الأقصى، وأهم مدنه.

وفي سنة اثنين وسبعين ومائة، توجه ادريس نحو داخل المغرب، فنزل مدينة وليلي، في منطقة جبل زرهون الحصينة، والكثير الثراء الزراعي، خاصة شجر الزيتون، ومدينة وليلي تقع الآن خرائبها على مسافة حوالي العشرين كيلو متراً من مدينة مكناس، في وسط المغرب، وهي مدينة أسست في عهد الحكم الروماني للمغرب، وآثارها ذات مكانة لا بأس بها.

كانت وليلي تحكم من قبل قبائل أوروبة البربرية، وقد اتصل المولى ادريس بزعيم أوروبة، وكانت هذه القبائل على درجة كبيرة من القوة وكثرة الرجال، كما يبدو أنها كانت متأثرة بشكل كبير بحب آل البيت، وبسرعة عجيبة تمكن ادريس من أن يجمع حوله جيشاً من رجالات القبائل، وأن ينال البيعة بالامامة، وهكذا شرع في تأسيس مملكة تحكم مناطق المغرب الأقصى مع مناطق من المتوسط، ولقد توفرت له النجاحات بسرعة مدهشة، حيث لم يكن في المغرب سلطة للعباسيين، كما أن الامارة الأموية في الأندلس كانت مشغولة بقضاياها الداخلية، خاصة حركة المولدين وثورتهم الكبرى بزعامة ابن حفصون.

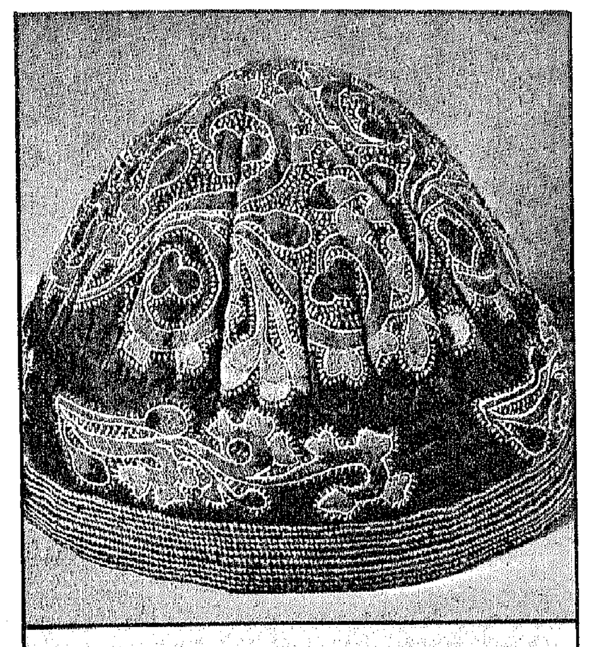
وطارت شهرة المولى ادريس في شمال افريقية، فقصده عدد من أهل القيروان وسواهم، وربما من أهل الأندلس، واستطاع ادريس أن يستفيد من جهود هؤلاء في تكوين نواة ادارية لمملكته الناشئة، وأخاف نجاح ادريس دولة الأغالبة في تونس، ولم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً عسكرياً ضده، لهذا رفعت الأمر إلى بغداد، التي كان خليفتها آنذاك الرشيد.

وكان الرشيد أسير مشاغله الخاصة التي تبدت في ثورات في خراسان، مع نشاط عسكري للامبراطورية البيزنطية على الحدود الاسلامية، لهذا لم يكن بمقدور الرشيد إرسال جيش كبير إلى المغرب، ثم أن الأغالبة أنفسهم ما كانوا ليحبذوا قدوم مثل هذا الجيش.

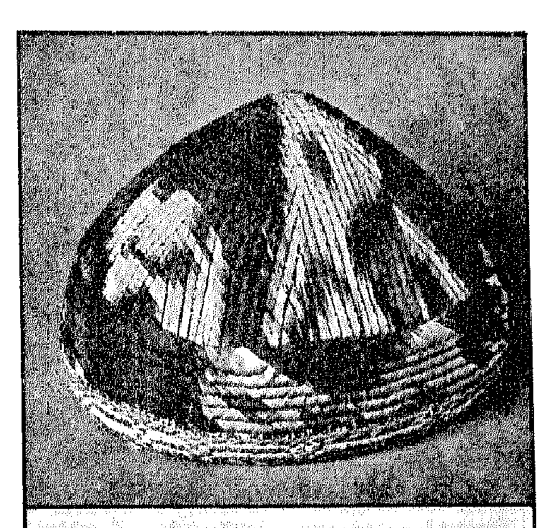
لذلك قرّر أي الرشيد أن يبعث أحد رجالاته إلى المغرب الأقصى ليتصل بادريس، ويدبر أمر اغتياله، ووقع الاختيار على رجل اسمه سليمان بن جرير، فقدم إلى وليلي، واستطاع أن يلتحق بخدمة المولى ادريس، وينال ثقته، وبعد جهود متواصلة أن يدس له السم ويقتله، وقد فر سليمان بعدما قضى فعلته هذه، واستطاع أن يصل حياً إلى العراق حيث أخبر الخليفة بنجاحه، وكان مقتل ادريس سنة سبع وسبعين ومائة، أي بعد خمس سنوات من وصوله إلى وليلي، ويعتقد المؤرخون المغاربة أنه لم يدفن داخل مدينة وليلي، بل أن ذلك كان على مقربة منها، وفي المغرب الآن على مسافة ميلين تقريباً من وليلي تقوم قرية صغيرة على ذروة جبلية مرتفعة، وتعرف هذه القرية باسم مولاي ادريس، وهي تحوي ضريحاً فخماً للغاية بني حوله مسجد كبير، وهذا الضريح يعتقد بأنه يحوي رفات المولى ادريس، وهو محج لأهل المغرب، كما أنه مقر لنشاطات دينية موسمية كبيرة.

إلى المولى ادريس ينسب التفكير، أو الشروع، في تأسيس مدينة فاس، التي شيدت في عهد ادريس الثاني، إذ يقال بأن جارية بربرية اسمها كنزة، من جواري المولى ادريس، أنجبت بعد وفاته غلاماً ذكراً سمي ادريساً على اسم أبيه، ومن صلب ادريس هذا، يؤمن ملايين من أهل المغرب، وحتى من زنوج افريقية بأنهم انحدروا، فهل هذا حصل فعلاً أم أن هؤلاء الملايين وأجدادهم أرادوا ذلك، فكونوه حدثاً تاريخياً...؟! ●

قلانس



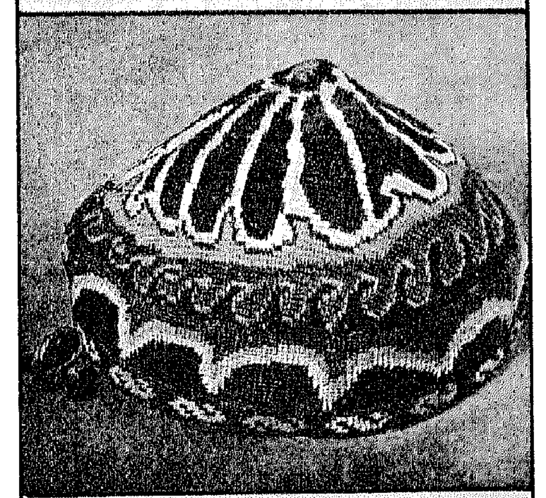
قلنسوة من نوع البراري، من بخاري بتركستان، وتصنع من الحرير والتافتاه وتبطن بالبفته، ويطرز «الطبق» و «الشريط الدائري» أولاً ثم يحاكان بواسطة خيط قطني



لبدة براري للرجال، من بخاري، وتطرز بواسطة خيوط حريرية وقطنية، وألوانها: الأحمر والأصفر والبنفسجي والأبيض والأخضر وتتشكل هذه الألوان في وحدة.



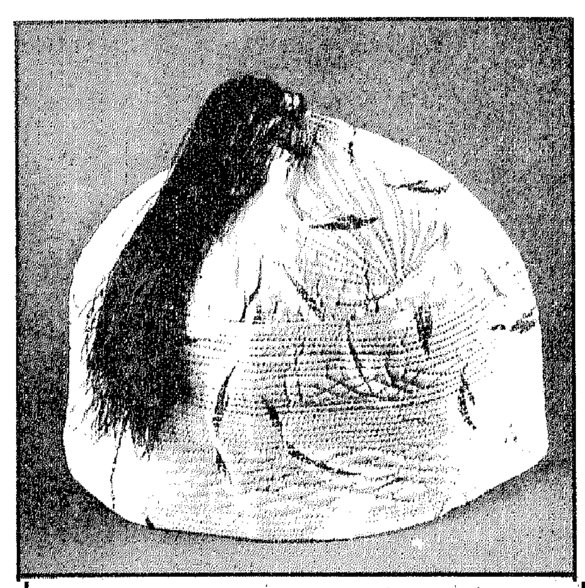
لبدة لمفرق الرأس، فرغانة، تركستان، وتتكون من ستة أجزاء، وتصنع من الساتان وتبطن بنسيج قطني وتطرز بالحرير والقطن.



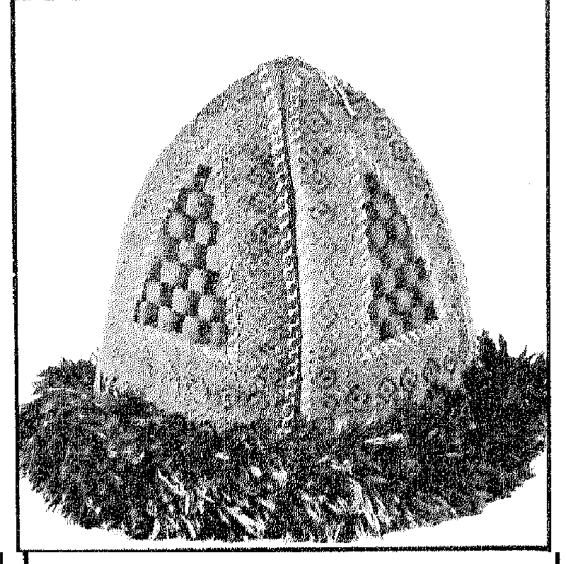
قلنسوة للرجال، من بخاري، وهي من القطن وتتكون من عشرة أجزاء، وتعتبر الوردة الوسطى الدائرية رمزاً للشمس، وتنسب إلى قبائل القرغيز بجبال الأفغان.

الصور عن: سيفريد فستبال هلبوس وجيزلا زولتكان - برلين ١٩٧٦.

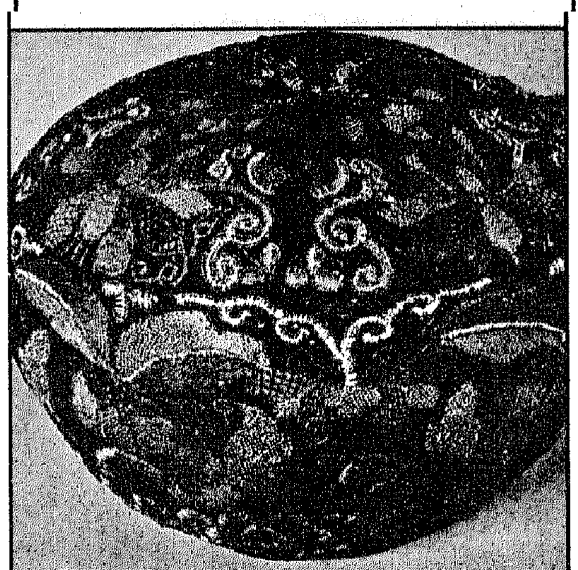
من وسط آسيا وفارس بمتحف علم الشعوب ببرلين



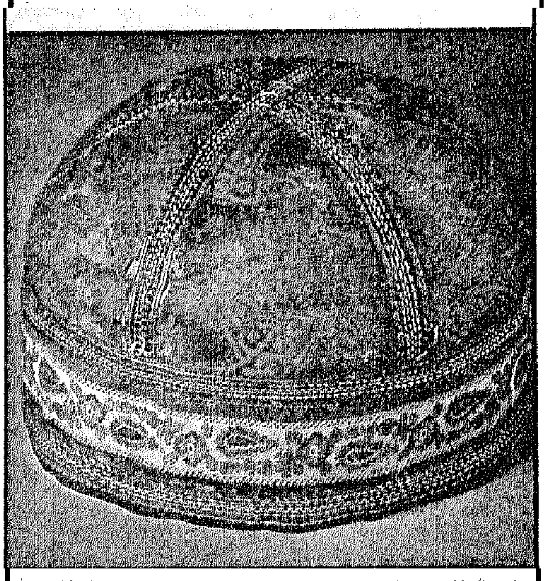
لبدة لأعلى الرأس من تركستان، وتصنع من نسيج قطني، لونها الخارجي برتقالي تتخلله شرائط زرقاء بيضاء والأهداب (الهداديب) من الحرير الأزرق.



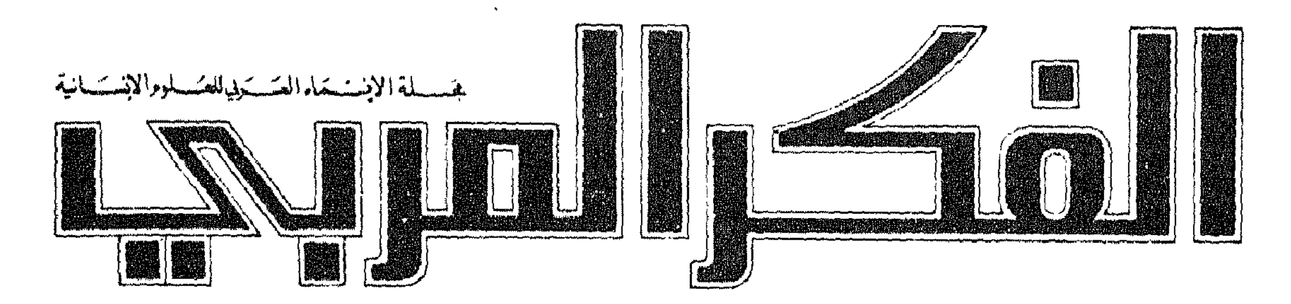
لبدة درويش موطنها جركند، من الصوف الأحمر ومبطنة بلباد خشن، ومطرزة بخيوط بنية وبيضاء وزرقاء.



قلنسوة كبيرة من كوتشا، شمال سنكيانج، وتتكون من سبعة أجزاء، وتصنع من القطيفة الحريرية، وتستورد القطيفة من الهند وتطرز بخيوط ذهبية وفضية.



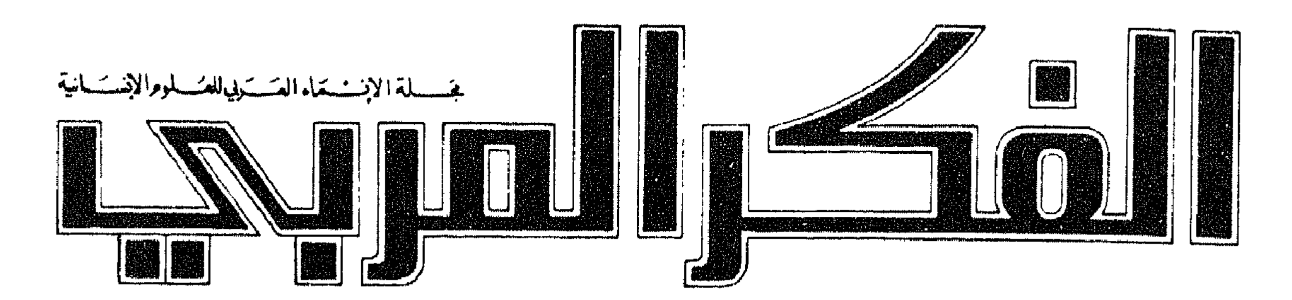
لبدة للصبيان، تبريز، فارس، وتتكون من ثمانية أجزاء، وتصنع من الديباج (البروكاة) ويستورد على الأغلب من تركيا، ويلاحظ أن اجزاء هذه اللبدة تلصق ولا تخاط.



أيلول (سبتمبر) تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨١ — العدد الثاني والعشرون — السنة الثالثة

الفكر السياسي العربي والفكر السياسي المعاصر I

• دراسات سياسية



تشرين الأول (اكتوبر) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١ | العدد الثالث والعشرون | السنة الثالثة

الفكر السياسي العربي
والفكر السياسي المعاصر II

. آفاق الفكر السياسي
. نصوص ومراجعات سياسية

المارشـــال بيتان

مُنقِذ أم خائِن؟

د. رياض العالي

اللقاء التاريخي بهتلر في مونتوار!



يقال إن الماريشال لم يعد فارغ اليدين، من تلك البلدة الصغيرة. فقد كان شغله الشاغل إطلاق سراح قرابة مليوني جندي فرنسي أسير، كان يشعر أنه مسؤول عن أسر معظمهم. ذلك أن الخطاب الذي ألقاه الماريشال بيتان في السابع عشر من حزيران، قبل الأتفاق على الهدنة بين ألمانيا وفرنسا، أوحى إلى الكثيرين من قادة الجيش الفرنسي، أن ثمة هدنة عقدت بين البلدين، وأن على الجيش إلقاء السلاح. وهكذا، حين انطلق الجيش الألماني إلى مختلف اتجاهات فرنسا، وجد تجمعات الجيش الفرنسي تنتظر قدومه دون

هموم بيتان

هل كان لقاء «مونتوار» بين هتلر وبيتان، (٢٤ تشرين الأول ١٩٤٠) نصراً لبيتان؟ أم انه كان فرصة ذهبية، لم تقتنصها فرنسا، لتنهض من بين الأنقاض، حسب بعض المؤرخين؟



Le Petit Parisien

SAMEDI 26 OCTOBRE 1940

EDITION DE PARIS

24 octobre 1940

Une date dans l'histoire de la France et de l'Europe

QUATRE MOIS APRÈS L'ARMISTICE

LE MARÉCHAL PÉTAIN ET LE FÜHRER DU REICH ont eu, en zone occupée, un entretien décisif pour l'avenir de notre pays

M. VON RIBBENTROP ET M. PIERRE LAVAL ASSISTAIENT A CETTE RENCONTRE

Jeudi, le Führer a reçu le maréchal Pétain, chef de l'État français et président du Conseil des ministres. Le ministre des Affaires étrangères du Reich, M. von Ribbentrop, et le vice-pré-

مقاومة، فاذا هو يعتقلها جميعاً، ويعتبرها أسرى حرب.

في هذا الوقت كانت جموع الفرنسيين تهرب من المدن، وخاصة من باريس، ولكنها فوجئت بأن باريس قد أعلنت «مدينة مفتوحة» فعاد إليها معظم من هجرها.

على كل حال، لقد نص البند العشرين من إتفاقية الهدنة، على تحرير الأسرى الفرنسيين، بعد عقد الصلح بين ألمانيا وفرنسا. غير أن الماريشال بيتان كان يسعى يومياً، منذ تسلمه السلطات، إلى تحسين أوضاع الأسرى، وإلى الأفراج عنهم تدريجياً، إن أمكن. ولم تكن تصل من معسكرات اعتقالهم أية أنباء، ما عدا القليل، بواسطة الصليب الأحمر في جنيف.

كان الاقتصاد الفرنسي بحاجة شديدة إلى جهود المليوني أسير. وكان الماريشال يحاول استعادة الفلاحين والتقنيين الذين كان يعتمد عليهم ليقوم «بثورته الوطنية»، ثورة إعادة بناء فرنسا.

من جهة ثانية كان الألمان قد جزّأوا فرنسا عملياً، ورسموا بين الأجزاء حدوداً وحواجز لم يكن يسمح للفرنسي باجتيازها إلا بعد تفتيش دقيق، ومعاملات طويلة. حتى الوزراءالفرنسيون كانوا يخضعون للتفتيش والمراقبة.

وكان الألمان، خلافاً للهدنة، يضاعفون من المراقبة وتقسيم فرنسا، بالاضافة إلى جعل أقسام منها محرمة، وضم الألزاس واللورين نهائياً إلى ألمانيا. كما أن قطاع فرنسا الشمالي ــ الشرقي قد هجره أهله تماماً، فتسلمته ألمانيا لتستغله كما تشاء.

كل هذه الهموم كانت ترهق الماريشال بيتان. وكان يصارح من حوله بأنه عازم على التخفيف منها بأية وسيلة.

قام الوفد الفرنسي في لجنة الهدنة في ويسبادن بنشاط حثيث، يضاف إليه جهود لافال نفسه، وكان ذلك بوحي من رئيس الدولة الذي يطمح إلى إزالة تقسيم فرنسا، فحكومة فيشي لا يقع ضمن نطاق سلطتها إلا الأراضي الفقيرة، وإلى إعادة القوى العاملة الأسيرة حتى ذلك الوقت.

ولكن المفاوضات باءت بالفشل، على الأقل بالقياس إلى الماريشال، ذلك أن رئيس الوفد الألماني إلى مفاوضات الهدنة قدم عرضاً مكتوباً يطلب فيه هتلر ثمانية مطارات مغربية، ومحطتي رصد في إفريقيا الشمالية، وخط تونس ــ الرباط الحديدي، والموانىء على جانبي البحر الأبيض المتوسط.

كانت هذه المطالب مربكة. السابع عشر من تموز أجاب بيتان على مطالب هتلر بقوله: «وحدها المفاوضات يمكن أن تحل مثل هذه القضايا... وأعتقد أن بلادي تستطيع أن تسمع صوتها لما فيه الخير. لي كبير الأمل، بعد أزمان من النفور بين بلدينا، أن يجدا الطريق إلى التفاهم».

كانت ألمانيا تريد تجنيد شمال إفريقيا ضد إنكلترا، وكانت هذه نقطة يمكن لبيتان ولافال أن يساوما عليها. وحين قامت قوات فيشي بالدفاع عن المرسى الكبير ضد الغارات البريطانية، أثبتت فيشي أنها تحترم تماماً

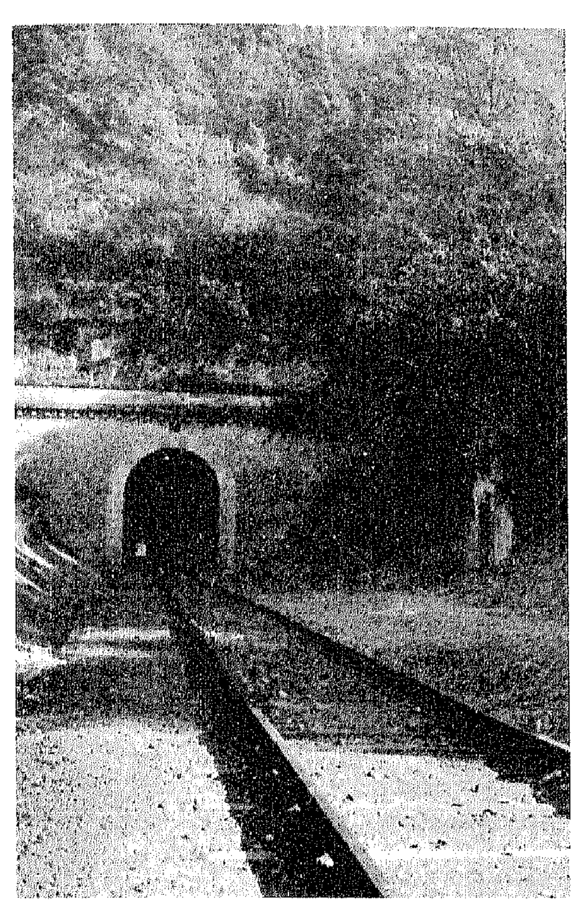
الهدنة. وكان حياد الأسطول الفرنسي والأمبراطورية الفرنسية لصالح المحور. مما يفرض على الألمان أن «يدفعوا الثمن» حسب قول لافال.

ولكن الفوهرر غضب لرفض الحكومة الفرنسية مطلب القواعد في إفريقيا الشمالية. لذلك لم يطلق سراح إلا قلة من الأسرى الفرنسيين، ممن كان تسريحهم نافعاً للمصالح الألمانية، كالمزارعين وعمال البريد. أُجلّي وزير المال الفرنسي عن باريس، ورفعت تكاليف جيوش الأحتلال إلى أربعمائة مليون فرنك في اليوم. الأشارة الوحيدة إلى بقاء الألمان غير أبدي، هي المفاوضات بين بيير لافال وبين أوتوابتز الذي رقّعه رينبتروت إلى رتبة سفير في فرنسا، مركزه باريس، وشغله الشاغل الحفاظ على فرنسا ضعيفة داخلياً، وإبعادها عن القوى المعادية للرايخ. كان آبنتز يبحث عن إقامة صلات طبيعية مع الفرنسي الوحيد الذي يحمل إجازة مرور عبر الحدود الفاصلة.

انتشى لافال برغبة آبنتز، فقدم أموراً عملية دليل تعاون في المجال الحربي (مائتا طيار يستطيعون تأمين الدفاع عن البلاد ضد غارات الطيران البريطاني) والمجال الأقتصادي (بيع منتجات المستعمرات مقابل المصنوعات الألمانية).

ماشى الماريشال هذه المساومات، وأرغم على طرد سفراء بلجيكا وهولاندا واللوكسمبورغ إرضاء للألمان. ثم في السادس من أيلول، استبدل الجنرال ويغان رئيس وفد فيشي في ويسبادن، بالجنرال هنتزيجر الذي وقع إتفاقية الهدنة في حزيران عام ١٩٤٠ في ريتوند. ومنح ويغان سلطات مطلقة في الشمال الأفريقي. كانت فيشي بحاجة إلى رجل قوي ليحول بين الأمبراطورية وبين الطموحات الدوغولية التي سيطرت في تشاد، وكونغو، وكامرون. وكان على ويغان كذلك أن يقاوم تطلعات المحور إلى المغرب.

كان بيتان يعول على الشمال الأفريقي لتطوير موقف هتلر من فرنسا: ٢٣ أيلول رد الجنرال بواسون محاولة الدوغوليين، يدعمهم البريطانيون، الانزال في دكار. فقد قصف

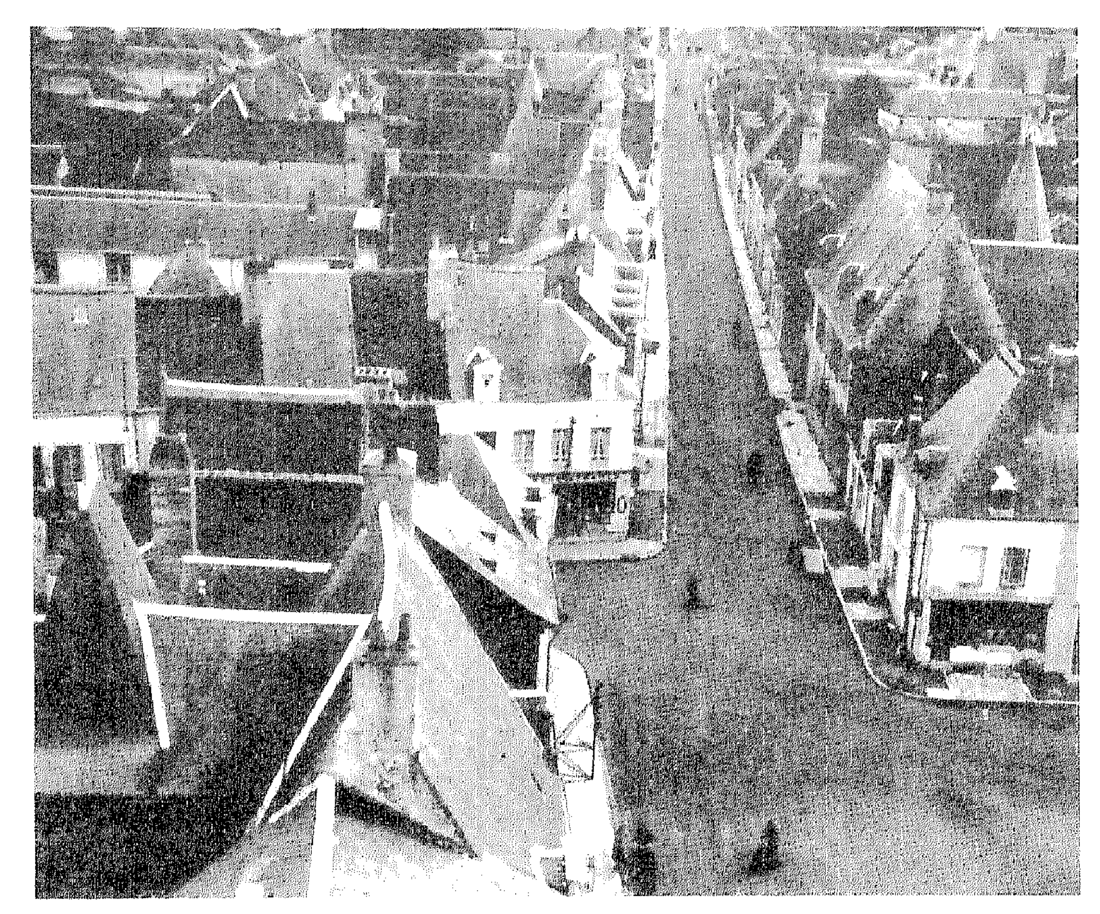


النفق الآمن قرب مونتوار.

الطرادان مونتكالم وجورج ليغ، تدعمهما المدمرة ريشيليو الفصائل البريطانية. وقد أمر تشرشل نفسه، يومذاك، بالأنسحاب خوفاً من أن تنعكس الآية.

لقد برهنت هذه المعركة لهتلر أن حكومة فيشي ملتزمة الحياد. مما أتاح لطموحات جديدة لبيتان ولافال وهنتزيجر، إذ راح كل منهم يحاول بطريقته، أن يحصل من ألمانيا على شروط صلح مناسبة، وتخفيف قسوة بنود الهدنة. في أيلول، أعطى الماريشال أمره إلى الكولونيل فونك، الطيار المشهور في حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨، بالاتصال بصديقه غورينغ، ليسبر غوره حول مفاوضات قمة. بينما ذهب سكابيني، وزير الأسرى، إلى برلين ليناقش مشكلة تحرير الأسرى. وكان سكابيني من مشوهي الحرب العالمية الأولى، وكان أعمى!

كذلك قام لافال من جهته، بمحاولة مع آبتيز، ليهيء له لقاء مع رينتروب. وفي الفترة ذاتها



كل الفرنسيين في مونتوار كانوا ممنوعين من التجول خلال الأعداد للقاء هتلر ــ بيتان، وأثناءه.

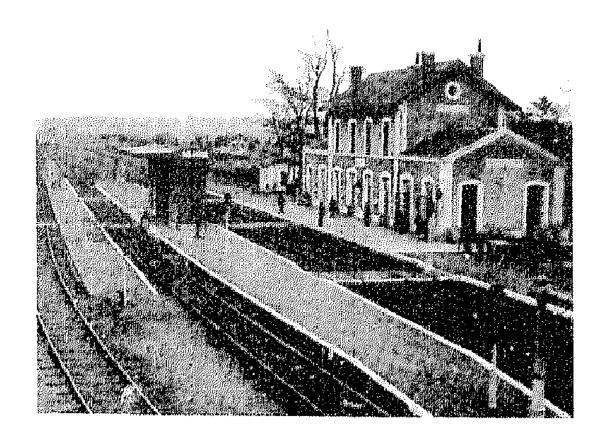
(١١ تشرين الأول) ألقى بيتان خطاباً قال فيه: «ستعرف فرنسا كيف تسيطر على انكسارها» إذا «سيطرت ألمانيا على انتصارها، ورفضت صلحاً قسرياً».

خطط هتلر

إستحالة اجتياح إنكلترا بعد الخامس عشر من شهر آب، جعلت الفوهرر ينضج ستراتيجية بديلة هدفها الأساسي اجتياح روسيا، والثانوي احتلال شمال إفريقيا. فلئن نجحت ألمانيا، شكلت مع حليفتيها إيطاليا واليابان قوة كبيرة، فتحولت إنكلترا إلى قوة لا يؤبه لها، ولن تستطيع الولايات المتحدة نفسها أن تخف إلى إنقاذها.

ولكن القيادة في برلين(O.K. W) تخوفت من فتح جبهة ثانية في الشرق، وحاولت صرف مطامح هتلر إلى ضفتي المتوسط. فقد كان قادة الجيش راغبين في احتلال جبل طارق والتدخل ضد الأنكليز والديغوليين في إفريقيا. جرت بين الجنرالين ستولبناجل وهنتزيجر مفاوضات مشجعة حول هذه النقطة. وأكد مندوب فيشي عزم حكومته على محاربة المنشقين، وتوصل، بموافقة إيطالية ــ ألمانية، على إعادة تكوين الجيش الفرنسي في إفريقيا (١٢٠ ألف رجل، ١٤ فصيل مدفعي، وأربعة فصائل قناصة). وسمح للقوة البحرية باجتياز جبل طارق إلى المستعمرات. وصدرت اقتراحات عن قادة ألمان لاقناع هتلر بمساهمة فرنسا في المعركة ضد بريطانيا.

ولكن إيطاليا وإسبانيا كانتا على شأن كبير في هذه المسألة. لهذا سافر وزير خارجية إسبانيا، سرّانو سونر، إلى برلين في منتصف أيلول. كان هتلر يود من فرانكو أن يكون شريكاً كاملاً في الحلف الثلاثي، وأن يسمح للجيش الألماني باجتياز إسبانيا باتجاه جبل طارق. فطالب سونر بثمن باهظ: المغرب، ووهران، ومساعدة



محطة القطار في مونتوار: صمت وانتظار

إقتصادية ضخمة.

رفض هتلر، ولكنه تمسك بأمل إقناع فرانكو في لقاء مباشر، وُلد التفكير فيه خلال المحادثات. بينما كان فرانكو راغباً عن كل الحروب، بعد أن أمضت بلاده أربع سنوات في حرب أهلية مدمرة. وقد بلغ ذلك الموقف الماريشال بيتان، سراً.

الرابع من تشرين الثاني، لقي هتلر موسوليني في برينر. وجرى اقتسام الأمبراطورية، فكانت نيس، وكورسيكا، وتونس، ودجيبوتي من نصيب إيطاليا. ومراكش مع الدار البيضاء وأغادير، وإفريقيا الغربية من نصيب ألمانيا. وكان على الجيش الايطالي احتلال مصر، بينما يحتل الجيش الألماني جبل طارق. ومنحت فرنسا نيجيريا، لأن فرنسا فقدت الكثير. ولكن النظرية اصطدمت بعقبتين: إجتياز المنطقة الحرة، وشبه جزيرة إيبريا. فاذا خرق هتلر الهدنة مع فرنسا، وحياد إسبانيا، خاطر بفتح جبهات ضده، والتحاق الأسطول الفرنسي في طولون، بالأسطول البريطاني، ودخول الولايات المتحدة الحرب. كان هتلر يجهل الأتفاق السري بين فرانكو وبيتان. لذلك اعتقد أن اجتماعه بالاثنين يكفي لأقناعهما بالأتفاق معه على العمليات ضد بريطانيا.

لعبة لافال

٢١ تشرين الأول. أمر هتلر آبتز أن يحضر لمؤتمر يعقد مع الفرنسيين، خلال رحلته إلى لقاء فرنكو في هنداي. في اليوم ذاته أبلغ بيتان إنكلترا بواسطة السفراء في مدريد أنه سيرد على كل المحاولات البريطانية ــ الديغولية، ومن جهة ثانية، لن يحاول استرداد الأراضي التي تحالفت مع فرنسا الحرة، شرط أن تتخلى إنكلترا عن الحصار الذي ضربته على الأمبراطورية.

كان الجو الدبلوماسي مشحوناً بالغموض، حين تلقى لافال دعوة آبتز بالحضور إلى باريس في ٢١ تشرين الأول. وقد استبعد بدوان من هذه المسألة.

٢٢ تشرين الأول، وصل لافال إلى باريس، مع مساعده برينون. ركب الأثنان سيارة ألمانية، خفرتها قافلة، واتجه الجميع نحو الجنوب. كان الغداء في «تور». وعندئذ أخبر آبتز لافال، أن من سيستقبله هو آدولف هتلر.

كان اللقاء في مدينة مونتوار الصغيرة، التي لا يزيد عدد سكانها عن /٢٧٠٠/ نسمة. وتقع في اللوار ــ إي ــ شير، على بعد ١٨٠ كم من باريس. كانت المدينة منذ الصباح تحت الرقابة الشديدة. وكان النفق الذي يعبره القطار ملجأ أميناً يحمي من أي قصف جوي.

وصل قطار هتلر المصفح في الساعة (١٨). دخل لافال قاعة صغيرة في المحطة الساعة (١٩). أخذت له بعض الصور. قاده ريبنتروب إلى المقطورة. كان الجو مظلماً، وفجأة وجد لافال نفسه تجاه هتلر.

كان جو المحادثات ــ حسب المترجم شميدت ــ عاصفاً. ولكن لافال حاول كسر حدة موقف هتلر، بلباقته المعهودة، وتوكيده على رغبته في إقامة علاقات طبيعية بين فرنسا وألمانيا. كان هتلر يتكلم معظم الوقت، مازجاً في حديثه التهديد بالوعود. فاذا كانت فرنسا تنتظر نهاية الحرب للتعاون فانها ستذل، أما إذا ساهمت في انكسار انكلترا فانها لن تفقد من مستعمراتها، خصوصاً الأفريقية، إلا القليل.

لخص هتلر اللقاء بدعوة بيتان إلى لقائه عند عودته من هنداي، في الرابع والعشرين من تشرين الأول.

رحل لافال إلى تور ليهتف إلى الماريشال بيتان. وأبقى ريبنتروب دوبرينون للغداء معه في مونتوار. وترك قطار هتلر المحطة الساعة الرابعة



هتلر يطلب الاذن من بيتان لمراقصة «فرنسا» الرسم من جريدة «LARAZON» بونيس ايرس في ذاك التاريخ.

صباحاً باتجاه الحدود الأسبانية.

مضى نهار ٢٣ تشرين الأول، مليئاً بالقلق والتساؤل، ففيشي تحاول معرفة متطلبات هتلر، وحدود فرنسا، ودور لافال في هذه المسألة التي أعدت دون مساعدة المستشارين الدبلوماسيين الرسميين؟

حاول بودوان، الذي استبعد من الأحداث، أن يثني بيتان عن لقاء هتلر. دعمه في محاولة إقناعه الدكتور مينيترل، الذي كان يرى حظّ بيتان قليلاً، تجاه هتلر المتفوق عليه حيوية وشباباً ودهاء.

وافق بيتان على آراء مستشاريه، ولكنه قال إن لافال هو الوحيد المسموعة كلمته لدى الألمان، ولا بد من الذهاب إلى لقاء هتلر.

لخص لافال لبيتان ما جرى في لقائه مع هتلر، وأكد له أن اجتماعه بهتلر الفرصة الوحيدة لتحقيق ما يمكن تحقيقه بالقياس إلى مسألة الأسرى، ومسألة الحدود.

خيبة أمل

في ذلك الوقت الذي كانت فيه فيشي تعد للقاء بيتان ـــ هتلر، وتترقب نتائج لقاء هتلر ـــ فرانكو، كان هتلر يمنى بخيبة أمل كبرى في لقاء فرانكو. فقد استغل فرانكو ظروفاً قاسية على المحور، ليطالب بأمور لم يكن هتلر ليقبلها مهما كانت الظروف. فقد فشلت الجيوش الأيطالية في احتلال مصر، وأوقف زحفها عند سيدي براني. وفتح موسوليني جبهة ثانية في اليونان، كانت أشبه بالكارثة، فان الجيش في ألبانيا كبده خسائر طائلة.

لذلك قال فرانكو لهتلر إنه لا يستطيع ربط مصيره بالمحور دون أن يعطى: كاتالونيا، والمغرب، ووهران. وقال إنه لا يستطيع السماح للألمان بمهاجمة جبل طارق، خوفاً من هجمات بريطانية على طول الساحل الأسباني. ولذلك لا يمكنه الأنضمام إلى المحور.

عاد هتلر من اللقاء منزعجاً جداً. وأدرك أن لقاء بيتان لم يعد ذا شأن كبير إذ لا بد لنجاح خطط هتلر من الأتفاق مع فرنسا وإسبانيا سوية.

لقاء هتلر ـــ بيتان

حيت ثلة من الحرس الألماني سيارة الماريشال بيتان عند نقطة الحدود الفاصلة (حسب شروط الهدنة). كانت تلك أول رحلة للماريشال إلى القطاع المحتل من فرنسا.

كان الغداء في تور بصحبة آبتز، تبعته قيلولة حتى الساعة (١٧)، ثم سارت القافلة من جديد، وكان لافال ودوبرينون بصحبة الماريشال.

عند بلوغ المحطة، استقبل بيتان استقبالاً حافلاً، إذ كان حرس هتلر الخاص مصطفاً يؤدي التحية، وكان كايتل وريبنتروب في استقبال رجل فردان. على الرصيف كان هتلر نفسه ينتظر، سار هتلر لاستقباله وآلات التصوير تلتقط الصور، فيما تنيرأضواؤها ظلام الليل.

كان الاجتماع ـــ حسب المترجم شميدت ـــ حُبياً، يهيمن عليه هتلر أغلب الأحيان. ويمكن تلخيص الموقف الألماني بأن هتلر كان واثقاً من النصر، وتحطيم بريطانيا. وكان بيتان يستمع. فسأله هتلر عن موقف فرنسا، إذا قامت بريطانيا بهجوم ما. تحدث بيتان عن مصاعب بلاده، وعن حاجتها إلى استبعاد أي صراع. ثم

لافال في مقطورة هتلر.

الصمت يخيم على اجتماع هتلر ــ بيتان.

وجد الفرصة مواتية لطرح الأمور التالية: إذا كانت ألمانيا راغبة في صلح دائم فلا بد أن تظهر بعض التسامح فتخفف من قيود الهدنة، وشروط تحرير الأسرى.

كان هتلر ينتظر مثل هذه العروض. فلفت انتباه الماريشال إلى أن الجمهورية الثالثة وعدت في بداية الحرب بفرض عقوبات كبيرة على ألمانيا. وعرض عليه وثائق تثبت ذلك. وحين لاحظ الماريشال أنه لن يحظى بطائل من هتلر، وعد بدعوة الفرنسيين إلى التعاون.

ختم هتلر المحادثات المخيبة. فلا دخلت فرنسا الحرب ضد بريطانيا، ولا حصلت فرنسا، ولو على مسودة معاهدة صلح.

نتائج مقلقة

عاد بيتان من المحادثات تسيطر عليه روح التشاؤم. أما لافال الذي شهد المحادثات وملأ فراغها بتدخله كلما هيمن الفراغ على الموقف، فقد رأى أن «مونتوار» أدت إلى فكرة التعاون



ابتسامة هتلر وفرانكو لم تصل إلى نتيجة.

التي يجب إقناع الفرنسيين بها.

أعد لافال وآبتز، مساء، بروتوكولاً مكتوباً، أشبه بتقرير عن اللقاء: وقد اتفقا على محاربة أية خلافات تنجم بين الطرفين. أما تحرير الأسرى، وإعادة ضم المقاطعات الفرنسية المحتلة إلى سلطة فيشي، فستكون موضوع «محادثات تالية» و«إتفاقات خاصة». وأكد الجانبان أن «انكسار بريطانيا لمصلحة فرنسا وألمانيا». وبالتالي فان الأمبراطورية الفرنسية ستدافع عن نفسها ضد أي غزو بريطاني.

لم يؤد البروتوكول إلى نتيجة ما. مع ذلك استمرت المساومة. لم يكن الفرنسيون يعرفون شيئاً عن ذلك. ولكن الرأي العالم ما لبث أن أدرك حقيقة خيارات فيشي.

٢٦ تشرين الأول اجتمع مجلس الوزراء، وقرر أن التعاون هو الخيار الوحيد. ٣٠ تشرين الأول أذاع بيتان خطابه عبر الأذاعة: «ستظل فرنسا سيدة... هذه السياسة هي سياستي...» وختم: «يجب أن نكون مخلصي التعاون».

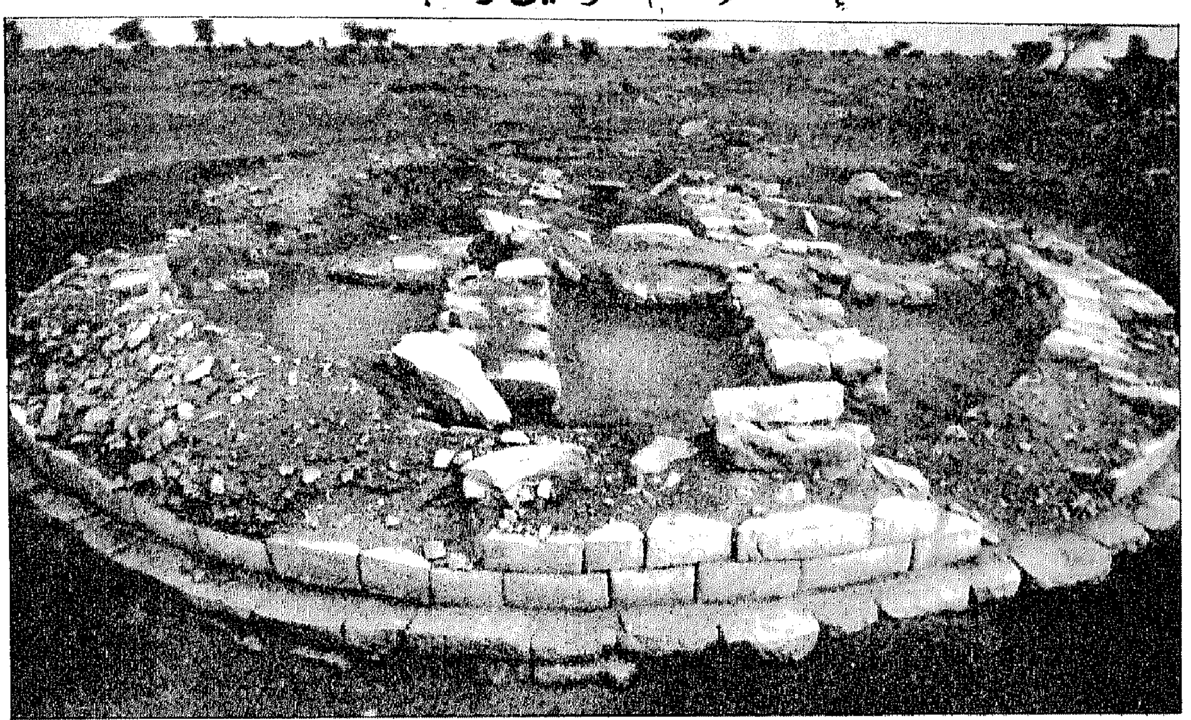
لئن كان عدد الفرنسيين الذين استجابوا قليلاً ــ كما تفيد التقارير ــ فان الخطاب كانت له آثار خارج نطاق العلاقات الفرنسية الالمانية. فتشرشل سارع إلى الأتصال بأخصام فيشي في إفريقيا واعداً بالدعم المطلق. وفي روما خشي الدوتشي أن يكون الأتفاق على حساب إيطاليا، ولكن هتلر طمأنه سلفاً، وأكد له أن مطالب إيطاليا مستجابة.

مهما يكن فان لقاء مونتوار ــ في رأي بعض المؤرخين ــ كان يمكن أن يغير وجه تاريخ الحرب العالمية الثانية. ●

المواقع الأثرية

في دولة الإمارات العربية المتحدة

إعداد قسم التوثيق والأبحاث





منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٧١ كانت البعثة الدانماركية تجري حفرياتها سنوياً في مواقع مختلفة من أبوظبي دون أن يكون هناك مسح شامل لمواقع الآثار. وايماناً من المسؤولين في دولة الامارات العربية المتحدة وعلى رأسهم سمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بضرورة كشف التراث الحضاري لهذا البلد، فقد قامت وزارة الاعلام والسياحة في دولة الامارات العربية المتحدة وعلى رأسها معالي الشيخ أحمد بن حامد بعقد اتفاقية ثقافية في مجال التعاون في الآثار مع وزارة الاعلام العراقية. وبموجب هذه الاتفاقية أوفدت مديرية الآثار العامة في بغداد في عام ١٩٧٢ بعثة للمسح لغرض اجراء مسح شامل لمواقع الآثار وتحديد أدوارها الزمنية وتثبيتها على الخرائط.

لقد تمكنت هذه البعثة من خلال تجوالها في الامارات والأراضي التابعة لها من كشف اثنين وسبعين موقعاً من ضمنها بعض الأبراج الحديثة. وأغلب المواقع المكتشفة تمثل مدافن أثرية مبنية من الأحجار تنتشر في أماكن مختلفة من الدولة، اضافة الى المستوطنات التي هي الآن عبارة عن أنقاض بشكل تلال متباينة الارتفاع والأشكال.

وهذه المدافن والمستوطنات ترجع الى فترات زمنية مختلفة أقدمها يرجع الى عصر جمدة نصر

في حدود نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تمثل ذلك العصر في مدافن جبل حفيت ومدافن أخرى. أما أحدثها فهي تلك المستوطنات التي ترجع الى العصور الاسلامية المتأخرة.

ومن الجدير ذكره أن موقعاً واحداً من العصور الحجرية كان قد كشف قرب مدينة العين، ومن المحتمل أن تكون هناك مواقع أخرى من نفس الفترة.

أما المواقع الأثرية المكتشفة إلى الآن والتي ثبّتت من قبل بعثة المسح العراقية على الخرائط فهي موزعة على الامارات بالشكل الآتي:

١ ــ أبوظبي	٩
٢ ــ دبي	٣
٣ ــ الشارقة	٢٣
٤ ــ رأس الخيمة	١٦
٥ ــ أم القيوين	٩
٦ ــ عجمان	٦
٧ ــ الفجيرة	٦

ولا يزال هناك العديد من المواقع الأثرية التي لم تكتشف إلى الآن. فعمليات المسح التي جرت لم تشمل جميع أراضي الدولة، فلا زالت هناك مناطق وجزر عديدة مثل جزيرة دلما وصير بني ياس تتطلب عمليات التحري والاستكشاف لغرض وضع أطلس شامل لمواقع الآثار وهذا ما يفكر به قسم الآثار في دائرة الآثار والسياحة كي يطلع العالم أجمع على تراثنا الحضاري.

المدافن الحجرية في جبل حفيت:

يعتبر جبل حفيت حداً جنوبياً لواحة البريمي حيث تقع مدينة العين ويبلغ ارتفاعه أربعة آلاف قدم وتتفرع منه سلسلتان متوازيتان تنتهيان عند مدينة العين من جهة تحصر بينهما بعض المرتفعات الجبلية الصغيرة. أقيمت فوق سفوح هاتين السلسلتين والمرتفعات المحصورة بينهما أقدم مجموعة معروفة من المدافن في أبو ظبي إلى الآن. حيث يرجع أغلب هذه المدافن الى العصر الزمني المسمى بعصر جمدة نصر في حدود نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (٣٢٠٠ ــ ٣٠٠٠ سنة ق. م). وقد سمي هذا العصر بهذا الاسم نسبة الى موقع جمدة نصر في وسط



أحد مدافن جبل حفيت قبل التنقيب.

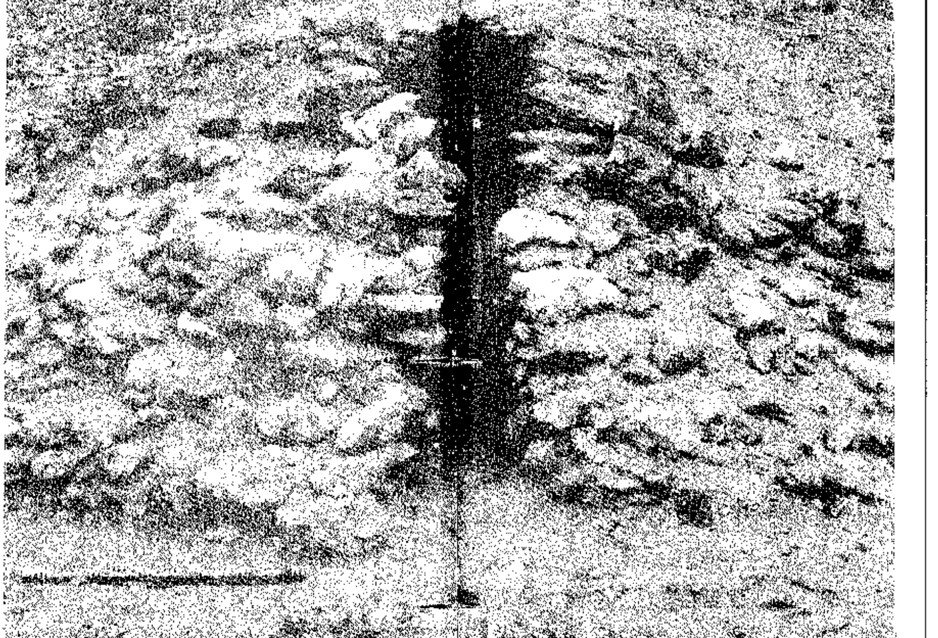
العراق حيث كشفت آثاره لأول مرة. لايمكننا في الوقت الحاضر من حصر عدد القبور المنتشرة في سلسلة جبال حفيت لكونها منتشرة في منطقة واسعة ممتدة من جنوب العين وحتى حصن مزيد وعلى سبيل التقدير لا الحصر يمكن القول بأنها تزيد على المئتين. وتنوي ادارة الآثار والسياحة اجراء مسح لتثبيت جميع هذه المدافن على الخرائط وذلك في المستقبل القريب.

لقد تولت البعثة الدانماركية أعمال التنقيب في مدافن جبل حفيت فاختارت مايزيد عن الخمسة والعشرين مدفناً نقبت جميعاً خلال مواسم متعددة. لقد كان الهدف الرئيسي من اختيار هذا العدد الحصول على أكبر كمية ممكنة من المواد الأثرية لدراستها والتعرف على

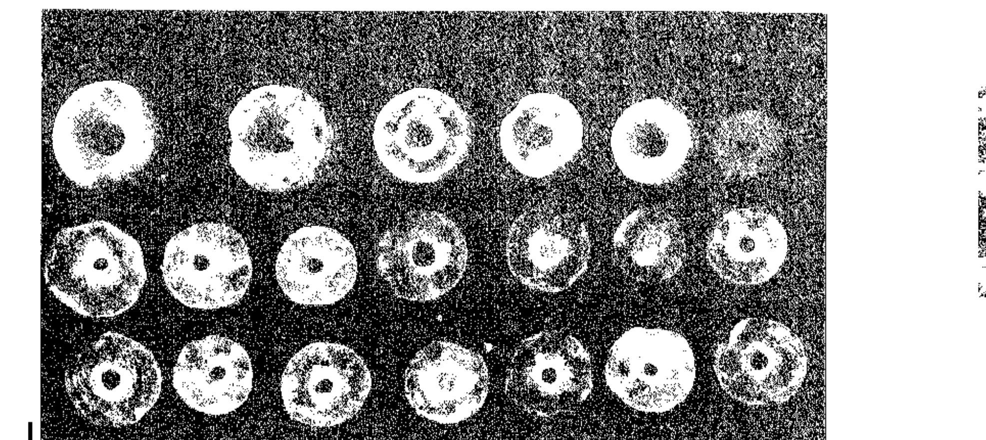
مدفن آخر من مدافن جبل حفيت بعد التنقيب.

الاقوام التي صنعتها. ان أغلب المدافن التي اختيرت للتنقيب هي تلك التي سرقت حجارتها المنتشرة على سطحها العلوي وذلك لسهولة تنقيبها حيث أن مثل هذه المدافن لا تحتاج الا إلى مجهود بسيط للوصول الى قلب المدفن. لقد تبين بعد الحفر بأن أغلب هذه المدافن قد سرقت في فترات زمنية بعيدة عن طريق فتح حفرة وسطية تنزل الى اللحد الذي يتوسط المدفن وقد أثبتت الحفريات في عدة مدافن بأنها جميعاً متشابهة الى حد بعيد.

استعملت الحجارة المحلية غير المهندمة في بناء هذه المدافن وقد رتبت بشكل صفوف الواحدة فوق الاخرى حول فراغ دائري أو بيضوي بمثابة حجرة الدفن. لقد تم البناء على سطح الأرض مباشرة دون الحفر فيه وقد روعي في جعل فتحة لكل مدفن من جهة الجنوب بشكل ممر ضيق. ويتراوح قطر كل مدفن قبل التنقيب من ٧ ــ ١١م أما الارتفاع فيتراوح من ٣ ــ ٥ وأقصى قطر لغرفة الدفن من الداخل هو ٢م. ان أكبر هذه المدافن (رقم ٢٢) اذ يبلغ قطر حجرة الدفن فيه ٢,٨٥م وترتفع ٢,٦م وأصغرها رقم (١٩) قطر حجرته ١,٣٥ × ١,٢٥م أما معدل عرض المدخل المؤدي الى غرفة الدفن فهو (٥٠ سم) وغالباً ما يسقف مثل



جبل حفيت. المدفن رقم (٩) بعد التنقيب ــ المدخل مواجه للجنوب.



مجموعة من الخرز أغلبها من العقيق عثر عليها في جبل حفيت.

هذا المدخل أو الممر بصورة كلية أو جزئية بحجارة مسطحة كبيرة.

أما المستكشفات الأثرية التي وجدت داخل هذه المدافن فقليلة بصفة عامة تمثل بعض السهام والخناجر والسيوف والأواني البرونزية وكميات من الأواني الفخارية المخروطية الشكل والخرز المصنوع من المواد المختلفة. ومن الجدير بالذكر ان مدافن عديدة وجدت خالية من الآثار بل ومن العظام أحياناً وهنا تكمن الصعوبة في تحديد تاريخ مثل هذه المدافن.

ان الأواني الفخارية التي اكتشفت في بعض هذه المدافن ذات قواعد مسطحة وأبدان مخروطية ذات رقبة اسطوانية قصيرة وحافات مسطحة مائلة الى الخارج، فقد وجدت في المدفن رقم ٢٢ ثلاثة أواني من هذا النوع ويشير وجود هذه الأواني والآثار الأخرى الى أن الناس الذين دفنوا موتاهم في هذه المقابر كانوا يعتقدون بفكر الحياة بعد الموت وهذا ما اعتقد به فيما بعد السكان الأقدمون لهيلي وجزيرة أم النار وبديع بنت سعود. وفي بعض المدافن الأخرى عثر على ما يقارب الأربعمائة خرزة وسهم برونزي ورقي الشكل اضافة الى الأواني الفخارية المذكورة. أما المدفن رقم (٢٣) فقد عثر فيه على اناءين ودبوس من البرونز طوله

١١ ــ ١٢ سم ونصل خنجر مثلث الشكل قياسة ٢١,٥ × ٦,٣ سم ذو ضلع خفيف.

ان أغنى مدافن جبل حفيت هو المدفن رقم (٢٠) حيث سقط هذا المدفن فحافظ على الموجودات الأثرية التي يضمها اذ لم يتمكن اللصوص من سرقته. عثر في هذا المدفن على اناء مزخرف من حجر الستيتايت واناءين برونزيين أحدهما ذو مصب، عثر عليهما على مقربة الرأس وعثر كذلك على زر مسطح من الصدف الأملس قرب منطقة الحوض ولسان حزام من البرونز وسيف برونزي قصير طوله ٤٢,٥ سم. نقش هذا السيف في منطقة الاتصال مع المقبض بدوائر متداخلة وليس لهذا السيف مثيل في أي مكان من الشرق الأوسط. ان أقرب سيف يمكن مقارنته بسيف حفيت هو سيف من لورستان في غرب ايران يعود الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد ونظراً لوجود هذا التشابه بين هذين السيفين فيمكن اعطاء نفس هذا التاريخ لمدفن حفيت الذي عثر بداخله على هذا الأثر.

أما بالنسبة الى طريقة الدفن فتشير العظام التي لازالت في أماكنها الأصلية في بعض هذه المدافن ومنها المدفن رقم (٢٠) الى أن الجسم قد سجي على جانبه والرأس متجه الى الشرق. ومن الجدير ذكره بأن غرف الدفن هذه تتسع لأكثر من جثة واحدة حيث عثر في أحد هذه المدافن على بقايا لأربعة جماجم بشرية.

وينبغي الاشارة ان دائرة الآثار والسياحة في أبوظبي قامت باستئناف التنقيب في مدافن جبل حفيت حيث تمكنت في موسم ١٩٧٣/١٩٧٤ من كشف عشرة مدافن أخرى وبذلك يصبح مجموع المدافن المنقبة إلى الآن خمسة وثلاثين مدفناً.

تقع المدافن العشرة على السفوح الشرقية لحفيت قرب حصن مزيد على بعد ٢٥ كيلومتراً عن مدينة العين وقد كشف عن مدفن واحد بشكل مستطيل (٣,٧٠ × ٣,٢٠) وآخر بيضوي مقسم من الداخل الى ثلاثة أقسام، أما بقية المدافن فجميعها بأشكال دائرية غير منتظمة تتجه أغلب مداخلها نحو الجنوب.

أما المسكتشفات الأثرية التي عثر عليها داخل هذه المجموعة من المدافن فقليلة أهمها ختم منبسط من الرخام الشمعي شبيه بأختام ديلمون المعروفة. لقد نقش الوجه الداخلي لهذا الختم بشكل انسان واقف مرتدياً مغضنة قصيرة حاملاً بيديه المرفوعتين بموازاة كتفه عصاة يتدلى من طرفها ثقلان، ويقف عند الكتفين طيران متقابلان. وفي الجزء السفلي من الختم توجد في وسط كل منهما نقطة صغيرة وتتفرع من كل دائرة خطوط أشبه بالأشعة.

أما الوجه الخارجي فينقسم الى قسمين متساويين بواسطة ثلاثة خطوط محفورة وفي كل قسم توجد دائرتان متقابلتان في وسط كل منهما، والختم مثقوب بشكل أفقي.

ومن المكتشفات الأخرى رأس صولجان معرق اضافة الى أدوات الزينة كخرز العقيق والكريستال والحجر الطباشيري الأخضر. وعثر كذلك على حلقة من العقيق وأساور برونزية. ومما يجدر ذكره أن المخلفات العظمية قليلة جداً ولم يعثر على هياكل عظمية كاملة بل عثر على عدد من الجماجم البشرية وعلى مجموعة قليلة من العظام المهشمة. ●



وَصْفُ الطّرفة في كُتُبِ الكحل

مِن حنَين بْن اسحق إلى ابْن النّفيس

د. مؤنس محمود غانم



نستعرض فيما يلي ما ذكره الأطباء العرب عن أحد أمراض العين وهو (الطرفة). ونحن نعلم أن العرب قد برعوا في جراحة العيون بشكل خاص، مما جعل الدكتور ماكس مايرهوف يقول (لقد بلغ طب العيون عند العرب حداً يدعو إلى الدهشة والإعجاب حقاً).

ويسير بحثنا هذا وفق تسلسل منطقي وزمني من الأقدم إلى الأحدث بدءاً من القرن التاسع: عصر حنين بن اسحق والرازي؛ مروراً بالقرن العاشر: عصر القمري وعلي بن عيسى؛ وإنتهاء بابن النفيس في القرن الثالث عشر.

ومن خلال هذه المسيرة التي تستغرق خمسة قرون سنرصد تطور وصف الطرفة مدللين إلى أن هذا المرض ما زال موجوداً بيننا وإن اختلف أسلوب وصفه اليوم.

ما هي الطرفة؟

الطرفة عبارة عن الدم الذي ينصبّ إلى ملتحمة العين بسبب تمزق في الأوردة بتأثير رض موّجه نحو العين، وقد تنجم الطرفة عن خراج كان موضعاً ثم انفجر بعد ذلك، وقد يكون السبب لاهذا ولاذاك وإنما اصابة في عناصر الدم بالذات.

أما علاج الطرفة فيختلف حسب حالة المريض، فإن تشاركت مع جرح الملتحمة نفع فيها كثيراً تقطير الملح والكمون، وكذلك ينفع في هذا السبيل ورق الخلاف. وإن كان النزف شديداً واحمرار العين طافح فلا بد من تقطير بياض البيض الرقيق ومن بعده تضميدها بالأشياء المانعة مثل اكليل الملك والزعفران وأصل السوسن ودم الأخوين.

وصف الطرفة عند العلماء العرب

١ ـ الطرفة عند حنين بن إسحق[1]:

تذكر ما قاله حنين في كتابه (المقالات العشر في العين) والذي حققه المستشرق د. ماكس مايرهوف وطبع في القاهرة سنة ١٩٢٨:

الطـرفـة دم ينصب في الملتحم من تمـزق الأوردة التي فيه، وأكثر ذلك إنما يكـون عن ضربة، ويقال له (هيبو سفا غما).

العلاج: أن تقطر في العين دم الحمام أو دم الورشان، وهو دم حار ولبين إمرأة وهو حار معه شيء من كندر مسحوق. أو قطِّر فيها ماء الملح، وكمِّد العين بماء قد طبخ فيه صعتر وزوفا يابس، فإن كان في العين ورم فضمدها بضماد يتخذ من الزبيب المنزوع العجم مسحوقاً مع ماء العسل أو مع خلّ، فإن لم يتحلل فاخلط فيه فجلاً مدقوقاً، فإن لم يتحلل فاخلط فيه شيئاً من خرء الحمام.

٢ ـ الطرفة عند أبي بكر الرازي[٢]:

نذكر مـا قالـه الرازي في كتـابه الجـامع (الحاوي في الطب) عن نسخة فلوراي شريف ونسخة الأسكوريال برقم ٨٠٦ مدريد:

وأما الطرفة فهو دم ينصب إلى الملتحم ثم يخرق الأوراد التي فيه، وهو ضربان إما أن ينخزق الملتحم معه، وإما أن لا ينخزق جوهر الملتحمـة ولكن بعض أوردته وذلـك يكون من ضربة ونحوه. قال بولس في علاج الطوفة: قطِّر في العين دم الحمام أو لبن إمرأة حين يحلب، مع شيء من كندر. أو إسحق شيئاً من الكندر ويصير في ماء وملح ويقطر في العين، أو قطِّر في العين شيئاً من ملح اندراني وكمِّد العين بطبيخ الزوفا اليابس. فأما الورم والدم الحادث عن ضربة فيصلح أن يكمد بالخل والماء، ويفعل ذلك متصلاً دائماً مرات كثيرة، ويوضع على العين اسفنج قد غمس في الخل والماء ويعصر الفجل مع زبيب منزوع العجم. وإن كان الورم يُخاف أن يزيد فضمد بالأشياء المانعـة: اسلق ورق الكرنب وضمِّد به العين بعد أن لا ينفع الدم ونحوه، واطبخ صقراً في الماء وكمِّده مرات وبلَّ فيه خرقة وضعها على العين. أو يكبّ العين على بخاره دائماً، ثم ضع عليه إسفنجة بخلّ وماء فـإن لم ينجح وبقي الـورم والحمرة بحـالهـا، فاسحق الخردل بالماء وضعه عليه.

٣ ـ الطرفة عند القمري[٣]

نذكرهـا من خلال مخطـوط لم يحقق بعد للقمري عنوانه (غنى ومنى):

سبب الطـرفـة دم ينصب إلى الملتحم من إنخراق أوردة من ضربة أو سقطة أو نحوها. ويكون في الندرة من مدة ويقيح. وعلاجها: أن يقطر في العين دم فرخ حار من أصل جناحه، أو يقطر فيها مـاء الكرفس الـرطب، أو بعض طيور الماء أو دم ورشان مفرداً أو مـع الطين الأرمني أو قيمـولياً مقـداراً يسيراً، ويضـرب بيضة مع دهن ورد ويوضع على العين ويمسك العين على بخـار ماء الـورد الممزوج بـالخل. وينفعه أيضاً دقيق بياض البيض ولبن الجواري إذا قطر فيها، ويقطر فيها شيء قليل من خرء الحمـام أو شـراب عفص ومـاء الـورد ولبن الجواري.

وقد جرب الشياف الدنيار جوني فوجد نافعاً، ويضمد العين بالزبيب المنقى والخل وورق عنب الثعلب والصبر والملح الأبيض.

والـذي يحدث عن المدة المتقيحة فيعـالج بالشياف الأبيض وشياف الآبار، أو يقطـر في العين لبن جارية وهو حار مع شيء من كندر مسحوق ويضمد العين بضماد متخذ من اكليل الملك ودم الأخوين وأصـل السوسن وعـدس وزعفران بدهن الورد وصفرة البيض، ويوضع على العين صوف لين قد غمس في بياض البيض المضروب مع الشراب أو دهن الورد.

وإذا ورمت العـين من ضـربـة أو سقطـة فافصد القيفال، وأمسكها على بخار الماء والخل. واضمدها بهـذا الضماد: قشر الفجـل وزبيب منزوع العجم يجمعان بالخل ويضمد بها.

صفة الشياف الدينار جوني:

إقليميـا الذهب واسفيـداج من كل واحـد عشـرة دراهم، كثيراء خمسـة دراهم، نحاس محرق درهمين، بسد ولولو ودم الأخوين من كل واحد أربعة دراهم، عروق درهم، زرنيخ أحمر وسكر طبرزو وقاقيا من كل واحد نصف درهم، أفيـون سبعة دراهم، لبـاب الحنطة درهمـين، زعفران درهمين، يدق وينخل ويتخذ شيافاً.

صفة شياف الآبار:

إقليميا مغسول وتـوتياء واسفيـداج وكحل وكندر من كل واحد درهمين، مرّ درهم، انزروت درهم ونصف، دم الأخوين درهم، أفيون درهم ونصف، يشيف.



تمثيل درس عن علاقة العين بالدماغ

ويشترط في أدوية العين أن يسحق حتى يصير مثل الهواء ولايتعاون بها. وبعد ذلك يستعمل على الصلابة مرة أخرى.

٣ ــ الطرفة عند علي بن عيسى[٤]

تذكر ما قاله علي بن عيسى في كتابه (تذكرة الكحالين) عن نسخة دار الكتب الظاهرية:

أما الطرفة فإنها دم ينصب إلى الحجاب الملتحم مع انخراق الأوراد التي فيه، وقد يعرض ذلك من ثلاثة أسباب أحدها من أحد الأسباب البادية التي تصيب العين فتخرق الملتحم، والآخر دم ينسكب إلى الملتحم من شدة ضربة تصيب العين من غير أن تخرق فيه عروق، والثالث يعرض بغتة من غير سبب بادٍ ويكون ذلك من دم حار منصب إلى الملتحم، وربما عرض أيضاً بعقب قذف شديد وقد يكون أيضاً من خراج.

العلاج:

إن كنت حذراً من حدوث ورم فيجب أن تبادر بفتح القيفال وتقطر في العين لبن جارية، فإن كانت الحمرة والورم والدم زائداً فقطر في العين بياض البيض الرقيق وضمدها بالأشياء المانعة، وإن لم يكن للورم أثر فيجب أن تقطر في العين في الإبتداء لبن جارية حاراً، أو دم فرخ تعصره من أصل الريش الصغار الذي تحت الجناح، أو مع الطين الأرمني. أو شيئاً من الرخام الذي يوجد في الطين الأخضر فإن تحلل وإلّا فاسحق الكندر وادفه بلبن إمرأة، وقطره في العين فإن تحلل وإلّا فقطر فيها ماء الفانخولة أو ماء الملح الأندراني، وكمِّد العين بماء قد طبخ فيه صعتر وزوفا يابس، فإن تحلل وإلّا فقطر

فيها ماء الفجل، وضمِّد العين أيضاً بقشور الفجل والزبيب مع ذرق الحمام. فإن كانت الضربة قد خرقت الملتحم فامضغ ملحاً وكموناً وقطرهُ في العين. ومما ينفع أيضاً الطرفة زرنيخ أحمر يسحق ويطرح في الماء ويفترويطرح ما صفا في العين، وقد تبخر العين أيضاً بكندر وأحشاء البقر فتبرأ الطرفة ومما ينفع أيضاً في الطرفة هذا الشياف. وصفته:

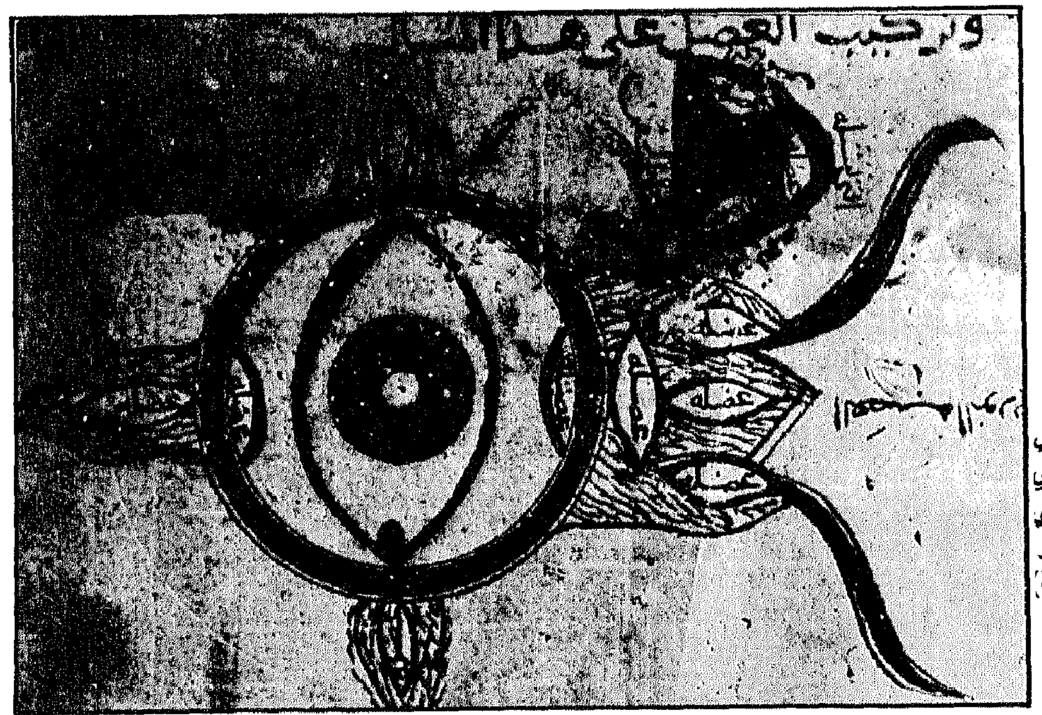
يؤخذ شاذنج مغسول ثلاثة دراهم، نحاس محرق درهمان، بسد لولو غير مثقوب من كل واحد درهم ونصف، صمغ عربي وكثيراء من كل واحد درهمان ونصف، فوفل مسحوق على حدة أربعة دوانيق ونصف، إسفيداج الرصاص درهم، زرنيخ أحمر ودم الأخوين وزعفران من كل واحد نصف درهم. تجمع هذه الأدوية مسحوقة وتجمع بدم الفراريج ويشيف وتداف وقت الحاجة بلبن جارية، ويستعمل جملة الأدوية أثني عشر دواء فإن كانت عن فتق خراج فعالجه بالشياف الأبيض وبشياف الآبار.

٤ ــ الطرفة عند ابن سينا[٥]

نذكر ما قاله ابن سينا عن الطرفة في كتابه الموسوعي (القانون في الطب) الذي نشرته مكتبة المثنى ببغداد:

الطرفة نقطة من دم طري أحمر أو عتيق مائت أكهب أسود قد سال عن بعض العروق المنفجرة في العين بضربة مثلاً أو لسبب آخر مفجر للعروق من إمتلاء أو ورم حتى يعتق فيه. ومن جملته الصحيّة الحركة العنيفة، وربما كان عن غليان الدم في العروق، وربما حدث عن الطرفة الضربية خرق لطيف في الحدقة والذي في الملتحمة من الخرق أسلم.

المعالجات: يقطر عليه دم الحمام أو الشفانين أو الفواخت والوراشين وخاصة من تحت الريش وإن كان في الإبتداء خلط به شيء من الرادعات مثل الطين المعروف بقيموليا والطين الأرمني. وأما في آخره فيخلط بالمحللات حتى الزرنيخ مع الطين المختوم. وقد يعالج بلبن إمرأة مع كندر والماء المالح وخصوصاً المعروف فيه ملح أندراني أو نوشادر، وخصوصاً إذا جعل فيه مع ذلك الكندر وقطر على العين منه، وأيضاً شياف دينار جون نافع منه جداً، ودواء متخذ من حجر الفلفل والأنزروت أجزاء سواء زرنيخ مثل الجميع، وقد يخلط بذلك ملح أندراني فيتخذ منه شياف وقد يضمد به من خارج بقلي محرق بالخمر أو بالخل، وكذلك ذرق الحمام بالخل أو الخمر أو زبيب منزوع العجم ضماداً وحده أو بخل أو بسائر ما قيل وخصوصاً إذا كان ورم. وكذلك الجبن الحديث



رسم تشريحي لاسحق العبادي من القرن الثاني عشر (دار الكتب ــ القاهرة)

والقليل الملح والجبن الحديث وقشر الفجل واكليل الملك مع دم الأخوين وأصل السوسن وزعفران، أو عدس بدهن الورد وصفرة البيض والإكباب على الماء الحار الذي طبخ فيه زوفا وزعتر أو التكميد به، أو خل طبخ فيه رماد أو نقيع اللبان مع الصبر أو ماء عصفر بري أو نقيع الزعفران، أو ماء طبخ فيه بابونج وأكليل الملك أو عصارتهما أو سلاقة ورق الكرنب أو التضميد بورق الكرنب مطبوخاً مدقوقاً. وللقوي المزمن خردل مدقوق مخلوط بضعفه شحم التيس ضماداً، أو زرنيخ محلول بلبن أو رمان مطبوخ في شراب يضمد به أو تانخواه وزوفا بلبن البقر، فإن حدث مع الطرفة خرق في الملتحم مضغت الكمون والملح وقطرت الريق فيه، وورق الخلاف نافع منه جداً إذا ضمد به.

٥ ـ الطرفة عند ابن النفيس(٦)

نذكر ما قاله ابن النفيس عن الطرفة في مخطوطه «مفتاح الشفاء» والذي حققه الدكتور نشأت الحمارنة:

الطرفة نقطة من دم طري أحمر أو عتيق باهت اللون أسود، وقد سال من بعض العروق المنفجرة في العين. الأسباب: قد يكون عن سبب بادٍ مثل الضربة أو سبب آخر كتفجر العروق من إمتلاء أو ورم حتى ينشق منه، ومن جملة الأسباب الصحية الحركة العنيفة، وربما كان من غليان الدم في عروق. وربما حدث عن الضربة خرق في الحدقة والذي يعرض في الملتحمة من الخرق فهو أسلم. الأعراض والعلامات: ما كان من سبب بادٍ فيعلم بالسير والبحث والمسابلة، وأما ما كان من إمتلاء أو ورم فيدل عليه تكدر العين وامتلاء عروقها وميلها إلى الجحوظ بما فيها من الورم.

المداواة:

يقطر عليه دم الحمام والشفانين والراشين والفواخت وخاصة من تحت الريش. فإن كان في الابتداء فيخلط معه الرادعات كالطين الأرمني وما شاكل ذلك، وإن كان في الإنتهاء فيخلط معه المحللات كالزرنيخ إن كان إندرانياً أو نوشادر وقد يضمد بذرق الحمام مع خل من خارج. ويضمد بإكليل الملك مع دم الأخوين وأصل السوسن وزعفران وعدس، والإكباب على ما قد طبخ فيه زوفا وسعد، أو قد طبخ فيه إكليل الملك وبابونج وعصارتها، والتضميد بورق الكرنب بعد طبخه ودقه. فإن عرض مع الطرفة خرق في الملتحمة، فامضغ الملح مع الكمون وقطر ما يجلب منها مع الريق عليه؛ وورق الخلاف نافع جداً. هذا مع مراعاتك أمر الإستفراغ إن حدست. وإن تم إمتلاء فافعل على القانون المقدم ذكره فإنه يكون فيه الشفاء إن شاء الله. ●

الأعلام:

(١) حنين بن اسحق: ولد في الحيرة سنة ٨١٠م وهو من قبيلة عباد، اشتهر بنقل الكتب من اليونانية إلى العربية والسريانية ومن مؤلفاته: المدخل في الطب، وقد خلف ولدين هما إسحق وداود... اشتغل الأول بالترجمة، والثاني بالطب.

(٢) الرازي: ولد في الري سنة ٨٦٤م وتوفي سنة ٩٣٢، ودعي جالينوس العرب، له مؤلفات كثيرة جداً تقدر بحوالي ٢٥٠ ولكن ضاع أكثرها، ومن أهم مؤلفاته برء الساعة، والحاوي في الطب وكتاب فيمن لا يحضره الطبيب. أصيب في أواخر أيامه بالساد ثم اختفى بصره ورفض إجراء الجراحة لأنه على حدِّ تعبير قد ملّ من كثرة ما شاهد من أمور الدنيا.

(٣) القمري: من أعلام القرن العاشر الميلادي. اشتهر بأمراض العيون وله مؤلفات عديدة ضاعت ولم يصل إلينا سوى هذا المخطوط.

(٤) علي بن عيس: يقال له عيسى الكحال، وقد اشتهر بصناعة الكحل في بغداد، ألّف كتابه الشهير تذكرة الكحالين الذي نقل إلى اللاتينية سنة ١٨٤٥؛ وله مؤلف ما يزال مخطوطاً بعنوان منافع الحيوان ويعتبر عيسى الكحال من أشهر أعلام القرن العاشر الميلادي.

(٥) ابن سينا: ولد في أخشنة سنة ٩٨٠م وتوفي في همذان سنة ١٠٧٣. وهو من أعظم ما أنجبت البشرية من عبقريات لقب بالشيخ الرئيس وهو حساب وطبيب وفيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأئمة مفكريهم. دافع عن خلود النفس ووحدة الخالق، وله مؤلفات عديدة أشهرها القانون في الطب، الشفاء، الإشارات والتنبيهات في المنطق، وكتاب النجاة وهذه كلها مطبوعة.

(٦) ابن النفيس الدمشقي: (١٢١٠ ـ ١٢٨٨) وكان رئيس أطباء مصر وهو أول من وصف الدورة الدموية الصغرى فسبق بذلك وليم هارفي الإيطالي بثلاثة قرون، ومن كتبه شرح تشريح ابن سينا والمهذب في الكحل المجرب ومفتاح الشفاء.

ميشال اسطفان



الفروق والاخطاء في طوابع البريد

بالمفهوم العام، ان الصح مقبول والخطأ مرفوض، ما عدا في هواية جمع الطوابع، ويا للعجب!؟

نعم، ان الطوابع البريدية المغلوط فيها، هي امر مهم جدا عند هواة جمع الطوابع، ولها قيمتها الخاصة، خلافا لغيرها من الاشياء الاخرى، التي اذا اعتورها، خطأ قلّت قيمتها وبيعت بابخس الاثمان.

ان قيمة الطابع المغلوط فيه، تساوي من ضعف القيمة الاساسية الى مئات الاضعاف احيانا، وتكون الاخطاء عادة في الطباعة الاساسية او في التوشيح او في التخريم او في العلامة المائية الى غير ذلك. ومهما كانت هذه



١





٢




٣



٤



٥



٦

الاخطاء فانه لا يمكن التفريق بينها من حيث قيمتها بطريقة منهجية، بل يُعتمد في ذلك على المظهر الخارجي، وما كان منها معدّلا للمعنى المقصود او للشكل، وهذه وحدها هي التي تُعطي الافضلية في العرض والطلب اللذين عليهما يتوقف تحديد القيمة. لذلك فضّلنا شرح بعض تلك الاخطاء، لاكثر من بلد عربي واجنبي، مع بيان صورها وقيمها الحالية. مثال ذلك:

طوابع فلسطين: ان الطابع الموشح «فلسطين» بثلاث لغات (صورة ١)، جاءت فيه الـ «ط» «ظ»، فصارت الكلمة «فلسظين بدلا من فلسطين»، وقيمته اليوم ما بين ١٥٠ و ١٤٠٠ جنيه استرليني، وذلك بالنسبة للفئة المغلوط فيها، من المجموعة المذكورة المؤلفة من ١١ طابعا.

وثمة اخطاء اخرى مثل التاج الناقص في العلامة المائية، قيمته اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا بينما الصحيح، قيمته جنيهان فقط. ونقطة ظهرت عفوا بجانب الرقم ٤ على طابع من فئة الاربع مليمات، فاصبح يُقرأ «٤٠»، قيمته اليوم خمسة جنيهات بدلا من ١٥ بنسا،، (صورة ٢). وخرم ناقص في التخريم في عدة فئات، قيمته ١٠ جنيهات استرليني لفئة القرش الواحد بينما الصحيح ١٥ بنسا فقط.

طوابع لبنان: حرفي «CE» ناقصة من كلمة «CENTIEMES» (ص ٣)، قيمته ٦ جنيهات استرلينية بدلا من ٢٠ بنسا. والتوشيح مقلوب على طابع باستور قيمته ٦ جنيهات بدلا من ٢٥ بنسا (صورة ٤). وتوشيح مكرر قيمته ٤ جنيهات بدلا من ١٥ بنسا (صورة ٥). والتوشيح مع الطيارة مقلوبين قيمته ١٠ جنيهات بدلا من ٢٠ بنسا للطابع الصحيح (صورة ٦).

طوابع الاردن: توشيح «بريد» باللغتين مكرر على طابع اعانة عرب فلسطين من فئة ١٠ مليم (صورة ٧)، قيمته اليوم ٢٥ جنيها. وطابع نهرو التذكاري من فئة ١٠ فلس ناقص كلمة «FILS» قيمته ١٤ جنيها بدلا من ٨ بنسات (صورة ٨). وطابعا الامير عبد الله من فئة ١٠ فلوس و ٣٥ فلسا، من دون الطبعة المذهبة، قيمة كل طابع منهما ٣٠٠ جنيه استرليني. وطابع الملك عبد الله من فئة ٥ مليمات موشح «مكافحة الجراد» مكرر، قيمته ٢٥٠ جنيها وفئة ٥٠ مل موشح فلسطين مرة صحيحا ومرة مقلوبا، قيمته ٦٠ جنيها بدلا من ٤٠ بنسا (صورة ٩).



٧





٩

١٠



١١

٨



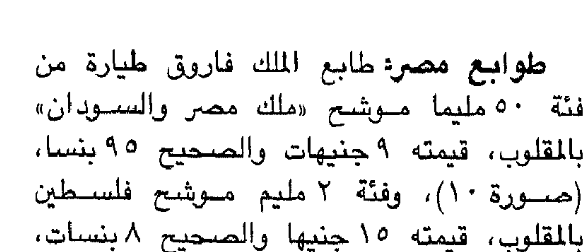
١٢



١٣



١٤



طوابع مصر: طابع الملك فاروق طيارة من فئة ٥٠ مليما موشح «ملك مصر والسودان» بالمقلوب، قيمته ٩ جنيهات والصحيح ٩٥ بنسا، (صورة ١٠)، وفئة ٢ مليم موشح فلسطين بالمقلوب، قيمته ١٥ جنيها والصحيح ٨ بنسات، (صورة ١١).

طوابع العراق: طابع الملك فيصل الاول من فئة ٨ فلس، موشح بالمقلوب، قيمته ١٠٠ جنيه استرليني، والصحيح ٢٥ بنسا، (صورة ١٢)، وفئة ٣ فلس موشح بالمقلوب وآخر مكرر، قيمة كل منهما ٧٥ جنيها، والصحيح ١٠ بنسات.

وطابع اليوبيل الفضي لجمعية الهلال الاحمر ١٩٥٧، موشح مكرر، قيمته ١٠٠ جنيه، والصحيح ٦٥ بنسا.

طوابع سوريا: طابع «OMF» موشح على طابع فرنسي، التوشيح مكرر، قيمته ١١ جنيها، والصحيح ١٥ بنسا (صورة ١٣). وكثيرا غيره. وهناك طابع كندا لذكرى المم المائي بين كندا والولايات المتحدة، اسم البلد والذكرى، في أعلى الطابع واسفله، طباعة مقلوبة، قيمته ٥٥٠٠٠ فرنك فرنسي والصحيح فرنكان ونصف الفرنك فقط، (صورة ١٤). وطابع الولايات المتحدة



١٥

طيارة اصدار سنة ١٩١٨ من فئة ٢٤ سنتا، صورة الطائرة في الوسط، طباعة مقلوبة، قيمته اليوم تصنف مليون فرنك فرنسي، والصحيح ١١٠٠ فرنك فقط. (صورة ١٥)

هذا نموذج بسيط عن وضع الاخطاء وقيمها في العالم، وهناك غيرها بالمئات، يجمعها الهواة المتقدمون والذين يملكون المال الوفير، كل ينفقه على هواه وبحسب هوايته للبلد الذي يرغبه ويفتخر بما لديه، وخصوصا عندما يعرض مقتنياته في المعارض الدولية ويحظى بجائزة ما. ■

المنتسبون الجدد في نادي هواة جمع الطوابع

٥ ـ سعد محمد قاسم، حي المتنبي محلة ٦٠٣ زقاق ٢٩، رقم الدار ٨ مدينة المنصور، بغداد العراق، العمر ٢٦ سنة، موظف، هاوي مبتدىء، يجمع طوابع جديدة وبطاقات من لبنان والاردن وسوريا وتونس والجزائر والمغرب، وطوابع ذات مواضيع خاصة.

٦ ـ مؤيد الثنيان، شارع الظهران مقابل مفروشات المطلق، ص. ب. ٢٥٦٦ الدمَّام، السعودية. هاوي متقدم، يجمع طوابع جميع البلدان العربية ومعظم دول اوروبا الغربية وخاصة اللوحات.

٧ ـ داود محمد سالم، ص. ب. ١٣٥٨٤ شناص، سلطنة عُمان. العمر ٢٠ سنة، طالب، هاوي متقدم، يجمع طوابع جديدة ومختومة وغير مخرمة وبطاقات وفروق واخطاء وغلافات وطوابع ذات مواضيع خاصة واختام من كافة اقطار العالم وخاصة الاقطار العربية.

رسائل القراء

تسلمنا رسالة من السيد انطون فرح بخاتم بريد بيروت، ولم يذكر عنوانه حتى نتمكن من الاجابة على سؤاله.

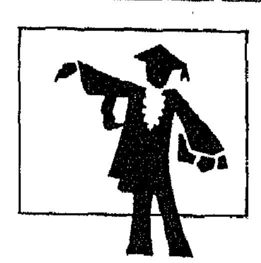
□□□□□

طلب مراسلين

اننا نرغب الى اصدقائنا الهواة أو النوادي وجمعيات هواة جمع الطوابع في البلدان العربية، اعلامنا بكل ما يتصل بهم من معلومات عما تصدره المؤسسة البريدية عندهم، من طوابع وغلافات وبطاقات واوراق رسائل وغيرها.

ونكون شاكرين كل من يرفق هذه المعلومات، بالبريد المسجل، بنماذج عنها، بحالة سليمة وصالحة للمجموعات، ونحن نوافيه فورا بثمنها او ما يرغب من طوابع عربية في رجوع البريد.

ويبقى معلوما ان القصد من ذلك العَمل على تعميم الفائدة على الهواة بامدادهم بهذه المعلومات في حينه، ولسنا نرمي الى اية فائدة مادية من هذه الارساليات الضئيلة، ذلك أن معظم المؤسسات البريدية في العالم العربي توافينا بنماذج عن اصداراتها الحديثة وبالمعلومات المتعلقة بها، لكننا قد نتلقى هذه المعلومات من اصدقائنا الهواة بصورة اسرع.



رسائل
الماجستير
والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأخ فاضل خليل ابراهيم عرض لرسالته للماجستير خالد بن يزيد سيرته واهتماماته العلمية.

ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا الشباب مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

خالد بن يزيد

سيرته واهتماماته العلمية

رسالة ماجستير ــ كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق ١٩٨١
باشراف الدكتور جاسم خضر الدوري

يشكل التراث العلمي احدى الركائز الرئيسية التي قام عليها صرح الحضارة العربية الاسلامية، وقد تبلور هذا التراث عبر التفاعل الحي مع التراث العلمي الأجنبي بمختلف مصادره. تعريباً واستيعاباً واضافة، على امتداد حقب التاريخ الاسلامي.

والعصر الأموي هو احدى هذه الحقب التي شهدت بزوغ الرغبة الجدية في التطلع نحو علوم الأمم الأخرى، وذلك من خلال التفاعل الحضاري مع أهل الثقافات والمراكز العلمية في البلاد المفتوحة، وقد أخذ هذا التفاعل في بدايته صيغة الجدل الفكري، دخلت على أثره أفكار جديدة، دفعت المسلمين الى معرفة ما لدى هؤلاء من فلسفات وعلوم عن طريق ترجمتها الى لغتهم.

وفي خضم هذه الظروف، برزت لدينا شخصية عربية، طالما أثير الجدل حولها، أخذت زمام المبادرة في الاشراف على تعريب هذه العلوم والدخول في ميدانها، ومن هنا يكمن دافع اختياري لهذا البحث، اذ هو محاولة لمناقشة الآراء المطروحة حول علاقة خالد بالكيمياء خاصة وبالعلم على وجه العموم، للوصول الى رأي محدد بهذا الشأن.

كما أن المكتبة العربية تفتقد الى دراسة تحليلية شاملة لشخصية خالد العلمية، تعتمد الاشارات التي وردت عنه في المصادر العربية وتحليل المؤلفات المنسوبة اليه، ومناقشة ما طرحه المستشرقون في المراجع والمقالات الأجنبية.

عاش خالد بن يزيد في فترة سياسية قلقة، شهدت تعاظم نفوذ عبد الله بن الزبير

وسيطرته على معظم أقاليم الدولة الأموية، ثم تنافس الأمويين على السلطة بعد وفاة معاوية بن يزيد (٦٤هـ). وكان خالد ينتظر دوره في تولي الخلافة ولكنه واجه منافسة قوية من قبل مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥هـ)، الذي ساهمت ظروف معينة بفوزه بالسلطة وبالتالي في انتقال الخلافة من آل سفيان الى آل مروان، وأصبح خالد على أثر ذلك، وبموجب اتفاقية الجابية، ولياً للعهد، ولكن مروان لم ينفذ هذا الاتفاق وعهد بالخلافة الى أبنيه عبد الملك وعبد العزيز. وظلت العلاقة السلبية بين خالد عن طموحه في الخلافة، واتجه نحو تحسين علاقاته مع الخليفة الجديد فاعتمده عبد الملك مستشاراً خاصاً له وأصبح من المقربين في بلاطه، فكان يأخذ برأيه في مختلف الميادين السياسية والعسكرية والادارية.

لقد كان خالد يتمتع بالذكاء والفطنة، وله استعداد ذاتي ورغبة في اكتساب المعرفة، يتضح ذلك في مجادلاته مع خصومه ومناقشاته مع أصحاب المذاهب والعقائد الأخرى وروايته ونظمه للشعر، فجاء تخليه عن الخلافة، فرصة لتنمية هذه الرغبة وللتعويض عما فقده في المجال السياسي، وذلك بتوجيه نحو العلم.

وقد قام لأجل ذلك برحلات علمية، استهدفت البحث عن الكتب والعلماء اطلع من خلالها على كتب علمية أجنبية في ميادين الكيمياء والطب والفلك، فأمر بعضاً من علماء مصر بترجمتها الى العربية.

وكانت الكيمياء أبرز هذه العلوم التي جلبت اهتمام خالد، نظراً لما تهدف اليه من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب، فأصبحت لديه رغبة في معرفة ماهية هذا العلم وأهدافه ومضامينه وكيفية الوصول اليه، فاتصل ببعض أساتذتها، ومنهم مريانوس الذي تلقى على يده أسرار هذا العلم ورموزه ومفاهيمه، وقد صاغ ما تعلمه من الكيمياء شعراً ونثراً.

لقد تضمن البحث خمسة فصول، تناول الفصل الأول منها دراسة حركة التعريب وملامح التطور العلمي في العصر الأموي. أشير فيه الى المراكز الثقافية التي اتصل بها المسلمون في البلاد المفتوحة، وملامح التطور الفكري بعد الامتزاج الحضاري، ثم حركة التعريب في مجال الادارة والفلسفة والعلوم والتاريخ والدين.

أما الفصل الثاني، فقد خصص للبحث في حياة خالد السياسية من حيث الوضع السياسي في عصره والعلاقة بينه وبين آل مروان، اضافة الى شخصيته وحالته المالية والاجتماعية وعلاقته بالشعراء.

وفي الفصل الثالث، دراسة لاتجاه خالد نحو العلم ورحلاته العلمية، ثم دوره في تعريب العلوم كالكيمياء والطب والفلك ومساهمته فيها. وقد ثبتت في هذا المجال شخصية اصطفن القديم، الذي قام بتعريب كتب الكيمياء لخالد، كما ثبت أيضاً تعريب كتاب قراطيس الحكيم الموسوم (بـ كتاب في الشمس والقرم» في عصر خالد.

وتناول الفصل الرابع علاقة خالد بالكيمياء. شمل دراسة شخصية استاذي خالد، مريا نوس واصطفن القديم، ومناقشة اشتغال خالد بالكيمياء من خلال تحليل آراء المؤرخين العرب والمستشرقين، واعطاء بعض الملامح عن كيمياء خالد. وقد تبين في هذا الفصل ثبوت شخصية مريانوس واشتغال خالد بالكيمياء، اذ أيدته العديد من الاشارات الواردة في مصادر التاريخ والعلوم أما الفصل الخامس، فهو دراسة تحليلية لبعض المؤلفات العلمية المنسوبة الى خالد، سواء ما ذكره المؤرخون العرب أو تلك التي وصلتنا بشكل مخطوطات. وقد ظهر لدى تحليل بعض هذه المؤلفات أن فيها من الحقائق ما يمكن أن ننسبه الى خالد شعراً أو نثراً. وأن فيها من الأمور ما لا يمكن أن تعود الى عصر خالد، وهي على ما يبدو اضافات الحقت بالأشعار والنصوص الأصلية. وأخيراً فإن هذا البحث هو محاولة متواضعة تسهم في اعادة كتابة تاريخ تراثنا العلمي وشخصياته بما ينسجم وابراز الصورة المشرقة لهذا التراث.

●

